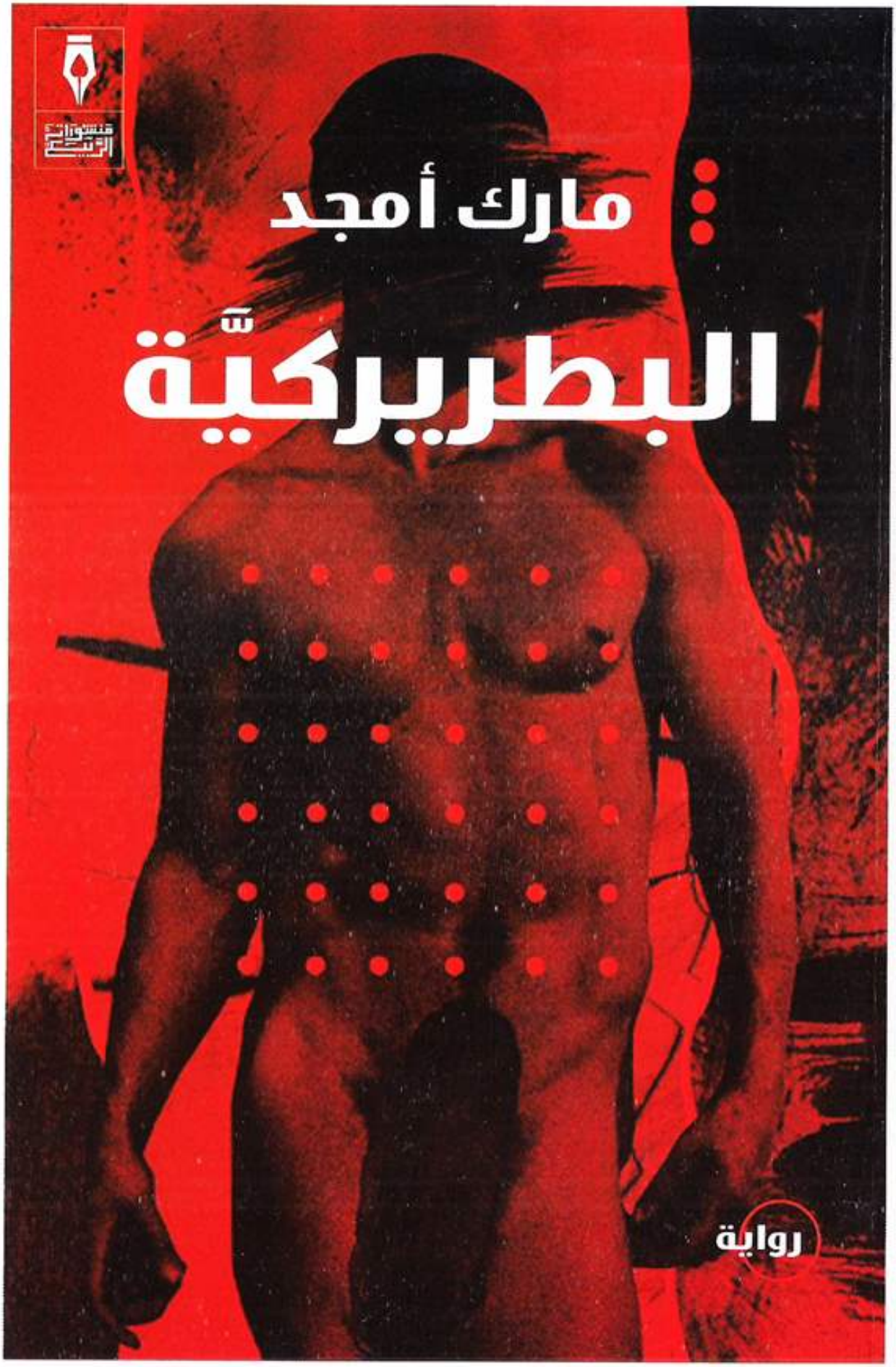
منشورات الربيع
مارك أمجد
البطريركيّة
رواية

مارك أمجد

البطريركيَّة

رواية

إلى

سارة الفارسي

بطريركي - Patriarchal:

وصـف للمجتمـع الذكـوري الـذي تكـون السـلطة فيـه لـلأب أو للرجـل بشـكل عـام.

١

عرفتُ أبي وعُمري يتقدَّمه.

قابلتـه صدفـة وسـط الصبيـان المُنضمـين معـي إجبـارًا إلى البطريركية. خمّنتُ من تقاطيع وجهه أنه يصغرني بقليل. هو لم يقل إنه يعرفني، عرفته أنا. ربما أنا منْ حملتُ سنواته، أو حملَ سنواتي فجأة. المهم أنني ألفيتُ نفسي معه في طور حرِج جدًّا من حياتنا نحن الاثنين. وما جعل ملامحه تستحوذ عليّ بمجرد رؤيته، وهو لا يزال شابًّا؛ إنها لم تخالف صورته كثيرًا حينما صار زوجًا لها. أما الآن، فنحن قبل ابتداء الأشياء؛ قبل ذلك اليوم البعيد المشئوم الذي قابلها فيه لأول مرة وهو يرصّ أتواب القماش في الدكان على البكرات الدوّارة. قبل أن تلكزها صديقتها بحماس شرير كي تخبرها بأمر ذلك البائع النحيف الذي لم يُنزِل عينيه من عليها منذ دخلتا المحل. قبل أن يضع القسيس يده على رأسيهما المتوّجين بإكليلين ذهبيين داخل الكنيسة، وسط حشد من المدعوين المُغفلين، كي يدمج مملكة السموات بالجحيم.

قبل أن يحقق في فرجها أول إنجاز صبياني له بعد خيبته المريرة في الثانوية. قبل أن يغزو سهمه المنوي قمرها لتنفجر بويضتها الكونية، وأتطاير منها في مشهد لا تقل آثارُه عن الانفجار الأعظم. قبل أن تتشكل على الملاءة ليلتها خطوط دقيقة من الدم، تشبه الفوطة التي طبعتْ عليها «فيرونيكا» تقاطيع وجه المسيح وهو في طريقه إلى الصلب... باستثناء أن كَفَني أنا تشكَّلت ملامحه قبل مجيئي أصلًا.

نحن الآن قبل أن أكون، وهذا يعني أنني لو قتلتُ أبي، سأهرب من البطريركية التي احتجزوني فيها معه، وسأتزوج من أمي بدلًا منه.

في البدء كان الغضب، غضب في الجنس حتى، ولّد ابنا مشتتا. وبمفهوم مسيحي؛ من يولد من أبوين لا يتحابان، فهو ابن زنا. هو ذا أنا! بطريقة مقننة وإنجيلية. كذلك بقية التفاصيل، تم تمريرها وتقديسها؛ والدليل أنهم رموها على المذبح ليلتها وهم ينشدون ترانيم العُرس، بينما أنا في أعماق بوتقتي الخاصة، أحترق بلهيب نرجسية والديّ، ولا تصلني من أصوات هذه الشعائر الكنسية في ليلة زفافهما، سوى أصداء واهنة، تبهتْ على جدران قلايتي الصخرية التي بالكاد تستوعب جسدي.

***

نظرًا لبلوغي السن المطلوبة تم ترحيلي إلى البطريركية. وهناك، في بناية تقشرت جدرانها ومقاعدها وصدأت مقابض أبوابها، وفي عنابر معبّقة برائحة الملح، وليل لا يهدأ على قالسات الموج، قابلت أبي. لم يُلق عليّ حكمة من بين شفاه تيبّست وأسنان اصفرّت، ولم يدلني على كنز مدفون أسفل سجننا. غير أنه أمسك بيدي وأشار إلى محنتي قائلًا: «هذه جنتُك... ولا أطردُك منها، بل في داخلها موتًا تموت!».

من حسن حظي أننا لم نتواجد في عنبر واحد معا. كنت أخشى أن يستيقظ ليلًا ويقحمه في مؤخرتي. لطالما استيقظت أيام كنت طالبًا جامعيًّا، قبل أن آتي إلى هنا، شاعرًا بألم في ثقبي. كنت أظن كل صباح أنه اعتلاني ليلًا وفعلها، لكني ترددت في كل مرة فكرت أن أسأله فيها.

كما خفتُ أن يتهمني زورًا عند القومندان بأني أحاول صنع تجمهُر وسط الزملاء، كمحاولة منه لتحقيق انتقامه أخيرًا

الذي صدّته ماما عني طوال سنوات حياتي في بيتنا. لكن هنا لا توجد ماما، ولا أي امرأة. أنا وهو فقط! وهذا من شأنه أن يصنع حياة حقيقية. بعيدة عن أي توهمات يسكبنها مثل زلال أرحامهن على رؤوسنا.

حينما رأيته في سنه الصغيرة هذه لم يخب تصوري الذي أنشأته له منذ اللحظة التي أوقدتْ فيها شجاراته معها خيالي. فكما يقولون: المبدعون يحركهم دومًا الألم. وأنا على سبيل المثال، ما سباه لي من طفولة مضطربة حقق لي دعمًا خياليًا هائلًا، مثل اختراع عبقري تُرك في غرفته لأزمنة مديدة أبطلتْ سحره الآني... ألفيت أبي أسمر البشرة، ضخم البنيان، كرشه لدن يتموج مع أي حركة. له قضيب مرتفع حتى وهو خامل. كنت ألحظه بارزًا أسفل ترينج الرياضة الذي وزعوه علينا في أول يوم. كما رأيته بنفس مشيته العرجاء التي كان يعود بها للمنزل حاملًا أكياس التموين. وبسوستة التبوّل إياها المفتوحة دون داعٍ. وجزمته الضخمة المهلهلة ذات الرباط المفكوك دومًا، تمامًا مثل أحذية الموظفين الجلدية التي كان يعود بها من سوق السمك وقد تلطخت بالوحل.

يتكلم مع الزملاء هنا بنبرة تناسب جسده الهمجي وبشرته الفاحمة وأصابعه الضخمة ضخامة قضيبه، التي لا يتوقف عن التشويح بها. ومع ذلك، عيناه كانتا ساكنتين، كأنه تركهما في محجريهما منذ أُلتقطت له تلك الصورة بالأبيض والأسود، التي تتطابق ملامحه فيها مع صورتي الملونة، التي أخذوني لتصويرها عندما بلغت نفس سنه... لم أره هنا وهو نائم في العنبر، لكني تخيلته كعهده في بيتنا: مفرشخًا رجليه، ينفث

من بينهما كل ما تحمَّله اليوم. وأحيانًا ينقلب على وجهه فتسخر منه ماما أمامنا: «تزوجتُ أوتوبيسًا انقلب». يشخّر وفي نهاية كل شخيرة يتراجع كأنه يشخُر. يتراجع كأنه ليس بنائم، بل هو الجبان الذي ألفته دومًا!

في طفولتنا، أخي الأصغر مني أخرج ذات مرة ملصقًا ملونًا من كيس الشيبسي، مرسومة عليه شخصية كرتونية لرجل يشخّر، فألصقه على الدولاب بجانب السرير الكبير الذي كان يعتليه بمفرده، في غرفة يسكنها وحده. لأنه كان يعتزلنا ولم يكن يمنح ثِقلًا لأحزاننا وأفراحنا، ولما كبرتُ عرفت أننا نحن من اعتزلناه. لكن كيف استنكرت أمي إغفاله لمشاعرنا، في الوقت الذي أسقطناه هو نفسه من حياتنا! كان يعود أحيانًا في المساء فيطل على عالمنا المتمثل في غرفة المعيشة تحت أضواء التليفزيون المتروك، كضيف بغيض في رأيها، وكمسخ في مخيلة إخوتي. وللمفارقة، كان جنون الاضطهاد يعتصر الذئب يومها، أكثر من الحملان!

كان يستلقي بجسده كل ليلة على فراشه في حجرته، كأنه منبوذ في مستعمرة جذام، يشاهد على التليفزيون ما يصادفه دون إصرار على فقرة بعينها؛ قد تكون مباراة يُعاد بثُّها، أو فيلمًا أيًّا كانت ألوانه وحقبة صناعته، أو مقابلة بين شخصيتين بارزتين، لا يعرف وظيفة أو منصب أيٍّ منهما.

ومثلما لم يأخذ حياته بنضج وجدية، لم يصدر عنه مرةً أي رد فعل تجاه ريموت التليفزيون.

لم يكن بشكل عام من ذَوي الشغف، سواء الثابت أو المتغير. لم تكن له هواية. ولم يراوده طيش جامح كالأحلام

الصبيانية التي تصيب أي مراهق. حتى حينما تزوجها، لم يكن يقصد شيئًا. تخيلوا! حينما أتى بي إلى هذه الحياة، لم يكن أبي يقصد شيئًا! كأني نتيجة اعتباطية لعملية حتمية وسط بلايين العمليات التي لا تكترث لحاصل مُجرّد؛ هو اسمي!

باستثناء أني مربوط بحيوانه هو، لا ببيضتها هي. أي أنه كان سينتجني بشكل جبري. وهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن أعتبره موضع امتنان له. أنه جلبني لا جبلني. وعلى عكسه، وجدت غاية سامية لحياتي منذ أول يوم... أن أنتقم منه.

في وسعي تخيُّل ليلتهما الأولى: فبمجرد أن انتهيا، انتفخت بطنها فجأة وانطبعت عليها آثار يديّ، وارتفع صوتي من الداخل بينما أحملق في ذلك الخندق الطويل الذي سيتوجَّب عليّ أن أقطعه للدنيا، فصرختُ وأنا رضيع من بطن أمي قائلًا: «إذا سرتُ في وادي ظل الموت، لا أخاف شرًّا». فنهض هو من فوقها ووضع يده على فمه مشدوهًا: «يا الله! كنت أظن أن الأمر سيتوقف على إدخاله، ما أدراني أن للأمر تبعات، ماما أو الكنيسة أو أصدقائي المنحرفين في الحي لم يخبروني بشيء عن هذا».

وطبعًا التهمة لن تطوله وحده! لأنها بدورها استمتعت. ولعل نظرتي الدونية لها جعلتني أثمِّن تأثير البطريركية على تكويني في الفترة المقبلة، إذ ستدعمني كثيرًا في الاغتسال من أمي، مثلما ينظفون المواليد من تلك الرواسب اللزجة التي تغطيهم لحظة خروجهم.

أنا لا أشفق على سذاجته التي دفعته أن يغرز عاجه البُني ببراءة في لحمها الأبيض، متخيلًا بدوره الحيواني أنه يُسدي

خدمة لله. لا أراه مَقلبًا تورَّط فيه ولا أشفق عليه؛ لأنه في طفولتي نعتني ذات مرة بالخول. والمشكلة أني لم أكن أعرف وقتها معناها، لكني كنت أسمعها في الشارع والمدرسة، وكنت أعرف أنها شيء جلل، لا يمكن أن ينعت به أبٌ ابنَه أبدًا. ومرة أخرى رش فيها جدتي بمبيد الحشرات حتى سقطت فاقدة الوعي. زد على ذلك أنه كان بخيلًا جدًّا. أو ربما على حسب قول لجنة المُحلِّفين البطريركية: لم يحبنا بالقدر الذي يجعله معطاءً معنا. وكان دومًا يسخر من ملابسي لأني لا أقلده، ولأني تفوقت عليه في دراستي، بينما تعرض هو لمِحنة في الثانوية ظلت عُلّيقة مشتعلة في حياتي.

كما يحكون كيف وأنا رضيع كدت أنسلت من بين يديه كالماء، بينما كان يرفعني لأعلى كي أطّلع على بنت الجيران، معتقدًا أني بذلك سأكفّ عن الصراخ... ربما كفّ هو!

كان يضربها، ولم يكن يضربنا إلا إذا حاولنا منعه. أعتقد أنه لم يكن يقصد أذيتنا لأنه لم يكن يبدأ أصلًا بالهجوم عليها. كانت هي أولًا تقذفه بالشبشب أو بتمثال لأحد القديسين، أو تصفعه على وجهه، فيهوي بقبضته على حاجبها، فتبكر للعمل بجفن بنفسجي منتفخ، كأن زهرة «تيتان» قررت أن تنبت في هذا الموضع من جسم أمي. تقابل بها مديريها في المدرسة الذين أعجبت بهم واحدًا تلو الآخر، مُمتنةً لهيئة الفرنسيسكان التي قدمت لها باقة متنوعة من الرجال الچنتلمان، غير المتوفرة في مزهرية بيتها.

كان يطوّح بأطباق الصيني، أوراق مذاكرتي، براويز القديسين. يقذف حُليها ويدهسها بجزمته. بمقدوري أن أسمع كل شيء من

موقعي هنا أسفل الترابيزة. ثم يندفع نحو تسريحتها فأسمع زجاجات العطور وهي ترتطم بالأرض واحدة تلو الأخرى، بينما تنشط روائحها الثقيلة في كل أرجاء الشقة، رحيمة بنا نحن الصغار وسط هذه الحرب التي لا نبلغ القامة الكافية كي نتوسط بين طرفيها ونفصل بينهما. وفي الختام يفتح باب الشقة ويصرخ في بئر السلم كي يأتي أي جار وينقذه من زوجته الشرموطة، ومن أولادها الذين سيقضون عليه بمصاريفهم.

اعتاد أن يضاجعها مقابل مصروفنا، حتى إنه في مرات كان يمتنع عن الدفع حتى تدخل غرفته. وفي مرحلة أخرى بدأ يقولها علانية أمامنا دون أي مداراة: «مش هدفع إلا لما تنام معايا!». وبذلك صارت أمي هي أول مومس أراها في حياتي. وإن كانت عاهرة مُحنّكة، فقد كان زبونًا غبيًّا لدرجة دفعته أن يدفع مالًا مقابل شيء يملكه في الأساس.

ولمّا توقف عن استدعائها لغرفته فترة، شرع يغيب في الحمام. فدخلتْ عليه مرة لتجده ينزع شعر عانته. عرفتْ أنه ذاهب للقاء إحداهن. لم تندهش. أما هو فكادت قدماه أن تنزلقا مثل مراهق. كان يغيّر محطة التليفزيون بمجرد أن أدخل عليه غرفته. وعندما كان يجلس معنا على مائدة العشاء، وهو أمر لم يكن يحدث كثيرًا، كانت جدتي تلحظ عينيه المسمّرتين على المذيعة، بشعرها الزعفراني وصدرها الأكثر ارتفاعًا من تضاريس البلدان خلفها. وفي نهاية يومه المتوتر، وبحماس شديد، كان يأنس إلى فراشه على ضوء التليفزيون المتروك، دون أن يتكاسل مرة عن دفع يده أسفل بنطاله، وإيقاظ إلهه الخامل.

كان يوقظ إلهه، ولو بغرض التسلية.

٢

سلّمونا في البطريركية أول يوم حقيبة جلدية صغيرة بها سكّين حاد وواقٍ ذكري وشرابات صوفية رمادية وسراويل داخلية بيضاء خالية من أي نقوش أو رسومات، ثم تسلموا منّا في مشهد كامل العري سراويلنا الشخصية التي أتينا بها من منازلنا، الملوَّنة برسوم لميكي ماوس وبات مان... كان السكّين لاستخدامه في تمارين القتال اليومية. والواقي كُتبت عليه منذ أول يوم أسماؤنا، وعُلِّق بدبوس على ياقة سُتراتنا، ونبهوا علينا طوال اليوم أن عقوبة ضياعه السجن.

أما البطريركية نفسها فكانت عبارة عن هنجر حديدي عملاق، تحيط به حظائر مُسوّرة بشِباك معدنية، تقبع داخلها مانيكانات نسائية من خشب، لها نهود بحلمات في حجم البلح وفرج مُبطّن بالإسفنج. سنتدرب أمام تلك المانيكانات المستسلمة حينما تبدأ فترة تمريننا.

الهنجـر كان مُقسَّـمًا لقطاعـات وطوابـق وعنابـر. وفي الحمّـام الخـاص بعنبرنـا، وقفـت يومهـا وحـدي. يحيـط بي بـلاط بلـون الفُسـتُق، تتخللـه مرايـا صغـيرة عـلى الجـدران بحـواف غـير منتظمـة، وخلفـي أبـواب خشـبية مفتوحـة تكشـف عـن عيـون في الأرض يتراكـم فيهـا غائـط الزمـلاء ومناديلهـم وأكيـاس الشـامبو خاصتهـم.

الحمّـام البلـدي؛ حـتى أقـضي حاجـتي فوقـه كان يتوجـب عـليّ أن أخلـع كامـل ملابـسي السـفلية، وبعدهـا أسـتخدم الخرطـوم في غسـل مؤخـرتي فتسـقط قطـع الغائـط المترسـبة حـول ثقـبي، وأحيانًـا يصيـب يـدي نصيـب منهـا. لكـني مـع الوقـت أَلِفـتُ الأمـر وعلَّمتـني البطريركيـة أني أنـا وبـرازي شيء واحـد.

دخـل أبي الحمّـام. لـم أتوقـف عـن مراقبتـه منـذ أول يـوم رأيتـه معـي هنـا. أغلـق البـاب عليـه. واصلـتُ حلاقـة ذقـني محـاولًا ألا أسرح. ذقـني كل يـوم تـزداد خشـونة بسـبب اسـتخدامي المُـوسى بشـكل مفـرط، وأعـلى رقبـتي انتـشرت بثـور حمـراء في حجـم حبَّات الرمـان. كنـت أحيانًـا أضطـر لحلاقتهـا دون كريـم، في حالـة أني اكتشـفت في الحمّـام أني نسـيته في العنـبر، لأن الثـواني الـتي سـيتطلَّبها إحضـاره، ربمـا تكلِّفـني ليلـة حراسـة كاملـة. وأحيانًـا كنـت ألجـأ للصابونـة الموضوعـة عـلى رف الحـوض، والـتي لا أعـرف تخـص مَـنْ، كي أقلـل الوقـت والاحتـكاك. وحـتى في المـرات الـتي يتوفـر لي وضـع الكريـم فيهـا (كان الفـوم ممنوعـا بـل كل العبـوات المضغوطـة الـتي تعمـل بالبـخ) كنـت أنتظـر مرتعـدًا في الطابـور مجـيء القومنـدان المنـاوب كي يمـرر واقيـه عـلى ذقـني، ويتأكـد مـن عـدم وجـود أي خشـونة تجعلـه يقشـعر ويغمـض

عينيه، فينعتني بالمُنحلّ ويفكر مليًّا في عقاب مناسب؛ قد يأمرني بتسليك حمّام مسدود، أو النزول حالًا على يديّ وعمل ٢٠ مرة ضغط، ولهذا التمرين هنا قاعدة؛ إذ يتحتم علينا توجيه قضباننا لأسفل والتحرك في شكل طعنات مباغتة وسريعة جهة الأرض، كأننا نضاجع إحداهن أو نضاجع كل امرأة عرفناها ولوثتنا طوال حياتنا العشوائية التي لم نعرف فيها البطريركية. أو قد يعاقبني القومندان بتأمين أحد الأبواب الخلفية للهنجر من وقت المساء حتى يتسلل ضوء الصبح من خلف مداخن المصانع المُطِلَّة على البحر.

كنت أنظر دومًا لزملائي المُكلَّفين بحراسة الهنجر، وأحاول أن أستشعر ما يجتازونه في سقعة الليل رغم حر النهار هناء، بينما أنا في سريري الدافئ تحت بطانيتي الثقيلة أصيخ السمع لصفير الهواء وهو يدق على معدن هنجرنا العملاق. وكان القماديين يبالغون في خطورة هذه المهمة ويبلغوننا أن حياة كل الزملاء النائمين مُعلَّقة في رقبة ذلك الفرد الوحيد المستيقظ. حتى جاءت ليلة ووقع عليّ الاختيار كي أقف هناك بالأسفل. وفي ذلك البرد، وتلك الوحدة، لم تنقذني سوى تخيُّلاتي الشبقية للفتاة التي كنت مرتبطًا بها والتي ظننت أني فقدتها هنا. لكني فوجئت بقضيبي تتسع زاويته، فاطمأننت كونه لا زال قادرًا على فعلها تحت هذا الضغط وهذه الحياة الصعبة، خاصة مع حظر الهواتف المحمولة التي لم يكن مسموحا بها، خوفا من محاولة أي أُم استعادة ابنها، أو قد تكون الحبيبة نفسها نسوية جاسوسة! وفي غمرة أفكاري هذه تشتت ذهني وفقدت صلابتي، وما إن ارتخيت، حتى أدركت أني

أضعت فتاتي تمامًا.

تمثّلتْ قسوة فقداني لها لا في كَوْني عاشقًا، بل كعصفور عوّدته أمه على مخاصمة الحياة، على أمل أن تأتي هي وتصالحه. فتحننت على نفسي وقلت؛ ما الضرر لو قلدتْ الحياة أمي مرة؟!

انتقلتُ بنفسي العرجاء من فراش الاكتئاب وألقيت بها في حوض الكراهية البارد، ثم انتهى الأمر بي كعادة أي مريض مهما كان مرضه خطيرًا، بالا مُبالاة. وقلتُ مزمجرًا؛ كان على حبيبتي وأمي أن تظلا موجودتين، حتى ولو بالإجبار، مثلما أتى بي البطريركيون إلى هنا. كان عليهما أن تظلا موجودتين مثل تلك الصفارة المستديمة التي نسمعها بمجرد أن نرفع سماعة الهاتف.

أتذكرين يوم أخبرتك أني واظبت طوال حياتي على البكاء بصوت مكتوم، لقد انتزعوا مني كل الشخصيات التي كنتها...

في أسبوعي الأول اعتدت مرتين على الأقل يوميًّا أن أختبئ داخل الحمّام وأبكي لمدد تفوق أوقات استمنائي في بيتنا. ومرة لاحظ «چيت لي» عينيّ مُحمرَّتين وسأل ماذا بي؟ ولم نكن تعرّفنا وقتها، فتحججتُ بأني نسيت قطرتي الطبية أثناء تحضير شنطتي في البيت. أعرف أنه عرف كذبي! لكن من يهتم بكذب الآخر هنا، ونحن لا نعرف بعضنا البعض أصلًا؟

كنت أهرع للحمام محاولًا الحفاظ على تماسُك وجهي كمن يريد أن يتقيأ. وبمجرد أن أنفرد بنفسي خلف باب من هذه الأبواب التي يتغوطون خلفها، على رائحة خرائهم، أبكي.

بصوت منخفض، لكن باهتياج شديد. كأني أكفّر باحتجازي هنا عن كل لحظة أهنتكِ وجعلتك تفقدين الثقة فيها بحبيبكِ، أبيكِ.

أفتقدك بشكل يُخيفني وأخشى أن تكون العزلة فقط هي سر احتياجي إليكِ، وليس الحب! لا أستطيع تنحية لحظاتنا جانبًا؛ حينما وطأتُ جسمك كأني أجتاز المعصرة وأدوس العنب. أول ما رأيت عضوك. الخط الذي يشقُّه. ملمسه اللدن. دفئه. العرق الذي التمع فوقي وأنا فوقك وأخبرتيني لحظتها أني مكتمل الرجولة وقادر على العطاء (وليس كما نعتني أبي). أتحسَّر على نفسي كيف أرفض أي إله، لكني ببساطة أتقيأ في كل مرة أتخيلك وقد صرتِ مُحرَّمة عليّ. آآه، نادم في تلك السقعة والوحدة أني لم أخبرك قبل المُضيّ أنكِ امرأة بكل ما تحمله الكلمة من مفاجآت وفجور، وأن لآهاتك قوة فاقت عيسى وهو يُحيي الموتى من القبور.

أتحسس جوفك اللدن بعصا رعايتي. سيخترقك فيمزق أحشاءك. سينتزع ليس فقط عذريتك بل كل الصرخات التي تخبئينها في خزانتك يا خبيثة. سيدكُّ قلاعك. سأقبض عليه كالسوط وأمتطيكِ مثل فاتحٍ. أجلد نهدين في بياض أمك، وفخذين مفرشختين في صراحة العاهرات. أُطعمك إياه فتستلذين وترومين المزيد. تأخذينه عنوةً وتُقحمينه أينما تشائين. تلعقين رأسه مثل مصاصة ويسيل لعابك فوقه مثل العسل. أُمطرك بحليبي فتستحمين وتشكرين الإله لأنه لا ينساكِ.

أذكرك وأنتِ تقطفين تعبيراتك الشيطانية بسهولة، بينما

أتلعثم أنا محاولًا العثور على لفظة شريدة أعبّر بها عن أي شيء يجول بخاطري. عيناكِ، في تلك الصورة التي التُقطت لكِ في الرابعة، أحتفظ بها تحت مخدة سريري هنا في العنبر، شقيتان، تودان لو تفران، لكنهما لا تناسبان سوى طفلة، فهذه الشقاوة مع راشدة ليست سوى خطر. نعم أنا موسوس، وهل يُجدي الوسواس نفعًا إلا مع الحب؟ وهل هناك من يعشق مثل المهووسين؟!

قلبك الذي أحفظه في خزانتي مع سروالك. يدُك الصغيرة تمسِّد عانتي. أصابعُك شمعٌ لا يذوب. ستذوبين بأكملك في حليبي مثل البسكوت!

أنا يافعٌ له جذع يطقطق مثل كهل، وبؤبؤان من الحب استحالا قُبّتين سماويتين. صلب كمكعب سكر يحيله دفء فمك لعسل. رجُل، بيد أن البكاء بشهقات أدفنها في صدرك، أقرب إليّ مئة مرة مِن أن ألجك. ملحد اعتقدك! هشٌّ أحيانًا، يكسرني تنهُّدك، لكني أصنع من وهم الضيقات أمتن الأجنحة، وأستحيل طوفانًا فوق فراشك يُطيح بأبراجك الشامخة.

نلتُ كل شيء إلا بكارتك. دعي رأسي يمر بين فخذيك. أعرف جهتي كتلميذ متخبِّط. لكنه تخبُّط لذيذ، فربما يصطدم لساني بنقطة تبعث بكِ أول رعشة تختبرينها. شفتاكِ الورديتان اشتقت لهما. كم تتلاءمان مع شعرك الفاحم! نهداك في يديّ لا ينزلقان، ولن يجفّا مثل الجيف والثمار. خلخالك سماء مرصعة بأعين مبهورة. ساقاكِ رمال متعرِّجة يعلوها أفق باهت.

فـوق مثلثـك يسـيل لُعـابي عـلى أحراشـك، فتخـرج أزهـار عبـاد الشـمس، ولا تعوديـن مضطـرةً للحلاقـة عنـد كل لقـاء.

رائحتـك الـتي وقفـتُ أنتظرهـا بمحطـة القطـار مـرات ومـرات، ألفتُهـا أخـيرًا تفـوح مـن خزانـة بداخـلي، كانـت تنبعـث منهـا في العهـود الأولى رائحـة نتانـة وعطـن.

أعـرف أنـك لـو هجرتِـني سـأراكِ مثـل فرقاطـة تشـق زُرقـة البحـر، غـير مكترثـة بالرغـوة البيضـاء المتطايـرة عـلى جانبيها. أشـك فيكِ، لكـني صبـاح تـركك، سـأهيم في الشـوارع باحثًـا عـن أي عاهـرة، أتـودد إليهـا وأهمـس في أذنهـا: لجـأت إليـكِ، لا لـشيء، سـوى أني لا أصلـح للحـب.

عينـاكِ ويـل لمـن يظـن سـكينتهما دائمـة. أصابـع قدميـك دقيقـة كحبـات المكرونـة، سـيُفقدها حليـبي الـدافئ صلابتهـا. نهـداك شمسـان بعينـين بُنيتـين. كأنهمـا عينـا الإلـه يرقبـاني وأنـا صاخـب تحتك/تحتـه. مؤخرتـك خزانـة، مفتاحهـا عضـوي. مجـراكِ يشـتاق لسَـيْل عـاتٍ. جسـدك يعتليـني في خفـة مثـل بالونـة أفلتتهـا يـدكِ. كـم أنـتِ حانيـة يـا أمـي! وكـم مضاجعتـك تثمـر في جوانـبي زهـورًا لـم تكـن لحديقـتي مـن قبـل! أتـوق أن تلديـني مـن جديـد، وأنـا يقـظ هـذه المـرة. لـن أخطـئ تجـاه ذلـك الجسـد مجـددًا. سـأتودد إليـكِ في المسـاء: «ماما، لقـد ملأ العلقـم فمـي، أذيقيني مـن لبنـك، فطـوال سـنوات التيـه، لـم آلـف غـير مذاقـه!».

***

سـمعت زميـلي/ أبي يتـأوه فجـأةً مـن خلـف بـاب الحمـام. ربما هي البواسـير الـتي تؤلمـه. لـم أكـن أعـرف مـا هـي البواسـير، وحينمـا

ذكرتْ ماما مرةً أنه مُصاب بها، سألتها فأخبرتني أنها كرات في حجم العنب تنبثق من فتحة الشرج وتُعالَج بالكريمات والبرمنجنات المنقوعة في مياه دافئة. ربما حبَّات العنب الآن هي التي تزاحم البراز في شرج أبي. استحال أنينه إلى صرخة. أخفضت يدي بالموسى من على ذقني. ارتفع صوته. مشيتُ بتؤدة مختالًا بصوت جزمتي البطريركية الجلدية الضخمة المصنوعة بماكيناتهم، بينما كعبها يقرقع على البلاط. توقفت أمام باب الحمام وناديت: «ما مشكلتك أيها الزميل؟» لكن أحدًا لم يُجِبْ. دفعتُ الباب بسبابتي فنهرني.

عُدت بظهري إلى الحوض ثم توقفت إثر ندائه لي. هذه المرة، وكأنه تأسف على ردعي، وجدته يطلب مني بنبرة متوسِّلة أن أساعده على التخلص مما يُثقل خصيتيه. هكذا عبّر عنها: «لقد امتلأتا باللبن وصار جُبنًا». ذهلت! كنت أعرف من صغري عثراته مع نساء غير ماما، لكني لم أتوقع أن أساعده يومًا. حتى وإن كان هذا، على عكس البيت، مسموحًا به هنا باعتباره مجتمعًا ضيقًا يعج بعدد مهول من الذكور؛ والمشكلة في تصميم أعضائهم أنها خارجية، مما يزيد من احتكاكها في التجمعات ووقت صرف الطعام، ويجعل البطريركية تبدو من بعيد مثل حقل ذرة كابوسي!

أمي ليست موجودة! أما هو فلو خرج من خلف هذا الباب فبإمكانه أن يؤذيني؛ بأن يبلغ مثلًا قومندان مجموعتنا عن رفضي مساعدته له وهو يحلب ذكورته. وهي على عكس الخارج عادة حميدة جدًّا هنا وليست سرية أبدًا.

ازداد توسُّله وفجأةً انقلب أمرًا.

كان يأمرني أن أنزل سلم عمارتنا بسرعة كي أحمل عنه أكياس الخضار، حتى لو كنت أستحم وقتها. أو حينما أفعلها في الحمام فلا يتوقف عن الخبط والزعيق: «ما الذي تفعله كل هذا بالداخل؟! ولماذا لا تختار توقيتًا آخر أكون فيه خارج المنزل؟!» ليتني وقتها بادلته السؤال: «ولماذا لم تختر أنت اللهو المنفرد كطريقة مستديمة للاستمتاع، بدلًا من أن تصبّهم داخلها؟!». وحينما يعرف من أخي أني تعرضت للضرب بالمدرسة، وأني لم أستطع مقاومة مَنْ ضربوني بأسلوبهم/ أسلوبه الهمجي، فيصرخ فيّ: «متى لن تكون أُمك؟».

كأن الله خلق البشر إما رجالًا أو أُمي!

سرت نحو الحوض. تلمّستُ بكفي أسفله. وجدته ناعمًا باردًا. هذا هو المطلوب. هويت بباطن يدي فصفعت انبعاجه بقوة. تألمتُ ولم يخرج الصوت المنشود. عاودت فعلها. بعد الخبطة مباشرة كان يداهمني شعور وكأن جليدًا يمتد أسفل جلدي، ثم سريعًا ما تنفك تلك الصلابة ويسري الألم مرة أخرى. ظللت أصفع الحوض مرات ومرات بينما أرقب يديّ المحمرتين، حتى ندت عن أبي أخيرًا آهة، عندها شعرت بأن ما أفعله بدأ يجدي نفعًا.

أعرف عنك كل شيء!

لِمَ تختبئ في هذا الزي؟!

بِمَ يذكرنا هذا الصوت؟

بمؤخرة تلك الممرضة التي كانت تعمل في المستشفى حينما أجرينا لأختي عملية الزائدة. لقد لاحظتُ نظراتك النهمة

لها كلما استدارت أو غادرت الغرفة. وأمي أيضًا مستحيل أن يكون فاتها هذا العرض. لست في حاجة للتأكد من أنك أقمت علاقة معها بعد العملية، وأنك ضاجعتها في مؤخرتها الممتلئة بمخزن السرنجات. ليتني شاركتك! صفعتُ بطن الحوض بقوة وبدأت أنا نفسي أرتعش. ما رأيك في صوت كفلها؟ هل أستطيع تقليده؟ آآه، هذا آخر ما كنت أريده؛ أن أستمني مع هذا الحيوان على نفس المرأة. واصلت الضرب بشكل محموم، ثم أدرت الحنفية لنهايتها حتى امتلأ الحوض لحافته. أقفلتها ورحت بباطن يدي الملتهب أضرب سطح المياه، حريصًا ألا يقتحمها جزء ولو صغير من كفي، فصعد الصوت الذي تخيلته. كان لثدي ممتلئ مثل قِربة، يُصفَع بخفة وقوة في آن.

صرخ وكأنه يبعث لي بإشارة ألا أوقف لعبتنا اللذيذة.

جميع الأبواب هنا لها ترابيس لكن المجرى عادةً منزوعة منه ماسورة الأمان. تحرك الباب للداخل حينما دفعته بيدي. أول ما وقعتْ عيناي عليه كان حنفية صرف البراز. وعلى الحوائط كانت منثورة في كل بقعة تلك الاستيكرات البيضاء التي يُسجل عليها المقاس واسم الشركة المُصنّعة للكيلوتات الجديدة التي سلّموها لنا. وفي أسفل الجدار، عند ذلك الجزء المبتل الذي استحال لونه لعفن الخبز، رأيته وقد تكوَّم بجسده الضخم، شفتاه تضرجتا باللون الوردي، بينما الشفة السفلية تدلَّت للخارج يتقاطر منها اللعاب. بنطاله مسحوب لركبيته، ويده المشعرة تغطي عانته. انتفض بدنه واندفع فيضه حتى وصل لصدره ولطخ سترته. سكن ديناصوره وتهدل جلده واستلقى

على جانبه، داعكًا رأسه الناعسة في كل هذا العشب الخشن. وفي النهاية طلب مني أن نجمع لبنه الذي غرّق الأرضية، حتى يمنحه للقومندان، ويحصل مقابله على ساعات نوم إضافية.

٣

لمحته مُختبئًا في ركن من أركان الهنجر مُمسكًا بكتاب من تلك الروايات الضحلة التي تحقق مبيعات هائلة في بلدنا هذه الأيام. وبالطبع كانت القراءة من الأشياء المحظورة هنا في البطريركية، إذ اعتبروها عادة أنثوية خالصة. اندهشت ولم أصدق. أبي يقرأ! متى؟ وأين؟ لم تذكر أمي شيئًا عن هذا في شبابه. ولو فعل، لاستنتجتُ ذلك في حياتنا الأولى قبل ترحيلنا سويةً. على أيٍّ حال، الملل هنا شديد وكفيل بإكسابك طباعًا جديدة، قد تكون جيدة أيضًا. لكن الأهم من اكتشافي كان شغفي لرؤية أي كلمات مرصوصة بجانب بعضها، حتى الجرائد لم تكن متوفرة لأنها تعطي دلالات خطرة عن حاملها، والأهم أنها توحي بتواجدك في منتجع وليس في معسكر، كما أنه مَنْ الذي سيفضّل قراءة شيء على الراحة، خاصة بعد التمارين الشاقة. ومنْ الذي يقرأ أصلًا؟!

مـع ذلـك، كانـت هنـاك بعـض اللافتـات مـن الـورق الكرتـون مُعلقـة عنـد الكانتـين وفي شـوارع البطريركيـة، مُزوقـة برسـومات ملونـة لجـنرالات بأوجـه عابسـة وأصابـع تشـير في كل ناحيـة، يتلـونَ عبـارات وعظيـة مـن قبيـل:

الحرب ما هي إلا تمرين على التلويح بالأعضاء الذكرية!

چورچ كارلين

أنْصِتْ لزوجتك ولا تصدقها!

مثل صيني

لا تجد في كل عشر نسوة غير روح واحدة!

مثل روسي

العصا للمرأة الصالحة والمرأة الطالحة!

مثل إيطالي

احذر المرأة الفاسدة ولا تركن إلى المرأة الفاضلة!

مثل إسباني

تُعَد المرأة زانية إذا خلت بالرجل مدة تكفي لإنضاج بيضة!

مشترع الهند الرزين «مَنُو»

الكلام للنساء، الأسلحة للرجال.

شعب الآزتيك

إن المرأة ضرورية للرجل، ضرورة العبد للسيد.

أرسطو

وفي صباح كل يوم كانت تُعلن في مكبرات الصوت نشرة الأخبار المعنية برجالات البطريركية في كافة أنحاء العالم:

كيم جونغ أون:

«لدي زر لإطلاق القنابل النووية على مكتبي!».

ترامب:

«أنا أيضًا عندي زر أكبر وأقوى كثيرًا!».

زد على ذلك عناتيل هوليوود الذين انزلقت ملفات فضائحهم فجأة من خزانة التسعينات، بل قبل ذلك بكثير، منذ آخر تانجو بباريس. وأنباء عن هتك بكارة الثوريات المهتاجات حينما يخرجن بـ «سنتيانات» زرقاء أمام صفوف الأمن المركزي. وأخيرًا القاهرة نالت لقب أخطر مدينة على النساء في العالم. والعالم انتحب على وفاة آخر ذكر من حيوان وحيد القرن الأبيض الشمالي عن عمر يناهز ٤٥ عاما. وتحذيرات من التيارات النسوية التي تدعو لتأسيس ما يُعرف ببنوك الأجنّة لحفظ البويضات والحيوانات المنوية، كإجراء وقائي إذا ندم الرب وأباد الرجال يومًا عن بكرة أبيهم.

أيضًا اتضح لي من النشرة أن للبطريركية أعداء دوليين، منهم ميركل، والزعيمة البورمية أونغ سان سو تشي، وهيلاري كلينتون، وأنجلينا جولي، والأم تيريزا قبل أن تتوفى عام ٩٧، وتاتشر، وسالي رايد؛ أول رائدة فضاء أمريكية، وحتى شخصيات «دي سي» كوميكس الخيالية لم تفلت من الحصر، وعلى رأسها: «واندر وومان» و«كات وومان». وكان الاحتقان هنا شديدًا تجاه ميركل بالذات، خاصة بعد أن رفعها

العالم لمنزلة «الثيوطوكوس» بسبب ما فعلته بشأن اللاجئين السوريين. أما امرأتا الكوميكس فقد أصدرت البطريركية رأيها بشأنهما: ترتديان بناطيل جلدية ضيقة وسترات عارية، كما تقومان بأعمال الرجال. ولم تخل قوائم الأعداء أيضًا من المؤسسات؛ فضمّت «نساء الأمم المتحدة»، ومستشفى «هيل أفريكا» لعلاج ضحايا الاغتصاب والاعتداءات الجنسية، وجميع الشركات التي غلّفت المتعة الزوجية بعنجهية عدائية تلغي اشتراطية المساهمة الذكورية، فصنعت أدوات ارتعاش كهربائية، ولعبًا مطاطية وسليكونية، وقضبانًا مرنة چيلية وأخرى ماهوجنية، وأحيانًا تتفوق تفاصيلها على الحقيقية؛ كأن تكون مثلًا برأسين أو قنفذية.

كما شملت قائمة الأعداء دولًا بعينها أعطت النساء أكثر من دورها: كالأرجنتين والبرازيل وتشيلي وكوستاريكا وغويانا وجامايكا ونيكارغوا وبنما وترينيداد وتوباغو والإكوادور وبوليفيا وكرواتيا... إلا أني اعتبرت هذه المسائل خارج دائرة مخاوفي، ووصل معي الأمر من بؤسي وافتقادي لتمرير عينيّ على أي كلمات مرصوصة بجانب بعضها لحد أصبحت معه أترصّد حكايات الرفاق الذين قضوا فترتهم هنا قبلي، إذ سجّلوها على رخام الموائد وجدران الحمّامات. وكانت في معظمها عبارة عن قصص غرامية فاشلة تتبعها جُمل عتاب أو سِباب أو رسومات إباحية بسيطة بخط اليد. وحتى الإنجيل الصغير الذي كان معي تحسسه القومندان في جيبي ذات مرة ومنعني من اصطحابه مجددًا معي في التمارين، حتى لا يسقط من جيبي، إذ ظنه مصحفًا.

حينما رآني أبي، أخفى الكتاب بشكل تلقائي خوفًا من أن أشي به. لكن كما يقولون: لا يعيب السفيه إلا ما فيه! لم أكن لأشي به يومًا. أما هو، فبدم بارد سيقتلع تلك النبتة الشيطانية التي سقاها بمنيّه يومًا! وكمحاولة مني، لا أعرف إن كانت لتمسيد الوحش أم اقتناصه، أخبرته بمنتهى اللطف أني أحب القراءة مثله. لكن ليس هناك داع لاستخدام ذلك التعبير: «مثله» لأني عرفته هنا في سن متأخرة كنت شكّلت فيها شخصيتي بنفسي، كما أنه آخر شخص في الحياة يمكن أن أستلهم منه شيئًا ذا قيمة! أخبرته أيضًا أني منذ وصلت إلى هنا وأنا أبحث عن أي شيء أقرأه، وتعهدت له في النهاية ألا أفضح سره أبدًا، إذ صار سرّنا! وارتاح هو إلى هذا الكلام كثيرًا وصدّقه ببراءة مُنفِّرة، فتأكدت من أن مشكلة ماما الحقيقية كانت كما شرّحتها جدتي لنا؛ لم تدرك ابنتها أن أي رجل هو عبارة عن طفل بقضيب!

سألته إن كان كتابه أصلًا؟ فذكر سلسلة من أسماء الزملاء مر بهم حتى وصل أخيرًا بين يديه. وكانت السلسة طويلة لدرجة لم أعرف معها مَنْ صاحبه الأصلي، ولم أقتنع أيضًا بأنه يمكن مراضاة شخص بعينه للحصول عليه، إذ يبدو أن البطريركية بأكملها قرأته سرًّا. فساورني شعور بأنه يتحجج كي لا يمنحني إياه. انتهز الفرصة وسألني عن الفترة التي تلزمني كي أنهي كتابًا بهذا الحجم؟ كانوا حريصين هنا على وضع برامج مزدحمة ومرهقة حتى يلهونا عن أي شغب. فقلت: «ثلاثة أيام».

«أنت بطيء جدًّا، يمكنني إنجازه في مدة أقل منك بكثير!».

كانت ليلة سمعه فيها كل الجيران وهو يزعق لماما: «لن

ندخله شعبة الأدبي، سيقول أعمامه وعماته أنه غبي!».

روَتْ ماما لزميلتها: «كلما رأى الولد يذاكر على الأرض أطاح بقدمه الأوراق واتهمه بأنه يسد الطريق، إنه يغار منه!».

برقت عينا جدتي وهي تشرح: «يريد أن يصبح أبناؤه فشلة مثله!».

يزعق فيّ: «لا تظن نفسك شيئًا، دراستك ومصروفك وفُسحك كلها من عرقي وشقائي، حينما تعمل من سن صغيرة مثلي تعال لنتحدث رجلًا لرجل. حينما أعجبت بي أُمك كنت يافعًا فوق سلّم أرصّ بضاعة المحل».

«أي شيء فتنها فيه في تلك الساعة المنحوسة!».

تندب جدتي حظ ابنتها.

أمام الضيوف يصرّح: «أولاد عمته يجيدون التعامل في الشارع أفضل منه!».

يهاتف الكاهن الذي توسّط بينهما: «وبماذا سينفعني إذا صار طبيبًا أو مهندسًا حتى، هل سيصرف عليّ مثلًا؟!».

تخطف ماما منه السماعة وتصرخ في الكاهن: «ولماذا يريد أن يصرف عليه ابنه أصلًا؟!».

تخبرهم ماما في البيت على المَلأ: «لن يصير طبيبًا أو مهندسًا، يريد أن يسافر لـ «بولونيا» كي يدرس السينما».

«فنان يعني بنت! لن يصير رجلًا ذا قيمة حقيقية حتى يدخل البطريركية!».

بعد أن عدنا من حفل الكنيسة وجلسنا إلى مائدة العشاء،

يعترف بتلقائية أمامنا وهو يمضغ الطعام بصوت عال كعادته: «فيلمه أضعف فقرة في الحفلة، أعجبتني كثيرًا تلك المسرحية لزملائه... لا أذكر اسمها!».

***

أمرنا القومندان أنا وخمسة آخرين أن نقوم بتنظيف عنبرنا؛ أي نكنسه ونقوم بتسييقه. نشدّ الملاءات على الأسرّة ونرشّ عليها الديتول بالبخاخات. كذلك الحمّامات؛ نزيل بخراطيم الماء قطع الغائط الصغيرة التي تركها صغارنا على البلاط، وإن كان هناك حمّام مسدود نقوم بتسليكه. ثم نغسل الأحواض فتذهب مع المياه الشعيرات اللاصقة بباطنها وبقايا معجون الأسنان وكريمات الحلاقة. بشكل عام، كان العنبر دومًا له رائحة كواليس المسارح القديمة، بالرغم من أن شبابيكه المُطلّة على البحر لا تُغلق. والحمّامات لم تكن تزول منها رائحة الخراء، مهما تدفقت المياه!

انتهينا بعد مدة فتركتهم وذهبت للشرفة. كانت عبارة عن طرقة طويلة تطل على الحديقة، التي لم تكن تنال رعاية أقل من المهام اليومية هنا؛ فكنّا نعتني بسقايتها كل يوم ونحصد الأوراق الصفراء الجافة لنُلقيها في الزبالة ونكحت الحشائش الخضراء صانعين فوقها أشكالًا من كتالوج البطريركية: قضبان مدببة تنفث لهيبًا وخصيات ملونة مثل بيض شم النسيم، نرسم لها أنوفًا وأعيُنَ وأفواهًا مبتسمةً.

أثناء تأملي استقر زميل بجانبي، لم أهتم حتى بالالتفات كي أعرف مَنْ. واصلت حملقتي في البحر. كنت أشعر بأنفة كبيرة تجاه كل الذين معي هنا لأن معظمهم ريفيون. بادرني

هو بالسؤال عن اسمي ولم أملك إلا أن أجيب ثم عدت لشرودي. تأسف بلباقة شديدة إن كان أخرجني من خيالي. جذبتني لفظة «خيال» إذ لم تكن قابلة للتداول هنا، فأحلام اليقظة لا تليق بنا! فلتت مني ابتسامة وقلت له مرتبكا: «لا يهمك!». واصل متشجعًا بردة فعلي: «أنت مراوغ ناجح، لكن سبحانه! نوره على وجهك... فضحك!».

لم أتمالك نفسي فالتفتُّ له وعيناي كلها ازدراء.

«ماذا؟!».

«أتعجب من أنه لم يلتفت إليك أحد هنا!».

ابتلعت ريقي. هل رآني مع أبي ونحن نتحدث عن الكتاب.

ولماذا تريدهم أن يلتفتوا كفى الله الشر؟ أنا أبذل قصارى جهدي منذ أتيت إلى هنا كي أنصهر بينهم، وأنت تسألني لم لا؟! ففي أيامي الأولى وقفت مرتعدًا أراقب الحوْش من أعلى طابق في الهنجر وهو يموج بكل هذا الحشد من الأولاد حليقي الرؤوس بسحناتهم ولهجاتهم المختلفة. وخطر لي لحظتها شيء مضحك؛ أني قادر على التفاهم مع أجانب من جنسيات مختلفة (بناء على تجاربي في حياتي الجامعية)، لكني مع ذلك سأعجز تمامًا عن التواصل مع واحد فقط من هؤلاء. ربما يسيئون فهمي أو يظنونني أتعالى عليهم أو أطأ مقدساتهم دون دراية مني. ثم إن هؤلاء بالذات، لقِلة ثقافتهم وحيلتهم، سيكون لهم مقدسات لا تُعد ولا تُفهم. لكني سرعان ما وجدت الحل: أنت واحد وسط ألفين، سهل جدًّا أن تقضي فترتك دون أن يشعر أحد أصلًا أنك مررت

بهـذا المـكان. لقـد علمتـني البطريركيـة كيـف أروّض «الأنـا» الـتي بَنَتْهـا مامـا طوبـة طوبـة داخـلي. وأعتقـد أن هـذا شيء يتعلمـه الفـرد بشـكل إجبـاري، حينمـا يسـتيقظ يومًـا ليجـد نفسـه وسـط مئـات مـن نفـس جنسـه وجيلـه، كل ذكـر فيهـم يدغدغـه نفـس الهاجـس المضحـك: أنـه محـور الكـون!

«لماذا تراوغني؟ لقد سمعتك أمام الكانتين!».

أعترف لك بأنك صرت تقلقني أكثر من القمادين:

«ما الذي سمعته بالضبط؟».

«حينمـا كنـت تقـف مـع الزمـلاء هنـاك وتلـوت عليهـم مـن سـورة المائـدة...».

تنحنح وابتلع ريقه:

«بسم الله الرحمن الرحيم...».

تنحنح مرة أخرى ثم خرج صوته مترنمًا وإن كان نشازًا:

«وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ...».

«ماذا تريد يا أخ؟».

«صدقـني، هـذا الأمـر منتـشر جـدًّا؛ مسـيحيون كـثر يعيشـون وسـط أهلهـم، يذهبـون للكنيسـة ويتظاهـرون بالعبـادة. ومـا إن ينفـردون بأنفسـهم في مخدعهـم إلا وتجدهـم يتنفسـون الصعـداء ويركعونهـا».

فهمـتُ. كنـت قـد قلـت هـذه الآيـة فعـلًا وفي المـكان الـذي ذكـره، لكـن استخدامي لهـا كان لإفسـاح مـكان لي وسـطهم بعدمـا لاحظـت مـا يتركـه اسـمي مـن امتعـاض عـلى وجوههـم. ورغـم

غرابة الموقف خشيت الضحك حتى لا أغضبه. لكن وقوعه هنا في البطريركية كان مألوفًا جدًّا ومتوقّعًا؛ فالدين والكرة والجنس كانت الأمور الأكثر تداولًا في أحاديثهم.

واصل: «طيب أقول لك، أتعرف كبيركم، آسف لأني أحدثك كأنك ما زالت واحدًا منهم، أقصد كبيرهم ذلك، لا أذكر اسمه لكنه توفي منذ بضع سنوات».

خمنت الداهية القادمة:

«أعرف من تقصد! ماله؟».

«رحمة الله عليه... أسلم في الخفاء!».

قضيت سنوات عملي بالصحافة أنقب في سيرة إمبراطور الأرثوذكسية هذا، لتأتي أنت يا فلاح وتقول بمنتهى العباطة أنه أسلم. لكن لا بأس لو سينضم للائحة: نيل أرمسترونج ويوسف شاهين ومايكل چاكسون.

«بجد، لم أكن أعرف حقيقة!».

«ألم أقل لك أن كثيرين يركعونها في الخفاء... أخبرني الآن وقد انكشفت نواياك، ما هو اسمك الحقيقي؟».

«هتلر... محمد هتلر!».

«اسم يليق بغازي مثلك سيهدي الضالين».

صمت قليلًا ثم أردف بنبرته الفرحة:

«كنت أجدك دومًا تتمشى بمفردك وهذا ما أخّرني في الحديث معك، لكني كنت أراك من الحين للآخر مُمسكًا بمصحف صغير فاطمأن قلبي وتأكدت شكوكي».

«الحمد لله، تقصد هذا؟».

راح يقلّب الإنجيل بيده:

«معقول؟ إذًا صدق حدسي، أنت فعلًا هتلر الغازي وتقرأ كتبهم كي ترد عليهم».

تنهدتُ... فقال:

«أنا أيضًا قرأت الإنجيل... ليس كله حقيقة، لدينا واحد بالمنزل لأن أخي يعمل بالترجمة».

كان أقصر مني وله جسد مكتنز قليلًا، بشرته لها حُمرة الريفيين وشاربه خفيف. رأيته أكثر من مرة بينما الأولاد ينادونه بـ «چيت لي»، والحق أن ملامحه كانت فعلًا تشبه تقاطيع الآسيويين.

«لكن هذا الإنجيل الذي معك أصغر بكثير مِن الذي مع أخي، أم هو إنجيل برنابا؟».

«قرأته؟».

«لا، فقط أعرف أنه الإنجيل الذي تنبأ برسالة سيدنا محمد ﷺ».

«على العموم هذا الإنجيل الذي معي ليس كاملًا، إنه العهد الجديد فقط... هل ستبلغ عني؟».

«أبلغ عنك! لماذا؟».

«لأنك وجدت معي كتابًا!».

«الكتب الدينية تسمح بها البطريركية، ألم تسمعهم حينما

ذكروا هذا في التنبيهات أول يوم يا مُستجد. ثم إن القومندان قال مرة في حلقة سَمَر؛ إن الأديان تنتصر لنا نحن الرجال. وأنت بالذات تقرأ كي تُعد القنابل الموقوتة، فكيف أبلغ عن شيخنا الجليل؟!».

«جيد!».

«قل لي، أصحيح أن لديهم أربعة أناجيل؟!».

«نعم، متَّى ومرقص ولوقا ويوحنا، كل منهم على اسم مؤلفه».

«أيهم تمسك به الآن؟».

«الأربعة».

«وما الفارق بينهم؟».

«لا شيء، جميعهم يروون ذات القصة لكن كل واحد بمنظور مختلف... نفس الأحداث والأفكار ولكن طريقة السرد مختلفة، كأنك تشاهد مثلًا أربعة أفلام عن الحرب العالمية الثانية فتجد لكل مُخرج تفاصيله التي ينتقيها».

«ولكن ألم يكن من الأفضل لو أنهم أبقوا على إنجيل واحد... مثلنا!».

«وما الفارق؟».

«الكتاب الواحد يؤكد الوحي!».

جعلني أشك للحظات أنه يلمّح للمحرقة العثمانية لكني استبعدت هذا:

«الوحي! مدهش يا چيت لي. من الغريب تواؤم واستيعاب الناس للأديان بمثل هذا القبول، كأنها شيء أُقتطع منهم، ولم ينزل عليهم!».

***

بعد أن اجتزت أبواب البطريركية في أول يوم كان عليّ الوقوف في صف حلزوني طويل يلتف حول البنايات حتى ينتهي أمام قاعة كبيرة شبه مُعتمة تفوح منها رائحة الدفاتر والتراب. في الداخل تخلع عنك كامل ملابسك وتقف هكذا دون ستارة تحجبك عن بقية الرجال زملائك من خلفك المُطلعين على كل شيء لديك. وقبالتك تجلس لجنة في بذلات بيروقراطية خلف مائدة مستطيلة تشبه لوحة العشاء الأخير، يتوسطهم رئيسهم، وعلى الحائط خلفهم عُلقت صورة كبيرة للبطريرك الأعظم، يبدو فيها مثل رامبو وقد قوّس ذراعيه في حركة تشبه أبطال المصارعة في الملصقات، وبدلًا من كفّه تنتهي ذراعه بقضيب له طرف مدبب مثل قلم رصاص، وأسفل الصورة تمامًا عند كِرشه، كُتب بخط ثقيل:

لا شيء فوق البطريركية!

توجّه لك اللجنة بعض الأسئلة مثل: كم مرة تستمني يوميًّا؟ وكم كان عمرك حينما فعلتها لأول مرة؟ من نجمتك المفضلة في أفلام البورنو؟ هل كانت لك عَمّة أو خالة تهتاج عليها؟ إذا خُيّرت بين ممثلات العرب كي تنام مع واحدة منهن، من تختار؟ هل قبّلت رجلًا من قبل؟ هل تحرش بك أحدهم وأنت صغير؟ كم خصية تملك؟ ولم يكن هناك داعٍ للكذب، لأن أحد أفراد اللجنة كان يرتدي قفازًا ويدعك صفن كل فرد

بعد انتهاء استجوابه. وفوجئت بأن بعض الأولاد يملكون خصية واحدة فعلًا، وأُبلغوا بأنه سيتم النظر في أمر تسريحهم نهائيًا من صفوف البطريركية. والحقيقة أنهم سعدوا جدًّا بهذا التهديد.

ما موقفك من أصدقاء لك لديهم انحراف سلوكي أو مصابين بالشذوذ الجنسي؟ ما رأيك في أمريكا وبقية دول الغرب التي صارت تقنن زواج الشواذ؟ هل تؤمن بالقرآن والإنجيل إذ حرّم كل منهما اللواط؟ إذا نزل بالسينيمات فيلم، لبطلتين، طوال ظهورهما تدعك إحداهما فرجها في جسم الأخرى؟ أو فيلم يدور حول شاب وفتاة مغرمين بصديق ثالث لهما. هل ستعتبر هذه حرية فن وتروج لمثل هذه الأفلام، أم تدعو لمقاطعتها؟ هل يثيرك بورنو السحاقيات؟ خذ بالك، هناك فارق بين أن تهيج على منظرهم وأن تتبنى قضيتهم! هل راودك مجرد فضول وأنت تتصفح مواقع البورنو كي تنقر على مقاطع الفيديو التي يمتطي فيها رجال رجالًا؟ هل تستمع لفرقة مشروع ليلى اللبنانية ومغنيها «الشذّ» المدعو «سنّو»؟ تنتهي الأسئلة فينطفئ نور القاعة الخافت أصلًا ويُعرض على ملاءة بيضاء مهترئة خلف اللجنة فيلم تظهر فيه الممثلة البورنوجرافية أو السينمائية التي قمت أنت باختيارها، وفي غضون دقيقتين إذا لم تنتصب وتقذفهم يُرفض ملفك تمامًا ويلطخونه بشخبطة حمراء تقضي على مستقبلك، إذ تفيد باحتمالية إصابتك بالعنّة.

بعدها فتشوا حقائبنا ليتأكدوا من عدم وجود أي محتويات شاذة مثل كريم تلطيف البشرة، ذلك الذي عثروا عليه في

حقيبة أحدهم فاتهموه بأنه شاذ واعتقلوه في لحظتها. وآخر وجدوا في جيب سري بحقيبته صورة لأمه فأمروه أن يطأها بقدميه في الحال... أفرغت شنطتي على الأرض وتصادف أن يأتي إنجيلي الصغير على قمة المتعلقات. من مكانه دون أن ينحني بينما كنتُ جالسًا مرتكزًا على قدميّ أمام الشنطة، رمقه القومندان وهو صامت. كان الهواء يطوّح بصفحاته ويفتحها على إصحاحات متباعدة في وقت خاطف. أما أنا فتجاهلت الموقف برمته ورحت أرقب مجموعة من الحُرّاس تجمعوا هناك على شاب وأمروه أن يرقد على بطنه، ثم أن يتبعهم زحفًا إلى حيث سيصحبونه. وانتقلتْ وشوشة بين الصفوف مفادها أنهم ضبطوه يرتدي شرابًا مرسوم عليه بَطّ. والحُرّاس هنا هم مجموعة من الرجال مفتولي العضلات، مسؤولون عن ضبطنا وحمايتنا، مسلحون دومًا بهراوات وأحيانًا بأسلحة نارية، يرأسهم رجل فظ يُلقب بـــ قومندان الأمن. وكي أُلهي نفسي عن هذا الجو المشحون حولي وجدت نفسي أتذكر فيديو هزلي شاهدته ذات مرة على الإنترنت لأكاديمية شرطة في أمريكا تدرب رجالها عبر توقيفهم في الفناء صامتين، ولاختبار مدى جديتهم يمر المدرب عليهم بدمية على شكل بطة تصدر أصواتًا مُضحكة، يظل يعبث بها في آذانهم ومن يضحك ينزل من تلقاء نفسه على يديه ليمارس تمرين الضغط.

لم يُبدِ أحدٌ، وأنا منهم، أي رد فعل إزاء منظر اعتقال الزميل صاحب الشراب الملون برسومات البط. واكتفينا بتسجيل تفاصيل المشهد في أذهاننا، حتى لا نجتازه في يوم

حقائبنا ونمضي، هكذا دون تفتيش. فندمت أني لم أخبئ هاتفًا. وعرفت بعدها لمّا رتّبنا أغراضنا في العنبر أن إنجيلي خلّص هاتفين وصابونة معطرة (كان الصابون الخاص بالبطريركية أبيض وليس له رائحة) كما مرّر هاتفي أيضًا بعض أرغفة الحواوشي. إذ كان الطعام ممنوع هو الآخر هنا حتى لا يفسد ويُتهموا بأنهم سمّمونا، مثلما يحدث في مؤسسات أخرى.

أنا لست ساذجًا للحد الذي يدفعني لإحضار إنجيل معي في هذا المكان كي أجتاز بواسطته هذه الفترة الصعبة، معتقدًا أنه سيهدّئ من وطأة التجربة. كل ما في الأمر أني لم أتحمل فكرة حظر الكتب هنا، وتخيلت أنهم حتى لو عثروا على إنجيلي، أسوأ ما يمكن أن يفعلوه بي هو توبيخي، لكنهم لن يتهموني أبدًا بشيء، ولن يمزقوه أو يشتموني. أيضًا رأيت في إحضاره فرصة لتزجية الوقت؛ فهو صغير جدًا في حجم الجيب يحتوي فقط على العهد الجديد والمزامير ونشيد الأنشاد، وصغر حجمه هذا سيساعدني على قراءته في أي وقت وليس فقط قبل النوم. لكن ما حدث فعلًا أنهم منعوني من قراءته أثناء التمارين. على أيّ حال، لقد فصلوني من التمارين بسبب نظارتي وجسدي الضئيل. وكنت ممتنًّا كثيرًا لبُعد بصيرتهم، بيد أنهم قرروا بعدها تكليفي بمكتب المراسلات. وحتى هناك لم أستطع قراءته؛ لم يظنوه إنجيلًا أو مصحفًا، لكنهم نهروني قائلين: «انت جاي تتثقف عندنا؟!». ولم أجد بديلًا له، لأن خطاباتهم كلها كانت تحتوي على نفس التراكيب الرسمية الثقيلة، والجداول والإحصائيات التي لم أفهم منها شيئًا.

مـن الأيـام... «أنـت مسـيحي؟» هتـف القومنـدان مـن فـوقي. ودون أن ينتظـر إجابـة انحـنى والتقطـه. أعتقـد أن هيئـة فقـرات الإنجيـل المصفوفـة في أعمـدة، والـتي تبـدو للناظـر مـن بعيـد مختلفـة عـن تنسـيق القـرآن، هـي الـتي حركـت انتباهـه. زد عـلى ذلـك عـدم وجـود أُطـر مزخرفـة عـلى جوانـب الصفحـات. كل ذلـك لفـت نظـره إلى أنـه شيء آخـر غـير أن يكـون مصحفًـا. فتحـه لا عـلى صفحـة بعينهـا وقـرأ مـا قابلـه: «بولـس الرسـول! أنـت مسـيحي؟». فبـدا لي أنـه ليـس مهتـم بديانـتي بقـدر مـا هـو قلِـق أن يكـون وسـطهم متنصر أو مسـلم مهـتزة عقيدتـه. أجبتـه عـلى اسـتحياء: «نعـم!». ثـم رأى اسـم أخـتي عـلى صفحتـه البيضـاء الأولى فسـألني عـن المالـك الحقيقـي للإنجيـل، وكأن هـذا يهـم فعـلًا، فأفهمتـه أنـه يخـص عائلـتي.

«وهل تحفظونه؟».

«لا».

«كيف، أليس هو الكتاب الذي نزل على سيدنا عيسى؟».

«نعم هو!».

«فكيف تقول أنكم لا تحفظونه؟!».

تدبرت إجابتي قبل أن أطلقها:

«قصدت أننا لا نختمه مثل القرآن!».

تأخـر قليـلًا في رد فعلـه فتأكـدت أن إجابـتي أدّت مهمتهـا. هـز رأسـه ثـم ألقـى نظـرة عـلى بقيـة الزمـلاء المنتظريـن خلفـي وعـلى متعلقاتهـم المرميـة عنـد أقدامهـم، ثـم أمرنـا جميعًـا أن نحمـل

في حياتي لم تراودني مثل هذه الرغبة في إنهاء الإنجيل؛ إذ أدركت أني في حالة من الضغط لن تتكرر خارجًا تجعلني راغبًا في التنفيس، عبر الإتيان على كل هذه الكلمات المطبوعة، كأني آكلها أكلًا. أريد أن أقرأ آياته بالتفصيل، بدلًا من الطريقة العشوائية التي اعتمد عليها أهلي في اقتناص الآيات المناسبة لمواقفهم اليومية، دون فهم السياق العام. وفي النهاية، ليس من الجيد لأي إنسان أن يموت دون أن يقرأ نشيد الأنشاد.

«ڤياجرا الكتاب المقدس!».

علّق چيت لي.

«معذرة!».

«هكذا يسمّون سفر نشيد الأنشاد، قرأتها مرة على أحد مواقع الدعوة الإسلامية».

«منطقي جدًّا».

«ما المنطقي؟».

«يستخدم أصحاب الدعوة هذا السِفر في جدالاتهم كدليل دامغ على انحراف النصوص الإنجيلية».

«وأنت ما رأيك؟».

«أرى أن المسيحيين يسيئون فهمه. هم يحاولون بكل الأشكال ترقيعه».

«لكن لماذا يسيئون فهمه؟ أو بالأولى كيف يكون كلام الله سبحانه وتعالى عصي عن فهمنا؟!».

«هم ينظرون له على أنه خطاب بين الله والنفس البشرية،

خالقين بذلك حجة مقنعة، يعتقدون أنها رادعة لأي اتهام يُلقى عليهم من المعسكر المضاد».

«حديث بين الله والنفس البشرية... كأن يحدثها عن ثدييها وفخذيها؟!».

«سأخبرك بأمر يا چيت لي؛ أنا لا أتعامل معه كنص ديني. بل على العكس، فحينما أقرأه أنفصل تمامًا عن ذلك الإله الذي أباد شعبه بالطوفان».

«تقصد أنك تقرأه كأنه حدوتة مثلًا؟».

«كأنه شيء شخصي يخص كاتبه... ومن كُتب له هذا الكلام، فقط».

«على أيّ حال ستكون قصة جنسية مثيرة!».

«ومَنْ كتبه في رأيي لم يقصد تمامًا ما يشغلنا الآن. لم يتخيل ولن، اثنين مثلنا يتحدثان عن أيقونته بهذه الأنفة. ولم يهتم بعدد المرات التي ستُكتب فيها حروف (ن ش ي د) على جوجل... أو هو الأمر كما يقولون؛ الأثر الفني إذا ما خرج عن زمانه وبيئته أضاع معناه!».

ابتسم چيت لي ولم يرد.

عدت أشرح:

«الأديان بشكل عام هي لسان حال البشر وبالتالي ليس من المنطقي أن ترتفع عن أهوائهم. ولأكون صريحًا معك أنا معجب جدًّا بالإسلام في هذه النقطة بالذات؛ إنه لم ينشغل بتلك الطوباوية المزيفة التي أرادت المسيحية أن تحقن

البشرية بها، بل رصد كل ما يزحم داخل الإنسان وأدرج له موضعًا خاصًّا في قاموس مصطلحات الأديان. لذلك لم يتورع كثيرون عن دخول الإسلام بلا غصب، لأنهم رأوا أنفسهم فيه كبشر، بدون أي تزويق أو محاولات لتقديس النفس!».

«ممكن توضح كلامك أكثر يا أخ هتلر؟!».

«طبعًا! تحدث البخاري مثلًا عن الحياة الزوجية للرسول ﷺ وكيف أنه أُعطي قوة ثلاثين رجلًا. وأنه كان يقبّل ويباشر وهو صائم. وأنه مرة بعد أن تجهز للصلاة مع مجموعة من الصحابة تذكر أنه جُنُب فذهب واغتسل. كما ذكر حديث من الأحاديث تلك الواقعة التي أعرضت عنه فيها أعرابية أرادها فقالت له: هل تهب الملكة نفسها للسوقة؟ وتعلم طبعًا أن الرسول تزوج سيدتنا عائشة وعمرها ست سنوات. ولم يخجل أن يقولها صراحةً هكذا: ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة غيرها! هي التي كانت تغار عليه من بقية زوجاته، فقالت له مرة في لحظة ضعف أنثوية: ما أرى ربك إلا يُسارع في هواك! وأنت تعرف قصة زينب بنت جحش وكيف أوجدت لنفسها شغفًا في قلب الرسول، وأن زيد بن حارثة زوجها لم يتوان عن تطليقها. يمكنك أيضًا الرجوع إلى ما ذُكر عن ملامسة النساء والذكر والغلمان وعلاقة هذه الأشياء بنقض الوضوء، وما قاله في ذلك كل من الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية. وأيضًا، الفرق بين المسيس والمماسة والتماس. ناهيك عن مؤلفات الإمام السيوطي، ومن بينها كتابه الأشهر: «نواضر الأيك في معرفة النيك».

«لولا أنك تتحدث بكلام ربنا، لأبلغت عنك القومندان يا

هتلر! أنت مثقف لحد يُخيفهم. بسم الله ما شاء الله. أنا نفسي لم أفكر في الأمور التي أعرفها، بهذه الطريقة التي تحدثت بها الآن!».

صمتَ قليلًا، ثم واصل كأنه يحدِّث نفسه:

كل هذه الأقوال الحميدة لم تنزل ولم تُكتب، إلا لهداية الأمة الإسلامية ورِفعتها».

«للأسف يا چيت لي، النصارى صاروا يستخدمون العبارة ذاتها في دفاعهم عن نشيد الأنشاد!».

٤

كانت كعوب الجِزَم التي وزعوها علينا صلبة.

ظلّ صوت كعب الجزمة يطرق البلاط خلفنا حتى اتخذ صاحبها مكانا بيننا. كان أبي. لم أشأ أن أوليه اهتماما متعمدا أن أرسم أنا طريقة اختلاطه بي. خواؤه جعله ملولا من الانفراد بذاته، يتوعد الناس بمشاكستهم إذا لم يعيروه اهتماما. وأعتقد أني ورثت هذه الخصلة منه، لكن ليس بطريقته المبتذلة.

«لماذا تقفان هكذا دون عمل؟!».

استدرت له:

«لقد كنسنا العنبر وقمنا بتسييقه».

ثم هرشت أسفلي:

«الشرف للذكورة، أكان من المفترض أن نعطيك التمام بعدما انتهينا؟!».

«نَحّ يديك جانبًا، ولا تشوّح لي وأنت تحدثني».

كانوا هنا ينزعجون جدًّا حينما تشرح مُستخدمًا يديك، ويعتبرونها أحيانًا إهانة. ولم أستغرب حينما وجدت قناعاته تشبههم لأني ألفته في البيت بطريركيًّا.

قلت له:

«ومن تكون أنت كي تُملي عليّ تصرفاتي؟!».

«انظروا من يتكلم! من أين لك بهذه العجرفة، ألا ترى نفسك كيف تقف «مدلدلًا» أمام القومندان؟!».

رفع چيت لي نظره تجاهه لأن أبي كان أضخم منَّا، ثم قال بحزم لم يخل من حذر:

«يا زميل اسمح لي، هذه ليست طريقة مناسبة على الإطلاق لتحدث محمد هتلر بها».

«من محمد هتلر هذا؟!».

تركتهما يخوضا حوارًا حقوقيًّا حول إمكانية شتمي من عدمها، بينما استغرقت في كرش أبي الممتد حتى سوستة بنطاله المفتوحة.

تصرخ جدتي في جارتنا عبر الهاتف: «أتى إلى بيتنا بنحافة هذا الإصبع». تقولها رافعة سبابتها القصيرة: «سمّنته بطبيخي حتى صار أشبه بالعجل ومشيته ازدادت عرجًا، جسمه ثقل».

هناك على الحائط معلقة له صورة زفافه مع ماما. نحيف له رأس مثل الزيتونة. أسمر والصلع لا يتلاءم مع نظرته الفتية.

تحكي جدتي لقريبتنا، جالستين في الصالون: «كان يشمئز من السبيط لا لشيء سوى أنه لم يذقه في حياته واندهش يوم رآني أعمل محشي البصل... معذور، كانت أمه تطبخ مرتين فقط في الأسبوع، وأول عزومة لنا عندهم اكتفت بعمل الملوخية والفراخ، أي موضة فاتتنا هذه أن يستقبل بيت العريس أهل العروس بالملوخية؟!».

***

في كل ليلة، حينما كنت أهمُّ بالنوم، لم أكن أواجه أي صعوبة مع الأرق. كنت بالرغم مما نواجهه هنا من معاملة صارمة وفي أحيان كثيرة مُهينة، ما إن أصعد للعنبر حتى أتدثر ببطانيتي الخشنة الثقيلة وأغرق في رائحتها العَطِنة وأنام بعمق، غير مكترث لأي شيء يدور في رأسي أو خارجها. حتى ألواح السرير غير المرتبة جيدًا والتي برزت نِصالها من مرتبتي الإسفنجية الهشة فجعلت من السرير بمثابة آلة تعذيب، لم أُعِرها أي اهتمام. وكان من المؤلم جدًّا أن أستيقظ فجأة بعد منتصف الليل، بعد أن أخذت كفايتي من النوم، فتنطلق الوساوس من معاقلها وترتطم في كل زاوية من زوايا رأسي. كان مكمن الألم هو الاستيقاظ والعثور على نفسي في عنبر يعج بمئتي ذكر لا توجد بينهم امرأة واحدة تضمّني لحضنها.

بيد أن في هذه الليلة بالذات لم أستطع النوم بمجرد أن اعتليت فراشي. حتى إن الرفاق في الأسرّة المجاورة لاحظوا وعلّقوا بأنه ربما ظهرت لي فجأة حبيبة. ولم أكن أفعل شيئًا في الحقيقة سوى أني انهلت على نفسي أجلدها بصورة بشعة؛ لماذا لم أردّ عليه حينما نعتني بذلك الوصف الوضيع؟ كان بإمكاني مثلًا أن أنظر لكرشه وأقول له: «حقيقة، أرى شيئا آخر «مدلدل» هنا!». لماذا لم يحضرني هذا الرد وقتها؟! ولو حدث هل كنت أملك الشجاعة لأقوله؟

حاولت أن أُلهي نفسي بأي خاطر جنسي فألفيتني لا أطيق حتى حبيبتي. صحيح أني لم أخبرها بعد أني تركتها، لكنها لن تحتاج حتى لهذا الإشعار لأنها لن تنتظرني طويلًا. وتذكرت حادثة انبثقت فجأة لا أعرف من أين، وكأنها أتت لتساند كربي ضدي، أو لعل عقلي ألقى بي في أُتون وساوسي كي يحاسبني على كل ما اقترفته بحق كرامتي. أو ربما أشفقت على نفسي من ألا أجد ما يواسي وحدتي في هذا السكون، حتى لو كان هذا الشاغل موحشًا جدًّا! لا، ليست كل هذه الأسباب! التفسير الذي ينال وحده التقدير هو أن الأبناء يظلون طوال حياتهم أسرى طريقة معاملة آبائهم لهم. وبنفس السياط القديمة المزودة بكرات معدنية عليها دم الأمس، ينهالون على ظهورهم يجلدون أنفسهم هذه المرة.

حدث ذلك الموقف يوم رتّبت لها لقاء يجمعها بعدد من أصدقائي في كافيه. غازلت واحدًا منهم، منذ مراهقتنا خشيت دومًا أن أقع في منافسة معه. غير وسيم وأبله، لكنه ثري ودواليبه مُتخمة بماركات الملابس، يهتم بكل ما هو رائج

في موضة تسريحات الشعر، والنظارات التي تنقلب من نظر لشمس من تلقاء ذاتها، وساعات «آبل» الذكية التي تُرسل وتستقبل المكالمات التليفونية والرسائل، والفيب بكامل أطعمتها وزيوتها، وسيارات الـ «بي إم دبليو» التي يفتح سقفها كهربائيًّا خلال ١٥ ثانية حتى سرعة ٥٠ كلم/س... وبينما كنت منهمكًا في حوار مع واحد من الشلة، فوجئت بها تصور رد فعل الأبله الثري وهو يندهش من فاتورة الحساب العالية. وفي لحظتها أرسلتها له على «واتس آب». كانت في الأصل أخرجت الهاتف لتلتقط لي معها صورة تذكارية لليوم، وحينما عاتبتها بأنها انشغلت بتصويره رفعت حقيبة يدها وهمّت بالمغادرة معهم بحجة أننا تأخرنا. ولم تلقِ لي سوى بفُتَات اعتذار، كأن الأمر بسيط فعلًا! كأن صورة ذلك الشرموط أهم من غضبي!

سحبتها بعيدًا عنهم وعنّفتها. بررتْ فعلتها بأن سلوكه كان حقًّا مضحكًا. شتمتها. تافهة مثلهم. لم ترد. عدنا لشقتي معا. حتى وهي تخلع قميصها على حِجري كمحاولة لمصالحتي، حتى وأنا أحملق في حمالة صدرها، كان بإمكاني تخيلها معه هو. فتمتمتُ، متمنيًا أن تُنصتْ لهمسي: «هكذا هي المرأة، ما إن تعرف الطريق إلى السرير، حتى لا تستطيع التمييز بين حبيبها وبقية الرجال!».

أما الآن في هذا العنبر المظلم وقد جاوزنا منتصف الليل، وسط رائحة العرق وأصوات الضراط والشخير وموج البحر، وبعد مرور ما يقرب من عام على تلك الحادثة، لم يؤلمني سوى شيء واحد؛ أن الموقف مرّ فعلًا دون أن أرتكب حماقة

واحـدة تجعلـني أنـام بسـلام الآن! كان بإمـكاني أن أقـول لهـا بعدمـا خرجنـا مـن الكافيـه: «اذهـبي معـه في سـيارته ولـن تريـني بعـد اليـوم!». لكـني ديـوث ارتضيـت أن أراهـا وهـي تغـازل صديقي دون أن أتخـذ أي رد فعـل. تمامًـا مثلمـا لـم أفعـل شـيئًا مـع أبي حينمـا نعتـني بالمدلـدل. الآن أشـعر بامتنـان شـديد نحـو البطريركيـة إذ ضمتـني لصفوفهـا، وأرجـو أن تُحـدث فيّ أبشـع تغيـير ممكـن!

رفعـت البطانيـة حـتى رأسي وحاولـت أن أركـز في أي شيء آخـر. تذكـرت ذلك الفيلم الفرنسيThe Diving Bell and The Butterfly وتخيلـت نفـسي داخـل قنـاع غـوص. رجـلي مرتفعـة تحملهـا المياه بـلا جاذبيـة. جسـمي يـدور حـول نفسـه في انسـيابية وسـط كل هـذه الزُّرقـة الدَاكنـة. أسـتمع فقـط لصـوت تنفُّسي داخـل بدلـة الغـوص. أبي، ماما، عاهـرتي الحبيبـة؛ جميعهـم غـرق يصعـدون حـولي إلى السـطح بجثـث منتفخـة ووجوه شـاحبة بيضـاء، يفصلني عنهـم قناعـي الزجاجـي السـميك. يصرخـون فيّ لكـن أصواتهـم لا تصلـني. يغرونـني بالخـروج إليهـم لكـني أسـتأنس إلى عزلـتي هنـا، خلـف قنـاع الغـوص!

تذكرت حديثي مع چيت لي عن زينب بنت جحش.

استسلمت للنعاس.

***

وكان في وقـت المسـاء أن داود قـام عـن سريـره وتمـشى عـلى سـطح بيتـه، فـرأى امـرأة تسـتحم، وكانـت جميلـة جـدًّا. فأرسـل وسـأل عنهـا، فقـال واحـد أليسـت هـذه «بثشـبع» زوجـة أوريـا

الحثي. فأرسل داود رسلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى...

وفي الصباح، كتب داود مكتوبًا وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا حامله في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيُضرب ويموت...

فخرج رجال المدينة وحاربوا، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا زوجها أيضًا...

٥

في الحلم نادتني جدتي، لكن ليس باسمي. قالت لي: تعال يا كافكا! سرتُ إليها بأرجل رفيعة ولم أفزع حينما وجدتني صرصورًا. أسندتني وطمأنتني أن أبي ليس في المنزل وأنه لن يعاود ضربي بالمقشة. أدخلتني غرفة ماما فرأيتها مستلقية بظهرها على السرير مفرشخة رجليها، وعند قدميها كنت أجلس على ركبتيّ بهيئتي البشرية هذه المرة، بينما عضوي يتدلى مني، لكنه لسوء تكويني لم يكن في حجم عضوه الذي يشبه قضيب حصان. تلفّتُّ أبحث عن جدتي فرأيتها تجلس بجانبي. أمرتني بغلظة المُسنات كي أضاجع ابنتها. زجرتني كما لو أنها تدفعني نحو باب الكنيسة: «افعلها! فأنت رجلها، لم يبق أمامها غيرك. لقد كبّرتك وصنعت منك رجلًا وحان الوقت كي ترد لها الجميل!».

ومهما صرختْ كنت أظل ثابتًا لا آتي بأي حركة، لا أعرف أهو عجز أم خجل؟! لكن كيف يكون خجلًا بينما نصفي السفلي كله عريان بالفعل. ليتني حضرت حلمي من بدايته! ظلت أمي تتحرك تحتي ولمّا يأستْ من ترددي أحاطتني بساقيها مثل زهرة توليب سقطتُ بداخلها. تقابلتْ رغبتانا؛ أرادتني أن أسُودها، بينما أردتها أنا أن تغمرني!

«إياك نعبد وإياك نستعين!».

كان عضوها المشقوق أمامي ملتهبًا، شَقّه يكشف عن أحشاء حمراء مثل ثمرة تين. عيناها تحملقان في طوربيدي وكلهما غنج وخضوع.

«اهدنا الصِّراط المستقيم!».

أفقت من نومي. تقلبتُ وأصخت. كان الصوت لا زال يصدح عاليًا في العنبر يتلو باكيًا: «صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضَّالين».

فتحتُ عينيّ فداهمني ضوء أبيض ساطع، تبينت خلفه اللمبات النيون في العنبر وقد أضاءوها جميعها حتى استحال العنبر لاستوديو، بينما أصوات ركض الزملاء على البلاط تؤكد هواجسي. كان آخر ما أريده، رغم أني في جحيم، الموت، وعلى يد جهادي! فهُم لم يعالجوني أو يصنعوا مني رجلًا بعد، فكيف أموت وأنا على فراشي سكيني معلق في سترتي! سأفقد حياة الشباب التي لم أبدأها بعد. ثم هل أتيت لمؤسسة تحاول شطب قصة حواء من الخلق، كي أموت في النهاية على يد ذكر شبهي يرى عيسى نبي الله، بينما أراه أنا ابن الله!

غبت عنهم إذ نعست لمدة وجيزة، ثم عدت فكان الهدوء وهذا الحوار:

«من منكم حافظ للقرآن؟».

ساد صمت فعاد يصرخ هذه المرة:

«يا أولاد الزواني أليس بينكم مسلم واحد موحد بالله حافظ للقرآن؟!».

ثم سرت همهمة في العنبر ترحب بمجيء أحدهم بنبرة مستغيثة: «شيخ شاهين... شيخ شاهين» ثم صوت آخر يستعطفه: «تصرف معه ودعنا ننام... أو أقول لك؛ لقد أفقدنا أي رغبة في النوم، كما أنه ستنطلق عن قريب صافرة نوبة الصحيان، لننزل جميعنا معكما للصلاة».

فأيدت أنا أيضًا هذا القرار ونمت.

***

في اليوم التالي عرفت أن تخيلي بالأمس عن جهادي في العنبر كان مضحكًا جدًّا بالنسبة لي على الأقل، لأني لم أخبر به أحدًا. فمَنْ أيقظنا الليلة الأخيرة لم يكن سوى زميل لنا، حسب وصفهم؛ مخه بعافية حبتين أو لديه كهرباء زائدة في المخ. لكنه رغم خطرفته كان ينادي طوال اليوم بمواقيت الصلاة ويرميهم بآيات من القرآن عن عاقبة إهمالها. الأمر الذي أكسب خبله حصانةً من نوع خاص. وبلُغتي ترجمتُها إلى أنه مجنون اعتبره الزملاء البسطاء صاحب كرامات. مثل القديسين المجاذيب عندنا الذين تضخ الأديرة مبالغ طائلة كي تنتج أفلامًا دعائية عنهم تبشر بقيمة الهبل، وتكرس لفكرة

أنه وحده القادر على الزج بالإنسان وسط صفوف المتكبرين والعقلاء، كي يرث ملكوت الله. وربما تكون نظرية الملكوت على جانب كبير من الصحة بالنسبة للحياة هنا، لأنها كانت تتطلب منك ألا تتحدث أو تنصت كثيرًا. أما صاحب الكرامات والكهرباء فخبله عندهم لم يمتزج بدينه، بل انسحب تحت وطأة الثاني. كما لم يتعاملوا معه إطلاقًا على أساس أنه ينقصهم في أي شيء، بل تناسوا هذه الفكرة ونبذوها كما لو أنها ليست وليدة أدمغتهم، وكان من يذكرها يوبخونه. كما أنهم لم يحتاروا في مناداته فربطوا هويته بكهربائه وأسموه «الشيخ ڤولتو». وبالرغم من انشقاق الاسم وسيره في اتجاهين متضادين، إلا أنهم لم ينزلقوا مرة في شَرَك الدُّعابة ويقتطعوا من اسمه لقب شيخ. وكنت أظن أن كراماته ستتوقف عند الزملاء. لكنها طالت أيضًا البطريركية!

***

مرة أخرى أيقظنا مبكرًا عن موعد استيقاظنا المبكر أصلًا. وهذه المرة لم يكتف بالتسبيح والتهجد، بل انقضَّ على زميل في السرير الملاصق له وأمره أن ينهض معه حالًا للصلاة. ولم يملك المهجوم عليه حينما رأى في العتمة وجه ڤولتو المنحوت، قريبًا منه لحدٍّ يكاد معه أن يلتصق بوجهه، سوى أن يصرخ ويقذف بنفسه للسرير المجاور فيوقظ زميله. وهكذا دواليك سرت الكهرباء من سرير لآخر حتى بلغت آخر واحد عند باب العنبر. وفي ثوان كان يصرخ جميع الرجال وقد أضاءوا النور وجروا حفاةً بالبيجامات. وحكى سيء الحظ الذي استقبل الهجوم الأول كيف شعر وهو نائم بيد تطبق على

عنقه، ثم فتح عينيه ليجد الشيخ ڤولتو جاثمًا فوقه في ذلك الوضع الشهير الذي يستخدمه أغلب المتزوجين المحافظين. ولولا أنه يخص ربنا لنزعوا عنه واقيه واتهموه بالشذونة. وربما خصوه!

لكن حتى بعد هذه الواقعة لم يجرؤ أحد من الزملاء على شتمه أو إيذائه، بيد أن هذه المرة كانت مراعاة لغضبه لا قدسيته. وحينما كان يهم واحد من الرفاق الأقباط أن يعبر عن غضبه تجاه ما يحدث، كانوا يحاصرونه ويذكّرونه برحمة الله تعالى.

وفي ليلة كنا جالسين بالفناء الجلسة البطريركية التي علّمونا كيف نقعدها وقت مراجعة الكشوفات وإعطاء التنبيهات، وهي تقتضي أن نقرفص على المقعدة محيطين الرُّكَب بالأذرع. وكان القومندان يحصر عددنا، فإذ بالشيخ ڤولتو يخرج من الصف فجأة ويسير حتى يقف في المنتصف، بحيث صارت جميع الصفوف تحيط به من كل جهة. فركع على الأرض وبدأ يتلو صلاته بنبرته المُخيفة واستجداءه العنيف. وبينما يواصل ركوعه وقيامه أتى من بعيد أقدم قومندان، وكان صاحب كرش كاملة الاستدارة، له شنب ثقيل ويظهر رأسه فوق جذعه كأنه خارج من جسم سلحفاة. فأسميته في سري «دوناتيلو». اتخذ كرسيًّا وجلس على بُعد أمتار قليلة من ڤولتو. جعل يراقب حركاته وهو ينفث دخان سيجارته في هدوء، بينما الصبيان يتطلعون إليهما من الصفوف بأعين كلها ترقب طفولي. انتهى ڤولتو من صلاته فوقف مكانه. بادره دوناتيلو: «حرمًا يا بني، تسمح لي بالتحدث معك قليلًا؟». اندهش الصبيان من نبرة

القومندان الحانية. فمنذ أتوا إلى هنا لم يسمعوا منه سوى زعيقه ومناداته لهم بالأوساخ. أو حينما يلمح خطأ ما، وهذا سهل الوقوع جدًّا، فيهددهم بصوته المبحوح: «لو رأيت شرموطًا يفعلها مرة أخرى سأجعله يسبح من هنا لليونان!».

«من سيأتي معي لصلاة العشاء؟».

هتف ڤولتو وهو يقلّب نظره فينا غير عابئ بكلمات دوناتيلو. وكان الأخير قد اتخذ كرسيه في ركن مظلم من الفناء، متمالك الأعصاب بشكل يخلو من أي تكلُّف؛ يسحب نفسًا من سيجارته، فنرى توهجها وسط العتمة، ونلمح معها نتفًا من وجهه، ثم ينفث دخانه وتخفت جمرة سيجارته، فيلتحم وجهه بالظلام مرة أخرى.

«ما تفعله يا بني خطأ كبير لن أحاسبك عليه، أنا رجل في سن والدك... ثم إن العشا باقي أمامها ثلث الساعة».

«الله أكبر الله أكبر... الله أكبر الله أكبر!».

تململ الرفاق في جلستهم وتهامسوا.

زعق دوناتيلو:

«أتظن أنك أكثر إسلامًا مني أو من زملائك؟!».

فصمت الجميع حتى ڤولتو. ثم أتى صوت الأخير خفيضا وإن كان لا يزال محتفظًا بثقته:

«أريدهم أن يصلّوا!».

«سيصلّون، وأنا بنفسي سآتي وأصلي معكم، لكنك الآن تعطلنا!».

«الصلاة عطلة!... الصلاة عطلة!».

«كلامي واضح وسمعه الجميع. أنت هنا يا حبيبي لأداء فترة معينة، هناك برنامج أعدته لك البطريركية كي تصير رجلًا مكتملًا. أما الصلاة فلها وقتها! هذا واجب نقضيه جميعنا هنا من أصغر فرد لأكبر قومندان... ثم إن جُملتك هذه: «الصلاة... الصلاة» تشعرني وكأننا في معسكر جهاد. أرجوك! لا تكثر منها حتى لا تجلب لنا شبهة. نحن رجال شرفاء ولنا عقيدتنا».

ثم رفع صوته:

«التي لا تتنافى مع ديننا. ومن ثم، فلنترك كل شيء لوقته».

صرخ ڤولتو مع أن دوناتيلو كان يتحدث بهدوء:

«تمام يا حضرة!».

«زملاؤك اشتكوا، هذه ثاني مرة توقظهم فيها!».

صمت ڤولتو لأول مرة، فاستشعر دوناتيلو أنها لكمة لا يمكن تفويتها:

«ما الحل في رأيك؟».

«لست بمريض، صدقني!».

«يا حبيبي، أي حيوان منهم قال لك أنك مريض، أشر لي فقط عليه وسترى بعينيك ما سأفعله بأمه».

«لست مريضًا... لست مريضًا».

«طبعًا طبعًا... أنا فاهم... لكني أود أن أسألك سؤالًا واحدًا،

هل ترى ما يحدث طبيعيًا؟».

«لا».

«حلو. ما الحل؟».

«أواظب على أخذ العلاج».

«إذًا أنت متفق معي أن نذهب للمستشفى سويةً».

«نعم... صحيح!».

ورنّ جرس الجولة.

تخيلت «ماما شرشر» ذات القضيب الداكن، عارية إلا من حمالة صدر وسروال بكيني، تدور داخل الحلبة ممسكةً بشاشة إلكترونية معلنةً إحراز دوناتيلو نقطة ضد الشيخ ڤولتو.

***

كان الشيخ ڤولتو نحيفًا. يمتد خليجان من الصلع على جانبي رأسه. وجهه مشبع بحُمرة دائمة، حتى لو لم يكن غاضبًا، وحتى لو لم يكن انتهى لتوه من تدريبات القتال التي أصرّ على المشاركة فيها كواجب لا يقل أهمية عن فريضة الصلاة. وكان عنيفًا في التمارين لدرجة أنه كان يركل المانيكان النسائي في أدق نتوءاته على دفعات متتالية حتى تشع لمبات الحلمات بالضوء الأحمر، مُعلنةً إحرازه أعلى النقاط. وكان القومندان أحيانًا يسمح له بإدارة الطابور من أجل مسايرته، الأمر الذي كان يرهقنا جدًّا لأنه يتعب متأخرًا. ووصل الأمر بالزملاء أنهم تحاشوا الهزار معه باليد لأن استجابته كانت تأتي عادة مبالغًا فيها. وإن كانوا تفهموا مشاكله العقلية لم يرأف هو بضعفهم

البدني. ومع ذلك ودَّعوه بحُبّ في كل مرة رأوه فيها وهو يؤخذ وقت الغروب بواسطة مبعوث للمستشفى البطريركي، ليُحضره لنا في يوم آخر قرب الليل، ليوقظنا قبل الصباح. ظل مقيمًا معنا على هذه الوتيرة التي توقعنا معها اختفاءه من بيننا في أي يوم. حتى وصلت الأمور لذروتها حينما التقى الشيخ ڤولتو بأكبر مجنون عرفته في حياتي.

***

يوم الجمعة هنا كان يشبه يوم الجمعة في أي مؤسسة أخرى؛ كانت تخيّم على المكان حالة من الكسل، ويُخيل لك من فرط الهدوء أنك غير مُؤمَّن بالمرة، وأنك قد تتعرض لهجمات من ضفادع نسائية عن طريق البحر. وازداد شعورنا بعدم الأمان عندما سمعنا في نشرة أحد الصباحات الفائتة أن البطريركية نفّذت هجومًا بالأسلحة الآلية على المعهد الثقافي الألماني بالعاصمة، ليلة عرضه لأفلام جميع صنّاعها من النساء؛ أفلام تسلّط الضوء على الفقر الجنسي لدى الرجال وتذكر مصطلحات جاسوسية مثل: فيمنزم، وچي سبوت، وأورجازم، وڤاچينا. وفي نفس الليلة انفجرت شقة في وسط البلد، وقُتل ست صحفيات اجتمعن بشكل حميمي عند إحداهن دون معرفة زوجها، بحجة أنهن سحاقيات. وكان البطاركة قد سعوا من قبل للتضييق على متزعمتهن ونجحوا في إقناع الدولة بحجب موقع إلكتروني أسسته لتعليم الباترون والخياطة، بينما هو في الأصل موقع مشبوه. آخر تدوينة لصاحبته عليه نادتْ فيها بما أسمته «الدعارة الذكورية»، ويُقصد بها أن يكون لدى مجتمعنا أخيرًا رجال يُمتعون المرأة مقابل المال.

***

كان جميع الزملاء يتأهبون للصلاة فتكتظ الحمّامات وتسيل المياه فوق الأرض، ويسير الكل بسُترات مفكوكة الأزرار شُمرت أكمامها، وبقدمين مبتلتين من أثر الوضوء. ثم يخرجون على دفعات إلى مسجد البطريركية كي يسمعوا الخطبة، وعادة تكون عن الأمور التي أعزّنا الله بها نحن الرجال، وعن مغبة الانتحار الذي يقلل أفراد جنسنا الكريم. وكانت هذه المواضيع رغم تطرفها جديرة بأن تلطّف التوتر القائم طوال الوقت بين الذكور المسلمين والمسيحيين، لأنها ترجعهم إلى حقيقة واحدة مؤكدة، وهي أنه مهما اختلف تكوين أدمغتهم، يجمعهم تشريح حيواني واحد.

وكان الهنجر وقت الصلاة يخلو تمامًا من الجميع، فيما عدا الأقباط وهم قليلون جدًّا، أو المنحرفين الذين كانوا ينتهزون الفرصة فيُخرِجون ما يخبئونه من طعام وحشيش وهواتف، ويتصلون إما بأمهاتهم أو خطيباتهم. أما ڤولتو فتراءى له في جُمعة من الجُمعات أن دوره الحقيقي ليس في المسجد وسط المُهتدين، بل على غرار البعثات التبشيرية دوره الحقيقي خارجه، وسط الضالين. وبالفعل تركهم جميعًا يغفلون عنه، بمن فيهم قومندان مجموعتنا، وعاد يتفقد العنابر. دخل الطابق الأرضي فلم يجد أحدًا، إلا أنه لمح يدًا تتحرك هناك. كانت الأسرّة تتكون من دورين كما أنها تمتد لنهاية العنبر على الجانبين، فتبدو وكأنها غابة جذوعها عبارة عن أعمدة حديدية. وبالتالي ليس من السهل أن تعثر على أحدهم في العنبر. رآه ڤولتو فجرى نحوه وأمسكه من ياقة الترينج:

«لماذا لم تذهب معهم للصلاة، انت قبطي؟».

«أنا قبطي فعلًا!».

كنت أناقش نفسي وقتها إن كانت عاهرتي الحبيبة تستحق أن أنتهز حالة السكون التي تسود العنابر الآن، فآخذ الهاتف من أحد الرفاق وأتصل بها مثلما فعلوا جميعًا، كي أطمئن عليها، أو بالأحرى أطمئن على نفسي. حينها سمعنا صوت زعيق في الطابق السفلي. نزل الجميع وبقيت أنا وحدي في العنبر حتى تناهت إليّ من الخناقة كلمة «مسيحي». فانتبهت، ليس فقط لأنها مشكلة من ذلك النوع، بل لأن المسيحي الآخر في نفس القطاع، محتمل جدًّا أن يكون هو... باباي!

هذه أول مرة أنطقها هكذا!

لم أكن خائفًا عليه بشكل تام. كنت أربط بين أماننا نحن الاثنين. هرولت لعنبرهم. مخبولان يتعاركان كيف سينتهي الأمر، أو على الأقل كيف سيبدو؟

كان الشيخ ڤولتو مُصرًّا في بداية الخناقة أن والدي مسلم، وأنه يدّعي مسيحيته كي يفلت من واجب الصلاة. والحق أنها كانت خدعة مُستخدَمة بالفعل مِن قِبل بعض الصبيان هنا أيام الجُمعات. أما ڤولتو فحينما وجد الجميع من صفه يؤكدون كلام أبي، شعر بالذعر إذ ستنتهي الخناقة سريعًا وتنتهي معها الإثارة التي تنشط كهرباء مخه. فإذ به ينتقل لنقطة أخرى لا مناص منها؛ لماذا لا يصلي معهم أبي حتى وإن لم يكن مسلمًا، فالمسيحيون لا يصلون أصلًا، ألا تعد هذه فرصة للهداية؟!

هنا مدّ أبي من موقعه الذي يعتلي الجميع يده، فمرّتْ بينهم كلهم واستقرتْ على عنق ڤولتو: «ماذا تعرف أنت عنا يا ابن الكلب يا وسخ؟!» كان وجهه الأسمر قد احتقن وعيناه

صارتا مُبرّقتين كأنهما ستشعان نورًا، وفالنته عند العنق مُزقت بشكل مائل، ربما إثر محاولة أحدهم لجذبه بعيدًا. وللغرابة قُطعت بنفس الشكل الذي كانت تبدو عليه ساعة شجارهما!

أمام الجارة التي سمعتهما فتركتْ الطبيخ وأتت مسرعةً بقميص نومها وشرابها المربوط حول وسطها، كان يجلس بفالنته الداخلية التي قُطعت إحدى حمالتيها. بينما أسفل رقبته ظهرت آثار أظافر أمي، التي تركت محلها مسارات حمراء. وكان صدره يعلو ويهبط. ويده مستندة على وركه. وصوته مبحوح من كثرة ما شرح كيف اعتدتْ عليه أولًا. أما هي فظلت ثابتة على الكرسي قبالته بكدمة بنفسجية تحت عينها، ستقابل بها مديرها المُتيمة به صباح غد!

***

«أنتم كفرة لا تصلون يا آكلي الخنازير!».

قالها ڤولتو فانطلقت الأصوات دفعة واحدة: «عيب يا شيخنا... اللي له نبي يصلي عليه... كلنا زملاء هنا نقضي فترتنا حتى نستعيد ذكورتنا، لا فرق بين نصراني ومسلم!».

«نحن كفرة فلماذا جئتم إلينا، البلد بلدنا في الأصل!».

كان هذا أبي فانتقلت الأنظار في لحظة إليه وأهملت ڤولتو:

«متعُكش متعُكش ومتاخدش على كلامه، الشيخ بعافية حبتين عشان مخدش الحباية!».

«مساكين البطاركة، سيعيدون للشيخ رجولته أم عقله؟».

«خدوا بالكم الناس قربت ترجع من الجامع، اللي وراه تليفون

يعمله ويخبيه علشان هنتناك كلنا مسلم ومسيحي!».

«طب تصدقوا بإيه، فردتي في المدرسة كان اسمه چورچيت ومرة زنقناه في الحمّام وعملنا له كشف حمامة، لكن ابن الزانية كان حنطوره أكبر. أنا اللي شاغلني لو كلهم كده، يبقى ربنا يستر على ولايانا!».

«وأنا أمي ماكنتش تاكل المسقعة غير من إيد جدتي أُم أبويا الله يرحمها، أصل جدي كان متجوز واحدة منهم، وحقق لها أمنية حياتها وسفّرها القدس عشان نعرف نقولها يا مقدِّسة بدل يا حاجّة!».

«طب صلوا على حضرة النبي!».

«سصسصسص».

«أنا بعد كل صيام عندهم بييجي مينا وأخوه جيرانا يأخدوا منا اللبن والجبنة عشان معندهمش بقرة!».

كان الأخير طبعًا چيت لي.

جلسوا على الأسرّة وتحولت الخناقة لحديث ببيت العائلة. وأخذ أحدهم ڤولتو خارجًا بعد أن اتفقنا على أن شيئًا لم يقع، حتى لا يعرف القمادين، لأن مثل هذه النقاشات كانت جديرة أن تهدد وحدة البطريركية وانسجامها.

بيد أن هناك تفصيلة كذبت بشأنها. أبي لم يمد يده على الشيخ، ولم يقم بدور البلطجي كما ألفته دائمًا معها!

كذبت لأني أردت أن أتخيله وهو يضرب ڤولتو، انتقامًا لرواسب مسيحيتي التي هي أغلب الظن موروثة عن أمي، مثلها مثل

أسناني المعوجّة التي لم تنفعني بقدر ما شكّلت مستعمرات آمنة للسوس، مع ضبّي البارز للأمام، وشفتيّ المنتفختين بطريقة أنثوية مثل سمكة. أتمنى أن تعالجني البطريركية فعلًا من كل هذه الأمور وأن أخرج منها لا أشبه أحدًا. وأن تمنحني «أنا» ذكورية قاسية تجاه نفسي قبل أن تكون قاسية على الآخرين.

كذبت لأني أردته أن يبطش بالشيخ حنقًا مني على الأخير، إذ صار مبجلًا بين ليلة وضحاها لا لشيء سوى أنه معتوه. وفي النهاية مهما تأججت كراهيتي لأبي خارج أسوار هذا المكان، فقوّته هنا كانت تعد للأسف شيئًا مختلفًا تمامًا، إذ هي انعكاس لقوتي أنا أيضًا. كنت أمقته لأنه لم يورثني سوى الضعف. لطالما عرفت آباء لأصدقائي كانوا مثله غِلاظًا عنيفين. لكنهم على عكسه أورثوا أبناءهم القوة. أما هو فوجوده بشكل كلي كان خسارة لي، ربما أكثر منها. لقد كان مقاتلًا مخاتلًا. أو كنا نحن من الضآلة بحيث نراه عملاقًا!

لقد كان خائفًا. لاحظتُ هذا طوال خناقته مع ڤولتو. وإن أنكرت الأمر لنفسي، فلن يبرح بهذه الحيلة مُخيّلتي!

فقط هنا في البطريركية، عرفت أن أبي كان شخصًا في منتهى الجُبن. ولم أعرف إن كان هذا يدعو للحسرة أم التهليل!

اصطدم بي وهو خارج من العنبر بعد أن انتهت المشكلة فزعق لي: «وأنت يا مدلدل، ما الذي تصنعه هنا بينما أحدهم، وهو منك، يتعارك؟ لماذا وقفت هكذا مثل الفأر؟!».

فأر! أنا فأر! إنه ينفث ضعفه وجبنه الذي لم يستطع

إخراجهما في الشيخ، فيّ أنا. تمامًا مثلما كان يفعل معها. لكني لست فأرًا. ولست ماما!

***

«أنت أذكى من هذا يا هتلر، أرجوك لا تندفع خلف غضبك الآن!».

حاول معي چيت لي حينما أخبرته أني مُقدِم على إبلاغ قومندان مجموعتنا عما بدر من أبي تجاهي. لم تكن هناك حاجة كي نتجادل ونرصد مغبة الشكوى. فهي معروفة ودارت في ذهن كلٍّ منّا. فما يليق عادةً بطريقة تصرف المسئولين، هنا وفي الخارج، تجاه الأزمات؛ هو أنهم لا يفكرون في المشكلة أو مَنْ المُخطئ الحقيقي. سيمنحوننا أنا وأبي عقابًا متساويًا معتقدين بذلك أنهم ينهون الأزمة.

لم أكترث إلا للصوت الذي ألحَّ عليّ في داخلي. لم يكن غريبًا، لقد ألفته منذ خرجت من بوتقة أمي. إنه صوتي الخاص. تركت چيت لي خلفي يتوسل وواصلت أنا طريقي نحو القومندان. لماذا يرى المتدينون أن الغواية تأتي عادة من خارجنا؟! الحق أن هلاكنا في الأغلب جزء من تكويننا، معجون بطبيعتنا، مثل الأنف والأذن والعينين. بإمكاني أن أتخيل كل جنين سابحًا في رحم أمه بينما تتشكَّل ملامحه الدقيقة، ومعها تبزغ في رأسه عِلّته، التي ستكون في حياته سبب تفرُّده أو نكبته. وقد كانت عِلّتي أني لا أريد أن أكون جبانًا مثل أبي!

كان القومندان أعطاني ظهره ماشيًا نحو مكتبه، يهرول خلفه ثلاثة صبيان كل منهم له مشكلته الخاصة. التفتَ على مرات

متقطعة ليصدر أوامره لهم، ثم استدار منتبهًا للطريق. لفّ رأسه وثبّته بعد أن لمح شيئًا مني خلفه. الآن فقدتك يا چيت لي! تراءى لي أبي غاضبًا لكن ها هو الأشرس أمامي. لا عودة! لم يعد حتفك في يدي!

«ماذا تريد أنت الآخر؟».

«بعد إذن حضرتك، أحد الزملاء شتمني وقال لي أني أقف أمامك مدلدلًا».

«مدلدل، ماذا تعني هذه؟».

ما الغير مفهوم؟! واصلتُ متلعثمًا:

«لقد قصد تشبيهي بعضو بارد مرتخي مثل إصبع ورق عنب نيء، وأنا شخصيًا لا أتصور أنه قد يوجد رجل في مجموعتك بهذا الوصف!».

«مممم قال لك هذا؟ حسنًا، لدينا حمّام مسدود سأجعله يتولى أمره، احضر لي رقم ذلك الوغد، وإن لم تفعل ستقوم أنت بتسليكه!».

٦

على عكس ما هو شائع عن الحياة في المستعمرات الذكورية، كنا نراعي الطبيعة وبأوامر. فالحدائق كانت تنال نفس اهتمامنا بنظافة ستراتنا ولمعة جزمنا. وبعض الزملاء كانوا يُكلَّفون من وقت لآخر بتولي أمرها وإلا سينالون أشد الجزاء. أما الورود المتشابهة في اللون فكانت تُجمع في حيز واحد لتُكوّن بها أشكال بورنوجرافية على جدارية من الحشائش الخضراء، أشكال لا يمكن أن تتخيلها امرأة مرهفة مهما رأت في حياتها من أعضاء ذكرية. ومن وسط كل أشجار حديقتنا كانت أهمهم شجرة فيكس قلّموها على شكل قضيب تتجه رأسه لأعلى، وغرسوا أزهارًا بيضاء تتدفق منها. فقلت في نفسي هذه هي شجرة الحياة! وربما أن الأولاد مع شعورهم المتنامي برجولتهم، أفاقوا فجأةً على الجمال المضاد لطبيعتهم حولهم، حتى إني سمعت أحدهم ذات مرة يحدّث صاحبه بكل تأثُّر قائلًا: «قبل أن يموت الورد!».

ومن وسط أفراد مجموعتنا كان هناك اثنان مشهوران؛ أولهما الكاتب وهو مُكلَّف بتسجيل كل ما يهم الإدارة من أسمائنا وأرقامنا وأرقام أقرب الأقارب وتصاريحنا وبيانات عن أهالينا، في حالة وقعَ مكروه لنا. وكان شابًّا قصيرًا له رأس ضئيل أسموه الباز أفندي. أما الثاني فهو عامل البوفيه أو بلُغة الصبيان هنا: «سيكا» وتعني مرمطون خاص بخدمة القومندان، وله لقب ثانٍ وهذا تعرفه العامة: عصفورة. من وادي النطرون ويقول على السجاير «سداير». أسمر نحيف له زغب وهالات سوداء حول عينيه. وكان الاثنان؛ سيكا والباز أفندي دائما الالتصاق ببعضهما بحكم أنهما لا يبرحان العنبر حتى في أوقات التمارين، لخدمة القومندان. وأذكر أني مرة شاهدت الباز أفندي بضآلته يمنح سيكا الأطول منه وردة حمراء. ثم رأيتهما بعدها يلهوان وحدهما بغرفة المكتب. كان سيكا قد انتشل باريه القومندان من على المشجب ووقف بقامته الفارعة صانعا قوسين حول وسطه مزهوًّا بشاربه وفحولته، بينما راح الباز أفندي يرقص أمامه وقد ربط خرقة بيضاء يمسحون بها المكاتب والخزانات حول خصره. ظل القصير يرقص ويرقص، قبل أن يعود الرفاق من التمارين... وقبل أن يموت الورد!

كانت وظيفة الباز أفندي عادة تكون صعبة وسهلة الوقوع في خطأ كبير. لكن البطريركية تسهيلًا لعمل الكَتَبة وضعت لهم نظامًا يضمن الدقة؛ بحيث يتم تقسيم الملتحقين الذين يكون عددهم في الدورة الواحدة ألفين إلى خمس مجموعات، وتضم كل مجموعة ٤٠٠ رجلا يسكنون عنبرين في قطاع واحد

من قطاعات الهنجر. ويتم منح كل فرد داخل مجموعته رقمًا يميزه ويُنادى به عليه ويسجله الحكمدار (قائد منًّا نختاره بأنفسنا) في ورقته في حالة صدور أي مخالفة. فأنا مثلًا كنت رقم ٢٤٢ وهو هويتي هنا، على عكس اسمي الذي لم أعد أستخدمه.

وحينما كان يتوجب عليّ أن أعرف رقم والدي، سألت الباز أفندي الذي كان من المنطقي جدًّا ألا يحفظ وجه كل شخص مع رقمه. وسألت زملاء مجموعتنا ووصفت لهم شكله، فأخبروني أن وصفي لا يساعدهم البتة، كما أنه لا أحد سيحفظ رقم غيره لأنه بالكاد يحفظ رقمه الشخصي. وحينما تعرف عليه زميل أخيرًا أخبرني أنه ينام في الطابق السفلي معه، وهذه كنت أعرفها من خناقته مع الشيخ ڤولتو. لماذا طلب القومندان رقمه بدلًا من أن يأخذني من يدي وندور نبحث عنه مثلما يحدث في طوابير العرض بالأقسام؟ يا له من مشهد يهوذوي؛ أسير مع الباز أفندي وسيكا وهما يحملان المشاعل. أقترب من أبي تحت نظرات الجميع الذين يساورهم فرح انتظار مصيبة الغير. أميل برأسي عليه وأقبّله. حينئذ يتعرفان عليه فيكبلانه ويصلبانه على سارية في فناء البطريركية، وتحت صليبه أرقص أنا رقصة القيامة الأخيرة، من قبر أبوته المظلم.

قبل أن تموت وردتي! لا أكترث لكل الورد، وردة واحدة التي أردت!

لكن وقت الطابور وهيبته وعددنا الكبير؛ كل هذه الأمور لن تسمح بأن نفعل مثلما كنا صغارًا في المدرسة، فهنا يوجد

نظام صارم وطريقة معينة دومًا لفعل كل الأمور.

وقفت أمام العنبر الذي من المفترض أنه ينام فيه. فتحت الباب الخشبي الأخضر على مصراعيه. ظهر أمامي مئة سرير مضروبين في ضعفهم (أدوارهم العليا) أي مئتي سرير موزعين على اليمين واليسار، وفي الوسط امتدت الطرقة ببلاطها المنقط.

ولأن رقمه كان لا يزال مجهولًا لي، خمَّنت طبعًا أن جولتي ستكون بلا طائل.

كان كل سرير في نهايته ملصوقة عليه ورقة بيضاء صغيرة سُجل عليها رقم من يعتليه، لكن ما الفائدة؟ سرت بخطوات متعثرة لا لشيء سوى أن التراجع لم يعد في وسعي. من قال ذلك؟ بإمكاني أن أعود من حيث أتيت. لكن الصوت الذي في رأسي يأبى. أمي. آآخ تلتف بجسدها العاري مثل أفعى حول رأسي. لطالما ظننت طوال شبابي أنه صوتي! جربت أن أتكلم، فخرج صوت أنثوي. بكيتُ.

رحت وأنا أتمشى في الطرقة بانحناءة مفتش عجوز، أقلّب نظري في الأسرّة لعلني أجده هو شخصيًّا مستلقيا فتنتهي تلك المهمة البغيضة اللذيذة. أُحبطت فجلست على سرير منهم دون قصد أو اختيار بعينه. شعرت بالتعب فاسترحت بينما عيناي لم تتوقفا عن التنقيب. انقلبت على بطني ودفنت أنفي في الوسادة، أمتص كل ما استطعت أن أجلبه من رائحة نسيجها. انغلق جفناي. سحبت المخدة أسفلي واعتليتها. هناك خلف ثقب الباب عين تتجسس عليّ.

عيني!

أنا هو الطفل الواقف خلف الباب لكني هنا أيضًا على السرير أضاجعها. رأيتني فجأة الجبار. ستمنحني أمي منجلًا وحينما يهم زوجها بمضاجعتها سأقطع له قضيبه. أنا يا أبي الابن الذي فاتك أن تأكله، فانتظر اليوم الذي يهلكك فيه!

جاءني صوته المزلزل: «انزل من فوق أمك، اترك فراشي يا نجس! أتريد أن تأخذ مكاني؟ على جثة قضيبي المذبوح!».

رأيته واقفًا لا يغطي جسده سوى ملاءة بيضاء التفّت حول جسمه الممتلئ الأسمر وفي يده انتصبت شوكة «بوسيدون».

قفزت من على السرير ودبدبت بقدميّ:

«هيهات أن أصير مثلك فعلًا!».

«وَهْم! ألم تلحظ الشعر المنحسر على جانبي رأسك، أتظن أنك ستظل فاتنًا للأبد، سيصيبك الصلع مثلي. ابذل مجهودًا قليلًا وانزل بعينيك إلى بطنك التي انتفخت، ها هي كرش صغيرة تنبت! أتعيب عليّ لأني أتبع جرذي. هذا حالنا جميعًا نحن الرجال! ضع يدك أعلى ظهرك، فتش عن مفاجأتي لك في عيد مولدك القادم».

نظرت إليه في ازدراء.

واصل هو:

«افعلها إن كنت واثقًا أني أهذي!».

فعلتها، تحسست بيدي شيئًا فوق ظهري، كان طريًّا لكنه ثابت، كأنه... اللعنة! انبثق من جسدي! لقد نبتت لي واحدة من تلك الزوائد الجلدية الكثيرة التي كانت تغطي ظهره مثل

حائط متقشر. كنت أرى ظهره العاري وأنا صغير حينما كان يخلع عنه هدومه ويهمّ بالاستحمام، فأقرن جلده المشوه بتلك الزوائد دومًا، بجدار متقشر لبناية مواجهة لبيتنا.

تراجعتُ للخلف وحملقتُ في السرير. اختفت رائحة ماما العطرة منه. عرقه النتن هو الذي يفوح من الفِراش الآن. رأيته عليه يضاجعها. ورأيته وهو يستمني بمفرده. وهو يشاهد المذيعة ذات الشعر الزعفراني ويده تتحرك تحت بنطال بيجامته. وهو يهاتف عشيقته المُمرضة. وهو واقف في سبوعي ببنطال نبيتي وتي شيرت أكبر من مقاسه. يرتدي نظارة لها عدسات عسلية كبيرة. عمّي يلفّ سلك الميكروفون حول رقبته ويغنيان معا في شرفة منزلنا على أنغام فرقة جلبوها خصيصا من أجلي، جميع أفرادها يرتدون سترة زرقاء لامعة بدون أكمام، وشعورهم مكوية بالسشوار، يعزفون على الأورج والأكورديون: «لا أنا كنت بره ولا مهاجر... أنا اللي جاي لك من باكر!». وهو مندمج معهم يحرك يده متشنجًا في دوائر ويسند الأخرى على خصره. يمط رأسه لأعلى ويبرّق بعينيه. أوردة رقبته تكاد تنفجر. سيكون على نفس الهيئة وهو يتهجم عليها.

يحملني على رِجله في لباس أحمر لفتاة (كان قد أخبرهم دكتور السونار قبل الولادة أني بنت، لأنه دكتور حمار من هيئة التأمين الصحي كما وصفته ماما). هو يبتسم بينما أنا أنظر لشيء محال أن أتذكره بعد كل هذه السنوات. أما هي فتجلس في الطرف الآخر من الكنبة، ويمكنني قياسًا لزاوية الصورة التخمين بأنها أُلتقطت بكاميرا لشخص من عائلته، لا

من عائلتنا. لأننا أنا وهو نتصدر المشهد بينما هي مُهملة بالقرب من حواف الصورة تمسك بكتاب أبيض. «حريق الأخيلة» لإدوار الخراط. كانت ماما تقرأ بانتظام، هكذا حكت لي. كما عدّدتْ على أصابعها أسماء الروايات التي قرأتها، وجميعها كانت من النوع الذي تقرأه النساء كي تبكي.

دافعتُ عن نفسي:

«هذا ليس صلعًا يا مغفل، بل هو شكل جبهتي التي تمتد للخلف على الجانبين. كما أن أكثر من فتاة أبدت إعجابها بها وكثير من المشاهير لهم نفس الهيئة. ثم إني لست مثلك، حينما أتبول لا أصوّب في عمق المرحاض فأصدر ذلك الصوت الذي كنت توقظنا عليه في الليل. وأنا على استعداد أن أرتكب كل الأمور الإباحية المطلقة فعلًا، لكن مع فتاة أحبها. أنا لا أخون امرأة قررتُ أن أرتبط بها للأبد، مثلما فعلتَ أنت!».

«لكنك تعرف أكثر مني عشاق أمك بأسمائهم وتوقيتات ظهورهم في حياتها!».

كنت أعرف أنه يحاول تشويه صورتها لدي. غبي. رأيتها على السرير بقميص نومها. رمقتْه سريعًا ثم حوّلتْ عينيها عنه وابتسمتْ لي. سألتني كي أطلب منها شيئًا. أي شيء. راقبتُه بطرف عيني. زعقتْ فيّ ألا أخافه. مدّتْ أصابعها البيضاء نحوي. ارتميتُ في قميص نومها الناعم فدغدغ جلدي. نظرتُ إلى ذقنها من موضعي على صدرها. طلبتُ أن ترضعني. بمجرد أن دخلتْ حلمتها هنجر فمي انقلب لون ملاءات العنبر الزرقاء للون الوردي. مدّتْ يدها في سوستة بنطالي. نظرتُ إليها بفزع لكنها واصلت متيقنةً. أخرجتْ إصبع «إكلير» أسود

ضخم مُغرَق في الشوكولاتة فهبطت عانتي مثل فتاة. التهمتْه بتلذُّذ مغمضةً عينيها، ثم همست لي: «لقد جعلك أثقل مما تحتمل!» وابتسمتْ كي تطمئنني. رفعتُ نظري للسقف فظهرت كرة مشعّة تلفّ حول نفسها، ألقت بقعًا حمراء على الجدران الكئيبة حولي. وصدحت في العنبر موسيقى صاخبة رتّلت سيمون على أنغامها بصوتها الرقيق مقطوعة ماما الأثيرة:

يوم ما عينيه ندهوا لي

آه ده أكيد سحروا لي

تاه قلبي اللولي

وراح عقلي في حبه

تمهلتْ معي حتى اعتاد جسمي حركات الرقصة. علمتني كما لم تفعل يوم عجزتُ عن المشي أو نطق الأشياء بأسمائها المضبوطة. سايرتها ودندنتُ معها: «تاه قلبي اللولي...». حفظتُ الحركات واستشعرتْ هي رغبتي كرجُل فتركتْ نفسها لي. طيّرتها في أنحاء العنبر لتألف نفسها كفراشة وليست شرموطة. لففتها حول نفسها لتتعلم الذاتية ولا تبني نفسها علينا مجددًا. طرحتها على ذراعي لتعرف أن جسدها خفيف كالفتيات. عرقلتها بكاحلي وانتشلتها كي تكفّ عن تديّنها الرخو وتلحد بأي شيء سواي. ومثل الأبطال البطريركيين في أفلام «مارڤل» اصطحبتها إلى السرير، ولم أتركها إلا لمّا نامت بين ذراعيّ. قبّلتها في حنو وهمستُ في أذنها:

«أعدك أن أنتقم لكِ!».

نظرتُ إلى رقم السرير. حفظته. ثم غادرتُ.

***

«وماذا سأفعل برقمه أيها الغبي، أحضره لي هو نفسه!».

كيف سأحضر هذا الضخم؟!

«تمام يا فندم، في طابور المساء».

«الآن! وليس في المساء. متى أنتهي من أمر ذلك الحمام؟ سيحل علينا في أي وقت البطريرك الأعظم كي يحضر حفل تخرجكم، وقد تمر لجنته على جميع العنابر قبل الزيارة، وعندها سيأخذونني أنا وأنت وذلك المُنحل ويسلّكون بنا الحمام».

وهنا كوّر يده وراح يحرك ذراعه المشعرة دائريًّا.

«أمرك يا فندم!».

أنا من جلبت كل هذا لنفسي. هل كان چيت لي على حق؟! لا لا، إياك أن تتخلى عن إرشاد أمك حتى إن قذفتْ بك إلى الهاوية. لقد وُلدت هناك أصلًا!

خرجت من الهنجر. كانت البطريركية في تخطيطها العمراني تشبه مدينة مزيفة كالمدن التي يتم بناؤها لتصوير المشاهد السينمائية. بحثت في شوارعها القليلة التي تبدو كمثيلتها الحقيقية بالخارج. في الحديقة، في المعصرة، الصالة الرياضية، المخبز. دخلت المسرح فوجدتهم يتدربون على مشهد لروميو وهو يضاجع صديقات چولييت واحدة تلو الأخرى أمام عينيها وهي تجهش بالبكاء. وفي نادي السينما لم أجد سوى القمامة وكراسي محطمة ورائحة مَنيّ نفاذة. كانوا يعرضون A Clockwork Orange وتزامن دخولي مع مشهد اقتحام الفتى الأهوج «أليكس» لشقة امرأة القطط، ومحاولته قتلها بتحفتها

التي زينت بها ديكور غرفتها، وكانت التحفة عبارة عن قضيب ممتد من الرأس حتى الخصيتين كأنه بجعة... لكن غريبة أنهم يعرضون أفلام «كوبريك» هنا، مع أنه لم يتورع مرة عن تطويع نصوصه لمهاجمة البطريركية!

أمام المطعم كانوا يقفون في صف طويل يحملون في أيديهم «السرافيز» المعدنية التي يعبئون فيها وجباتهم. مررت عليهم حتى نهاية الصف فلم أجده. في الكانتين كان هناك ازدحام كالعادة. والكانتين هنا له نفس التصميم المعماري للمطعم، لكنه مُزوّد بنافذتي بيع في أوله وآخره، والإقبال عليه أوسع؛ لأن الطعام الرسمي لم يكن يقدر على استطعامه سوى الذين أكلوا الزلط في حيواتهم الخاصة، أو غير المقتدرين على أسعار الكانتين. كانت أكوام القمامة في كل مكان داخله؛ على الأرض وفوق الموائد، يأكلون بالقرب منها غير مكترثين، وفي أي مكان آخر يجدونه متاحًا، سواء على النوافذ أو على الأرصفة المحيطة. وكانوا يتخلصون من ضجرهم بمطاردة كل قطة تختال أمامهم، فيطعمونها تارة ويعنفونها أخرى. وفي الحالتين كان سلوكهم مشحونًا بطاقة جنسية لا يمكن مواربتها.

شدّني صوت التليفزيون وهو الوحيد هنا فعدت لداخل الكانتين. كان يعرض حلقة تم تصويرها في استوديوهات البطريركية. رأيت المذيعة إياها جالسة تحاور طبيبًا هذه المرة. كانت معروفة بيننا باسم «ماما شرشر» لأنهم كانوا يوزعون علينا كل بضعة أيام صورًا لها في أوضاع فاجرة وملابس سباحة مثيرة، ولم تكن تهيّج أحدًا لأنها عجوز مثل البطاركة. لكن السبب الأكبر خلف شهرتها كان عضوها

الذكري الداكن الذي كانت تتباهى برفعه في كل صورها. وورد إلى مسامعنا أنها ليست المرأة الوحيدة التي تعمل لصالحهم، لكنها مَنْ حظيتْ بالظهور.

«مشاهدينا الكرام يا صباح الفل والسعادة والهنا... أهلًا ومرحبًا بكم ولقاء متجدد في برنامجكم المفضل؛ الخصية المثمرة المُقدم لكم من قِبل شبكة قنوات صوت الرجل. وننوه على حضراتكم أنها الشبكة الرسمية الوحيدة التي تمثل البطريركية...

والآن، إليكم البيان الذي اشترط مجمع البطاركة أن أتلوه عليكم قبل بدء حلقتي:

توصلت أبحاثنا إلى أن كل ذكر مُعرَّض بنسبة ٩٨,٩٪ للحصول على السمات الأنثوية الخاصة بشخصية والدته، مع تفاوت النسبة طبعًا من فحل لآخر، حيث تتحكم في عملية تحرر السمات من جسد الأم لابنها علاقتها ببعلها، ومدى طغيان شخصيتها، ومقارنتها بمدى قوة شخصية الأب، زد على ذلك البيئة المنزلية وعدد عناصر الإناث مقارنة بعدد الذكور في البيت...

تصمت وتشرد قليلًا ثم تحكي برِقّة: أتذكر صديقًا كان طريًّا لأن والده ظل بعيدًا عن البيت طوال الوقت بسبب طبيعة عمله، وما زاد الطين بلة أنه حوصر في منزل تسكنه ثلاث نساء؛ أمه وأخته وعمّته، وهو الآن متزوج من رجل وقد عقدا قرحهما في كنيسة ما بالخارج...

وفي النهاية تسرّع عملية التحول قابلية الفتى نفسه للامتصاص. واحذر أن يخدعك في أحدهم الشعر النابت

من صدره أو المتدلي من خصيتيه أو المدفون بين مؤخرته. إذ علاوة على أن الفتيات يحصلن على نفس الشعر في نفس الأماكن، ونسبة غير قليلة منهن تملك قضبانًا، فالبطريركية أثبتت أن كل هذه الصفات الرجولية السطحية لا تُعيق عملية الإشعاع الأمومي، التي أثبت العلماء أنها قادرة على الانتشار في مدى واسع، مثل تلك السحب الضخمة في صور ناجازاكي وهيروشيما. والأسوأ أنه وباء خبيث لا يلتزم بظاهرة الطفح الجلدي على جسم صاحبه.

وللتأكد من أنك غير مصاب عليك مراقبة نفسك في الحالات الآتية: عند الجوع أو الغضب أو الفرح غير المبرر، أو البكاء على أي مشهد تراچيدي سخيف، أو عند خوض نقاش حيوي حول موضوع تافه يمسّك، أو الشعور بالغيظ والكيد تجاه رجل مثلك... فيكفي أن ترتكب شيئًا من هذه الأشياء حتى يظهر لك وجهك الأنثوي، وربما أيضًا نبرة صوتك، التي هي في الأصل نبرة أمك.

وقد دأبت البطريركية منذ أول يوم لها على التصدي لهذه الظاهرة، التي في مقدرتها أن تنهش أساس مجتمعنا القويم، من خلال تنظيمها لبرنامج تأهيلي إجباري لجميع ذكور بلدنا. هذا لمصلحة أبنائنا أولًا ولمصلحة وطننا ثانيًا. مع العلم أن كل من يتخلّف عن موعد انضمامه المحدد سلفًا من قبل الإدارة، أو يصدر عنه داخل معسكراتنا أي سلوك جنسي غير سليم، يكون بذلك قد عرّض نفسه للمُساءلة وجزاؤها الإخصاء. أما جزاء المثلية المُثبَتة فهو الموت!».

إلى هنا انتهي البيان الرسمي الصادر عن جهة شئون صغارنا الفحول...

تدخل مقطوعة شهيرة لموتسارت مع لقطات تصور منشآت وإنجازات البطريركية. ثم إعلان عن رحلة إلى متحف الإيروتيكا الروسي لمشاهدة رفات قضيب الراهب «غريغوري راسبوتين» الذي من فرط علاقاته الجنسية أصر قاتلوه على قطع قضيبه وهو ميت. ثم إعلان آخر عن بدء فعاليات مسابقات قياس الأعضاء الذكرية اليابانية في طوكيو وناغويا.

والآن مع ضيفي العزيز في الاستوديو البروفيسور چ. ف أخصائي علم الإشعاع النسوي وأستاذ العلوم البطريركية، أهلًا بك ونعتذر لك عن تظليل وجهك حتى لا نفضح هويتك... هلا حدثتني من فضلك عن الإرشادات التي تقدمها في عيادتك للأولاد بشأن العادة السرية؟ هل هي حقًّا كما يروّج لها اليمينيون، تستنفد طاقة الفرد وتصيبه بالخمول وماء على الركبتين والعجز الجنسي المبكر وضعف البصر... إلى آخر هذه الترهات؟!

«مرحبًا بكِ وأشكرك على استضافتك لي اليوم في برنامجك المفضل لدى جمهور البطريركية... في الحقيقة أمارس عادة خبيثة كلما زارتني أُم ومعها صبي لم يشبّ بعد. آخذه خلف الستارة وأسأله كم مرة يستمني؟ وحينما يهز رأسه نافيًا أو يسألني ما هو الاستمناء أصلًا؟ أشرح له بواسطة ألبوم صور جمّعته من مجلات «بلاي بوي»، وعند مغادرته أمنحه فلاشة مجانية عليها مقاطع منتقاة من «الموقع الأزرق» إياه، وأتابعه بعدها عبر بريده الإلكتروني أو صندوق رسائله على فيسبوك.

والبعض حينما يصل لمرحلة معينة من النضج والتمكن، أزوده بأرقام هاتفية لبعض عميلاتي السريات (يغمز بعينه للمذيعة) حتى لا يضيع في ليمبو العادة السرية. واسمحي لي عزيزتي أن أوجه نداءً من منبرك لكل الأطباء السريين الذين يعملون بشكل خفي لصالح البطريركية كي يتحركوا في نفس الاتجاه، الأمر الذي يضمن تحقيق أجندتنا في وقت أقصر مما توقعناه...».

من بعيد لمحتُ أبي داخل الكانتين فهرعت نحوه. غمرتنا ضجة صاخبة وتصفيق عالٍ وصراخ، فانتصبوا كلهم بأجسادهم وتدافعوا حولي. استمر ذلك الهيجان حتى انتهى مشهد لقُبلة عادية من فيلم مغامرات «إنديانا چونز»، وبعدها فقط جلسوا وخمدوا. أما هو فكان قد اختفى. بحثت عند كبائن التليفون التي كانت مخصصة لنا كي نستخدمها بواسطة بطاقات ذات رصيد محدد. والتي كانت مُراقَبة من قبل حراس مخصصين بحيث لا تزيد مدة المكالمة عن دقيقتين ولا تتخللها أي كلمات عاطفية أو وصف للمكان، وطبعًا لا نهاتف بواسطتها أي امرأة. واصلت البحث في العنبر الذي ينام فيه بالدور الأرضي والعنبر الآخر في الدور العلوي. وبعد أن فرغت من الأخير وبينما أنزل السلم، اخترقت ببصري نافذة الدرج فرأيت أحدهم وكان في حجمه، جالسًا على الشاطئ وحده. كان وقت الغداء. ولم أكن أعرف أن أبي يميل للعزلة!

ظللت أقترب منه حتى تجلى لي من مكاني البعيد طيف بشرته السمراء، فتأكدت أنه هو. كان يقرأ! لم أكن أصدق هذا الأمر حتى الآن. ظننته يوم رفضَ إعطائي الكتاب يريد فقط

إغاظتي. وجدته جالسًا فوق أحجار الجير على الشاطئ غير عابئ بترابها الذي سيبيض مقعدته. كان ظهره محنيًّا ورأسه ملاصق لصفحة الكتاب كأنها صفحة بئر. ملامحه متماسكة وجسده ساكن. أشبه براهب له أسطورة مسيحية شهيرة تروي أنه قبل رهبنته كان لصًّا. جسده صلب وبشرته سوداء. شرِه فيما يخص معدته وقضيبه. قبيح لدرجة مخيفة أكثر من بطشه. لكنه حينما تاب غيّر الله فقط داخله ونسي هيئته على حالها. فصار نصف قديس نصف غُول!

رأيت العشب ينبت حول أبي على أرض الشاطئ. وحده «ريوشي ساكاموتوRyuichi Sakamoto» برأسه الذي يشبه الشرشوبة قادر أن يؤلف مقطوعة تليق ببابا في حالته هذه، سأبلغه تعازيك الحارة يا ساكاموتو!

استدعيت في قسوة جسد أمي العاري وهي تقفز وتقفز بمؤخرتها اللحيمة فوق عضو عشيقها. جميلة تلك السذاجة البيضاء التي تظن تحت غشاوتها أن أمك تخلو حياتها من أي عثرات. أو أن عهد المغامرات النسائية بدأ بعد أن أنجبتك مباشرة، وأنها لحسن حظك لم تواكب هذه الموضة. أتعجب كيف يستطيع صبيان البطريركية أن يجرّدوا خيالهم من أي صورة لأمهم مع رجل عرفته قبل والدهم أو بعده! هُم حتى لا يقدرون على تخيل أمهاتهم مع آبائهم لحظة تكوينهم. على أيّ حال أنا لا ألومها حينما تركته بكِرشه الكبير ولسانه البذيء ورائحة شرابه، وصوته وهو يتجشأ على المائدة، وصوت ضراطه، وصوت تبوله الحار في الهزيع الأخير من الليل، وخانته مع... مَنْ يتحمل هذا؟!

لكنه هو بذاته الآن في هيئته الضعيفة هذه، بعيدًا عن خلافاتهما، أثار تحنني. من يملك التحكم في هذا؟!

رأيته يعتمر قبعة بيضاء على شكل جرس ويمسك سنارة من البوص ويلبس شبشب زنوبة، تمامًا مثلما وصفته جدتي حينما كانت تحكي لي في السرير قصة اكتئابه قبل امتحان الثانوية، بسبب جارته التي حسدته وكانت تريده لابنتها. وبدلًا من أداء الامتحان، ذهب ليصطاد.

سألته: «ما الذي تفعله؟».

نهرني:

«لا تحدثني مثلهم!».

«وما الذي قالوه لك؟».

«قالوا إني فاشل ومريض. في صغري أصابتني حُمّى شديدة ذات مرة ونسيتني أمي، وهُم اليوم يُرجعون بلادتي لتلك الواقعة. كما أخبرني إخوتي أنها اعتادت في محافل العائلة، حتى سِنّ متأخرة من حياتي، أن تنيّمني على فخذها وتدعك لي فروة رأسي. سأطلق لحيتي وآتي كل يوم هنا بقُفتي كي أصطاد. سأعمل بأي وظيفة وضيعة ولو بائع في محل أقمشة يكسب ملاليم ويقابل أمك يومًا، التي تقدم لها صاحب صيدلية مهذب ثري، ومدير أحد فروع محلات «صادكو» للأجهزة المنزلية، وشمّاس من الذين تجمعهم صور مع البابا في الأعياد. لكنها في النهاية سترفض كل هؤلاء العظماء وتختارني أنا. عجيبة أليس كذلك؟ لكن هكذا تتصرف النساء! وستجني أنت وحدك عاقبة كونها ابنة لأب سُجن في قضية اختلاس بشركة الكهرباء،

وأنها توقعت إثر هذا الحدث المخزي أقل العرسان شعورًا بإنسانيتها... لقد عوملت بقسوة في بيتي فماذا انتظرت مني حينما صرت أبيك؟ هل توقعت الماكدونلز والكابري؟! حتى الرشاوى التي أتقاضاها لا تكفيكم، ولن تخرسها حتى أدخل السجن بسببها مثل أبيها. عليها أن تساعد في مصروف البيت مثلها مثل أي زوجة محترمة. وأنت عليك تجاوز طفولتك في أسرع وقت ممكن كي تصرف على نفسك وترعى إخوتك.

ما هي الطفولة؟ جاز يغطسوننا فيه ونحن صغار! صدقني ليتنا ما كنا أطفالًا. إنه داء شيطاني لا تبرح رائحته أجسامنا حتى نشيخ. سأُسدي إليك نصيحة؛ لا تتوقع أني سأمنحك حياة أسهل مما حظيتُ بها في طفولتي. ولماذا عليك أصلًا أن تحصل على ما فقدته أنا؟! سأكون ظالمًا تجاه نفسي، أليس كذلك؟ سأكون قاسيًا عليها إذا أحسنتُ إليك. ألا تتفق معي؟ طبعًا ستتفلسف وتسألني لماذا أنجبتك؟ اسألها هي! هي من أنجبتك. أنا أُلبّي نداء الطبيعة. أنا أروّض وحشي الذي بمقدوره أن يبتلعني، رغم أنه أصغر مني وثقبه أصغر من فمي. صدقني، لم أقصد بما فعلته ليلتها الإساءة إليك أو حتى إيقاظك من غفلتك السرمدية. هي من أرادتك، بل الأقذر إنها أرادت أي شيء، سواء أنت أو غيرك، أو حتى فتاة! أي لحم ينزلق من بين فخذيها كان كفيلًا بإرضائها وإشعارها بأنها ذات قيمة، وأنها مثل بقية صديقاتها، ومثل بقية قطط الشارع. أقسم لك بأمنا العذراء هذه حقيقتهن! جميعهن. هن يتزوجن منا، وستتزوج منك إحداهن يومًا، لا لشيء سوى هذا السبب. ونحن أيضًا كذلك سيدفع بنا إلى الهاوية وحشنا، سيبتلعنا رغم أنه أصغر منا!».

***

«يا فندم هذا هو الزميل الذي أخبرتك أنه شتمني...».

«حسنًا!».

«لكن بعد إذن حضرتك لقد... اعتذر لي... وأنا قبلت اعتذاره».

صمتُّ طويلًا هذه المرة:

«فلا أرى حضرتك داعي لعقابه».

أخذتُ نفسًا:

«صحيح أنه أهانني لذلك اشتكيت لك، لكن الأيام المتبقية لنا لا أحد يعرف عددها، ولا أحد يريد الأذى للآخر مهما كان ما صدر منه. فجميعنا ينتظره أهله وأصدقاؤه في الخارج. لذلك أطلب من حضرتك بعد إذنك طبعًا، أن يمر الموقف كما لم يقع...».

«انظرا! لديَّ حل سيعجب حضرتك، وحضرته، ستذهبان للحمّام وتفعلانها سويةً».

وكأنه أمرنا بالذهاب كي نخلد للنوم وجدتني أهز رأسي بخنوع:

«الشرف للذكورة!».

هرشت أسفلي وتجاوزت أبي مغادرًا مكتب القومندان.

أتى صوت المسخ الذي شوّه أسرتنا وشوّهني، من خلفي يؤنبني:

«سبق وأخبرونا في أول يوم أنه في حالة وقوع أي شجار علينا أن نتدبر أمرنا أولا دون شوشرة، وألا نلجأ لهم إلا إذا استفحل الأمر، لكنك كسرت القاعدة واشتكيتني، والآن أنت تتراجع مثل فتاة!».

فتاة! لقد كنت أضعف من أن أؤذيك حينما رأيتك على أحجار الجير عند الشاطئ. لم أخف منك، بل على العكس لقد كنت في موضع من القوة يخوِّلني أن أطيح بك. كنت سأقف على عتبة الحمام وأراقبك وأنت تسلّكه. لحظتها كنت سأتشفّى منك وأسترجع كل لحظة أهنتني فيها طوال حياتي وأهنتها فيها. كنت سأنسب لنفسي فخرًا كبيرًا كوني قادرًا على مناطحتك مثلما لم تفعل هي. وأني قادر على رميك في المصائب مثلما صببتَ أنت سائلك الكاوي في رحمها. أما الآن فكلانا مذنب بسبب غبائي، لا بسبب قوتك!

فتحت باب الحمّام المسدود فاندفع من الحفرة سرب من الذباب. تراجعت وتنحَّيتُ جانبًا ثم عاودت النظر فكان بعضه ما زال قابعًا في مكانه، منقضًّا على أصابع البراز الغليظة يقرضها في نهم. داهمتني رغبة في التقيؤ لكني كتمت أنفي وأشحت بوجهي. كانت هناك ماسورة متروكة تهدر مياهها على البلاط، فراحت جزمتي تخترق المياه في صوت مسموع كلما تحركت. عدت إليه وأنا أسعل من الرائحة، كان قد شمّر كُمَّي سترته وأحضر مسّاحة من المخزن. سألته:

«ماذا تفعل؟».

«انتظر، كل شيء سيُحل!».

قالها كأنه بالفعل معي، يشاركني مصيبتي. لكن هذا لا يلغي بعض الأنَفة التي حدثني بها كأنه سيتنازل ليفعلها، كأني المخطئ الأول والأخير هنا. لكن لا أخفيكم سرًّا، فنبرته على نذالتها ورغم كراهيتي له شخصيًّا، طمأنتني كثيرًا.

تخطاني وسار إلى الداخل كي يشتبك. حاول أولًا بالمسّاحة. كان يقلبها على طرفها مثل فأس ثم يهوي بها على عين الحمام، فلا يجني شيئًا سوى تلطُّخ الحائط بعصير الخراء. تسمّرت أول الأمر مكاني بسبب الرائحة والمشهد، لكني سريعًا ما تحركت نحوه وطلبت منه في ركاكة أن يُمهلني فرصة. سرت على خطاه. أمرني أن آخذ المسّاحة للخارج وأنظفها بالصابون السائل، وأن أغسل أرض الحمام حتى ينتهي هو. لماذا أشعر بالحرج من قولها... حتى ينتهي هو من الجزء الصعب!

إذًا، ستنجز المهمة وحدك، أهذا يعني أنك أبرّ من أمي؟ لا أعرف! غسلت الأرض وحينما مررت أمام الباب المفتوح، وجدته راكعًا وقد أقحم نصف ذراعه داخل العين. هالني المنظر لكني تظاهرت بالجدية وأكملت غسيل البلاط. بعد أن انتهى خرج لي بجبين مبتل بالعرق وبيد ملفوفة بكيس بني، مثل جرّاح مُنهك.

كان رجلًا بحق! أليس هذا تعبير ذكوري، لكن لا ضرر فنحن في البطريركية!

لقد أثبت لي أنه قضى طفولة صعبة حقًّا، مكّنته في حياته من فعل أي شيء تحت أي ظرف. كأن يغرز بكل بساطة يديه في غائط الآخرين. وربما لو أُمر بأن يشويه ويأكله، لم يكن ليتورع عن فعلها. هذا هو أبي. لا عن فخر بل حسد. ذكّرني بنجيب محفوظ في «الحرافيش» لمّا قال: الأشرار معلمون قساة وصادقون!

وهو يفرك يديه بالصابون، بينما أتأمل ملامحه في مرآة الحمام، قال بنبرة الحكماء:

«أتعرف، بإمكاني أن أتخيل حياتك الزوجية، ستكون زوجًا مثيرًا بحساسيته، حافل بالاضطرابات والقلق، ستكون خير مثال للشكّاء البكّاء، لن تتوقف عن تذمرك حتى تهجرك».

«حسنًا!».

قلتها له بطفولية بينما أهز كتفيّ غير مكترث:

«وأنا أيضًا بإمكاني أن أتنبأ لك بمصيرك؛ ستصير زوجًا مقيتًا بكرش، وسيكرهك أولادك ويسخرون من شخيرك. إليك النبأ الأعظم؛ ستصبح أفشل أب في هذه الحياة، لي!».

«وماذا تعرف أيضًا؟».

طلبها كأنه يرى مستقبله بصدق في عينيّ. أما أنا فأردت أن أرد له ضربته حينما نعتني بالزوج القلِق الحساس، كأنها نتيجة غير مسئول هو عنها!

«أعرف أيضًا أن زوجتك ستخونك... مع صديقك!».

فانتحى جانبًا، وتحت بطن الحوض جلس يبكي، مثلما بكيت تحت سريري يومها، حينما نعتني بها دون أن يفكر مرتين. ولم أكن أعرف معناها وقتها، ولم أملك الوعي الكافي كي أختار أن أكونها.

٧

«المرأة مثل البندقية؛ لا عليك سوى أن تنكزها في أسفلها!».

كانت البطريركية تتعامل مع الفنون، مثلما يتعامل قمادينها مع زوجاتهم في بيوتهم؛ مجرد ماكينات للاستيلاد والرضاعة.

صحيح أنها اعتبرت الفن في حد ذاته بلاء، لكن من يعلم؟ فالأمصال كانت يومًا سمومًا. ومن ثم، كانت البطريركية على استعداد أن تشتري مطابع تنشر كتبها، وتقيم محطة إذاعية تبث آخر بياناتها، وتجهّز استوديوهات بأحدث التقنيات تصوّر فيها برامجها. وقد وصل بهم التفاتهم لسلاح الميديا حد أنهم اشتروا طائرة لعبة مزودة في قاعدتها بكاميرا صغيرة يتم التحكم بها عن بُعد، كي يتمكنوا من توثيق فعالياتهم. كما تسربت لنا أخبار عن تمويل البطريركية عددًا من الاستوديوهات المستقلة غير الخاضعة لإدارتها، كي تنتج فيديوهات مثيرة لمغنيات هابطات يبحثن عن أماكن شاغرة في سينما الشباك، يصل عددها للألف فيديو سنويًّا، ويتم طرحها على قنوات اليوتيوب في فترات معينة، كي تُلهي رجال المجتمع وتُلهب خيالهم مع زوجاتهم في الفراش.

وبالرغم من أن البطاركة، نظرًا لاهتماماتهم العملية الجافة، لم يملكوا أي حس فني، إلا أنهم كانوا يعرفون، وفقًا لطبيعة عملهم، طرق غرز الرسالة، ومدى قوتها، ومن هو المُستهدَف الحقيقي منها. وربما عليك أن تقضي أربع سنوات في كلية الإعلام حتى تهضم نظريات مثل «الحقن تحت الجلد» و«المعلومة الطلقة»، في حين أن البطاركة كانوا يمارسون مثل هذه الأمور بالسليقة!

وفي ظل هذا التسابق البروباجندي المحموم، كان من الطبيعي ألا يسمح أي قومندان، صغيرًا كان أو كبيرًا، أن يُقال عن مجموعته مديح أضعف مما قيل عن الأخريات. والحق أن مثل هذه الأمور الظاهرية الهشة، اكتشفت في أيامي الأولى أنها تمثل ليس فقط ميكانِزم قيادة مجموعتنا، بل دينامية البطريركية بأكملها. وبالتالي لم تكن مسألة إحضار قومندان مجموعتنا لرسام مسيحي من مجموعة أخرى كي يرسم على جدران قطاعنا، بمسألة حساسة أو تستدعي أي تفكير، بل خطوة مفروغ منها. وتعمدت ذكر «مسيحي» لأنها هنا لم تكن ديانة، بل شيء مميز أكثر، كأن نعتبرها حلقة في السلسلة الغذائية، فنقول على سبيل المثال: البطريركية بها بشر وقطط وأقباط.

فما إن يُعرف عنك أنك مسيحي، إلا وتتوافد عليك الأسئلة السخيفة ذاتها: «هل تصومون؟ مستحيل، كذب! كم مرة؟ صوم عن الأشياء التي بلا روح، صح؟ هل تأكلون العسل وقتها، كيف؟ لكن النحلة بها روح! صوم أي كلام! هل تتوضأون قبلها؟ كيف لا؟ تصلون متسخين؟! تعيشون هكذا؟!».

«لماذا تتزوجون واحدة فقط؟ هل صحيح أن القسيس هو من يفتح العروس ليلة الدخلة؟ لماذا لم يتحدث الإنجيل عن القرآن مثلما تحدث الأخير عنه؟».

أتريد إجابة فعلًا؟ لا أظنها ستُريحك: وهل تحدثت التوراة عن الإنجيل مثلًا كي يتحدث الإنجيل عن القرآن؟ كل كتاب تحدث عما سبقه، لكن كيف يذكر كتاب تشريعًا لم يأت؟ بل وأن يفصّل مواده التي لم تُعرف بعد؟! كيف يشير نص إلى آخر سيحلّ مكانه وينقضه؟! مثل ملك يستقبل بحفاوة وريثه غير الشرعي! وللعلم، لم يكن الالتحاق بالنصوص القديمة سوى انتزاع لثقة الناس في هذا الدين الجديد.

«سأخبرك بشيء لم تعرفه بعد يا محمد هتلر، المسيحية بالفعل اعترفت بالإسلام!».

قال چيت لي.

«صحيح؟! كيف؟!».

«النبي محمد ﷺ ذُكر في الإنجيل، هل كنت تعرف هذا؟».

«لا، حقيقةً!».

«في العهد القديم، في السفر إياه نشيد الأنشاد».

«تمزح حتمًا!».

«سأقول لك، هكذا سمعتها في محاضرة للعالم الهندي الجليل الشيخ «ذاكر نايك»: في اللغة العبرية، أليست هي العبرية التي كتبوا بها كتابهم؟ لست متأكدًا والله! المهم في لغتهم يستخدمون المقطع «يم» للتفخيم والتعظيم، مثل

الله يجعلونها «إلوهيم» وهكذا كلمة محمد ذُكرت في نشيد الأنشاد «محمديم»».

هل يعني هذا يا چيت لي أن على المسلمين أن يكفوا أخيرًا عن سلخ هذا السفر، وأن يؤمنوا بفيا جرا الكتاب المقدس؟

***

الرسام المسيحي كان يدعى مكسيم. قد يبدو لبعضكم أنه اسم فتاة لكني استكمالًا لتوضيح بعض النقاط التي لم تكن تحتاج في الأصل لشرح، أؤكد لكم أنه ولد، بل إنه اسم لا نطلقه في طائفتنا على غير الذكور. أول ما رأيته لم يكن قد اعتلى السلم الخشبي بعد. لماذا التفتُّ لتفصيلة السلم؟ ربما لأن مكسيم في مخيلتي لن تفارقه أبدًا وضعيته فوقه، مثل مارجرجس فوق حصانه.

كانت نظراته مُستكينة، لم ينطق بكلمة واحدة عن موهبته أو عما هو بصدد إنجازه على جدراننا. كل هذا أوحى لي بأنه سيصنع فارقًا فعلًا، إذ جلب القومندان اثنين ثرثارين قبله وطردهما. كان مكسيم يضع في أذنيه قطعتين من القطن لم أعرف سببهما. سُترته نظيفة كأنه لم يزحف ولم يرقد منذ حضر إلى هنا. حذاؤه الرياضي أيضًا ناصع البياض كأنه يعيش في عُليّة يجلبونه منها متى احتاجوه، ثم يعود إليها. ملأ زجاجات بلاستيكية كان قد شطرها بسكّينه، بألوانه السائلة، واعتلى السلم في رزانة حتى وصل للمستوى المناسب من الحائط. بادئ الأمر لم يلفت نظر أحد بما يفعله بسبب صمته. لكن ما إن بدأت الرسمة تظهر ملامحها شيئًا فشيئًا، حتى جعل الصبيان يتوافدون برؤوس مرتفعة وأعين مندهشة.

غافلين لأول مرة في حياتهم ربما عن نوعية ديانته، مأخوذين بالألوان والملامح التي نثرها مثل بستاني على حائطهم. كانت الرسومات هنا جميعها ذكورية جافة سئمنا تكرارها. لكن مكسيم رسم شيئًا آخر، لا أعتقد أنه سيتكرر مرة أخرى في البطريركية.

رسم ما يأتي في خانة أكثر تفردًا من حلقة المسيحيين في سلسلة المخلوقات هنا. لا لشيء سوى أن المسيحيين يوجد منهم عدد ولو ضئيل. أما المرأة فلا يوجد منها واحدة حقيقية، غير التي رسمها مكسيم للتو!

كانت عروس بحر تنتصب بقامتها كأنها تتحدانا، أو تنتظر شخصًا بعينه من وسطنا. واجهتنا بعينين نصف مغمضتين. ووضعت إصبعها أمام فمها المدوّر كأنها تحذرنا: «هووووس!».

وأسفلها كتب بفرشاته:

«أنا سمكة، لكن لديّ فتحة!».

كانت مجرد رسمة على الحائط، لكنها بدت حقيقية أكثر من المرأة التي كانت تطل علينا من التليفزيون والصور المطبوعة بقضيبها الداكن.

ومثلما كانت الجموع تتوافد حول يسوعه كي يطعمهم، تجمّع الرفاق حول مكسيم مَسُوقين بسطوة رسمته. كانوا يروون اهتياجهم بالضحك والتعليق على تلك الفاتنة بعينيها الشهوانيتين ونحرها المكسو بماء البحر، وحمالة صدرها المزهرة وزعنفتها المزركشة. وطبعًا لم يفت نبي مثله أن ينسى أثر الماء على مواضعه.

كانت موهبة مكسيم تتضاءل جواره. ربما بسبب أسلوبه وهو يتلقف تلك الموجة من النظرات والتأوهات الذكورية؛ يتوقف عن التلوين. يرفع فرشاته عن الحائط. يهز ذقنه في حركة رأسية كأنه يراجع شيئًا. يخفض رأسه نحوهم بدرجة صغيرة تبدو محسوبة أو صادرة عن دُمية. يسدد لهم نظرة حانية يحثهم بها على تقدير ما يهبهم إياه من وقت. ثم يفرّ مثل زرادشت لوحدته.

لم يغضب القومندان كما توقعنا من رسمته، خاصة مع حماس غير معتاد اشتعل في أداء الرفاق؛ فصاروا يصطفون في كل مرة تدوي فيها صافرة الطابور مُسرعين، موجهين أعينهم للحائط الذي تطل عليهم منه نهلة (كما أسموها). وكان يُخيل لكل منهم أنها ترمقه هو. هكذا شاء مكسيم لرسمته. ثم يرددون أغنيتهم بشراسة كتائب الحروب:

لاعبيني وألاعبك
لأكسر صوابعك

أشحت بوجهي خجلًا لما رأيته. ترددتُ في انتقاء الطريقة المُثلى بيننا بعد واقعة الحمام. لقد بكى حينما أخبرته بخيانة ماما له مع صديقه، لكنه نهض بعدها من على أرضية الحمام مثل محارب جريح وذهب ليخبر القومندان أننا أنجزنا العقاب سويةً. كما قلت من قبل؛ كان يعرف مع مَنْ معركته الأساسية، كنت أنا وإخوتي مجرد رياح متحركة في ساحة تلك الملحمة. لم أشكره لأنه سلّكه وحده، ولم يبد أنه انتظر هذا. كم أزعجني هذا التبدُّل في شخصيته! لقد انتظر الشكر دومًا؛ أقله هذا ما ألفته منه في ليالي الأعياد

وهو يخرج من محفظته ورقة الخمسة جنيهات كأنها مائة. لا أستبعد أن تكون البطريركية غيّرته كثيرًا، لأن الرجال الحقيقيين لا يشكرون ولا ينتظرون الثناء! هل أريد أن أصبح مثلهم؟ كان عليّ أن أذهب له وألا أخجل من امتناني. لا من أجله بل من أجلي! لكن ربما أبي هو الشخص الذي أخشى عاقبة صداقته أكثر من معاداته... كل هذه التفاصيل لا تهم أمام تمكني أخيرًا من النوم مستريحًا بعد كلمة «مدلدل». خاصة أني لم أعد أشعر بنِصال الألواح الخشبية وهي تخترق ظهري.

***

المجنون! دون أن يدري، بفعلته الحنونة يومها في الحمام آذاني وأعادني مرة أخرى لكنفها. ولو كانت تُهمة مادية لوشيت به. كان الأصلح أن يتخلى عني. ربما لا زال يتذكر ماما مثلي، لكنها تصيبه بشعور مختلف؛ إنه يخافها!

لقد كذبتْ علينا وجعلته بُعبُعًا في أعيننا. وآذانا إدراكنا لمّا عرفنا متأخرين أنها هي مَنْ ارتمتْ تحت حوافره لاستراتيچية مقصودة. ربما لو سألتُ نهلة لأخبرتني. ألوانها حقيقية جدًّا ومستحيل أن تكذب مثلهن! لست متيقنًا من شيء! تصنَّعتُ النظر لزهرة ذقن الباشا ممسكًا بها في يدي، مستمعًا لحديث چيت لي بجانبي وهو يحكي كيف تصنع أمه عسل النحل. ثم أفهمني الفرق بين قطفة البرسيم وقطفة الورد. وأن عسل البرسيم في رأيه ألذ. ثم انتهى من النحلة وانتقل للبلبل؛ فشرح ليلة الدخلة عندهم، وأنهم ليسوا كأهل الصعيد الذين يترقبون ليلتها أسفل الشُّرفة حتى يخرج لهم العريس بالملاءة وهي ملطخة بالدم. بل يتأخر توقيت

تلك اللحظة الحاسمة في بلدة چيت لي حتى يوم الصباحية. وفقط الأم تكون المخوَّلة برؤية الفوطة. وحكى لي أن البنت التي ترتدي البنطلون ليست محترمة. ووصف الفطير البلدي بأنك تعرفه من شيء يميزه؛ ترى السمن يقطر منه مثل لا مؤاخذة الدُّوش. وأنهم يزرعون كل شيء في قطعة أرض تحيط بالمنزل؛ صفان للطماطم واثنان للخيار وبقية الأشياء حسب احتياجك. والكركديه يزرعونه ويشربونه وهو لا يزال يحتفظ بلونه الأخضر، فيكون تركيزه مضاعفًا.

«إذًا أنتم في بلدتكم لا تحتاجون للذهاب للسوق أو السوبر ماركت؟».

ابتسم:

«إلى حد كبير نعم!».

«وإذا أراد أحد أن يفتتح محلًا عندكم فماذا يبيع؟».

«أعتقد الإلكترونيات لأننا لا نستطيع زراعتها!».

٨

«من منكم حافظ للقرآن؟».

غاب الصوت المُزلزِل وساد صمت في العنبر، فعاد الشيخ ڤولتو يصرخ مجددًا:

«يا أولاد الزواني أليس بينكم مسلم واحد موحد بالله حافظ للقرآن؟!».

ثم انطلقت همهمة في العنبر تستقبل أحدهم بنبرة استغاثة بدا معها كأنه المهدي المُنتظَر: «شيخ شاهين... شيخ شاهين!» ثم صوت آخر يستعطفه: «تصرف معه ودعنا ننام... أو أقول لك، لقد أفقدنا أي رغبة في النوم، كما أنه ستنطلق عن قريب صافرة الاستيقاظ، لننزل جميعنا معكما للصلاة».

الشيخ شاهين أو المهدي المنتظر. لا أعتقد أني سأنساه بعدما أخرج من هنا، لأني سأقابل كثيرين من نوعيته خارج البطريركية. فبعض الشخصيات التي نقابلها في حياتنا تكون مثل «إستيك» خشبية تمكننا من الكشف عن اتجاهات أناس آخرين، نقابلهم في مواقف مختلفة، نعرفهم من قبل حتى أن نأمرهم بفتح أفواههم عن آخرها. أنا على سبيل المثال اعتدت في حياتي حينما أصطدم بأي إنسان، رجلًا كان أو امرأة، يمثل مصدر سلطة، أن أقرنه رغمًا عني بأبي.

حينما كنت فعلًا أتعرض لنموذج يحاكيه من بعيد أو قريب، كنت أتساءل؛ هل هو أخطر منه؟ ذلك الذي أوشك مرات عديدة أن يقتل أمي وجدّتي. وفي الأغلب كانت تأتيني الإجابة من داخلي بـــ «لا». والحقيقة أني كنت أستمد قوة لا يستهان بها من هذه المقارنة البسيطة. كانت كافية على الأقل أن تدفعني ذات مرة للاعتداء على أستاذتي بالجامعة، لأني شتمت قبلها زميلتي، حينما حاولتْ التسخيف من وجهة نظري بخصوص نقطة مفصلية في مشروع التخرج، وكادوا أن يحوّلوني على إثر تلك الواقعة للتحقيق وبالتالي تعطيلي فصلًا دراسيًّا كاملًا. ومرة في طفولتي رفضتُ أن أقبّل يد قسيس في حفل الكنيسة، لأنه زعق لي قبلها بأيام قليلة على مرأى ومسمع من المُصلّين، حينما قطعتُ التيار الكهربائي عليهم أثناء القداس دون قصد. أذكر كيف أمسكوا برأسي وراحوا يلصقونها غصبًا عني بيده السمينة البيضاء كي يقبل اعتذاري، الذي لم أقدمه بعد. وكان الشعب حولي يتعجب من سر الكراهية التي يحملها ملاك صغير لمُسنّ قديس. والإجابة أني كنت أرى جميع أعدائي يسيرون على أربع ويحملون رأس أبي!

***

وكعادة معظم النوابغ لم يملك المهدي أي ميزة شكلية أو جسمانية. بل على العكس كان وجهه يبدو وكأنه من الفصيلة القردية؛ ممصوص من عند الذقن، أسمر، له أسنان غير مستوية صفراء، وعلى جبهته ثلاث زبيبات تشكّل مثلثًا. ريفي، أزهري التعليم تخرج في كلية الشريعة والقانون بتقدير عال وترتيب مرموق على الدفعة. له إنجازات مثل أنه ختم القرآن (وقد وعدوه بأن يكافئه البطريرك الأعظم على هذا). كما كتب عدة قصائد عن مواضيع جادة مثل الأم والصداقة والنبي محمد، ونالت معظمها جوائز، وأحيانًا مجرد مراتب، بشهادة دكاترة من كليات الآداب وإعلام ودار العلوم، والأخيرة بالذات تمكن من أساتذتها بمواضيع عن الانتفاضة الفلسطينية وعودة الخلافة الإسلامية. وبالتالي كل هذه المؤهلات كانت كافية أن تضفي عليه هالة غرائبية وسط بقية الزملاء العاديين هنا، الذين يمكن أن ندمج إنجازاتهم جميعًا في ضرب العشرة.

وبالنسبة لهم تجاوز الأمر الاهتمام الذي كانوا يمنحونه للشيخ ڤولتو، لأن مع الأول كان الوصف الأدق هو الرعاية، أما مع المهدي فكان الإجلال والتعظيم هما الطريقتان المُتّبعتان. حتى إنهم كانوا يرجونه دومًا أن يدعو لهم بانتهاء هذه الفترة على خير، بشرط أن يرجعوا فيها لربهم ولذكورتهم أولًا، وأن يدعو لأمهاتهم وأخواتهم كي يشملهن الله بالحفظ والستر طوال فترة غيابهم عن البيت. وكثيرًا ما كان يدعوه أحدهم ليمد يده قبله في طعامه كي يباركه، أو يطلب مشورته في مشكلة عاطفية مع فتاة تركها وحيدة تنتظره خارج

أسـوار البطريركيـة.

اتفقـوا جميعهـم عـلى أنـه ذكـر فـذ، رمـز جيـد للشـاب المسـلم. أمـا بابـا فـكان يـراه كذابًـا ومُدعيًـا. وسـمعته مـرة يقـول لأحدهـم: «لقـد علمتـني الحيـاة ألا أثـق بمـن يبـدون كاملـين». أظنـه يغـار مـن المهـدي بسـبب شـعبيته. لكـن بخـلاف بابـا، كان بقيـة الأقبـاط اعتـادوا التـودد للخليفـة الجديـد بالابتسـامات والتصافـح وإلقـاء التحيـة، متعلمـين الـدرس مـن الشـيخ ڤولتـو.

أشـيع أن ڤولتـو حصـل أخيـرًا عـلى شـهادة الإعفـاء بتصريـح طـبي مـن المستشـفى البطريـركي. لكنـه حـتى في نهايـة عهـده بالمـكان لـم يلـتزم بميثـاق دوناتيلـو؛ فقبـل أن يرحـل بيـوم وكان أكـثر اهتياجًـا في تلـك المـرة مـن المـرات السـابقة، خبـط عـلى بـاب غرفـة القومنـدان في وقـت مبكـر جـدًّا كي ينهـض ويـؤدي الصـلاة معـه؛ ظـل يصفـع البـاب بكفـه العنيفـة بينمـا يرغـي ويزبـد ويناديـه بصخـب وبـلا خـوف، ناعتًـا إيـاه بالكفـر والانحـلال، حـتى خـرج لـه القومنـدان الريفـي بالكلسـون وفي يـده خرطـوم مبتـور اسـتخدمه كخرزانـة. كان يعـرف بحكـم خبرتـه وعـدد الذكـور المهـول الذيـن خصاهـم، أن مـن يقـدم عـلى تحدّيـه بهـذه الطريقـة حتمًـا فقـد عقلـه لدرجـة تُعفيـه مـن عواقـب سـلوكه. لكنـه كمحاولـة منـه للحفـاظ عـلى هيبتـه وصورتـه أمامنـا، طـلّ بهيئتـه المضحكـة هـذه علينـا وراح يزعـق متسـائلًا عمَّـن أيقظـه، كأنـه لا يعلـم فعـلًا.

قلّـب القومنـدان نظـره في الحشـد أمامـه فتفرقـوا مـن تلقـاء نفسـهم. شـقّ الشـيخ ڤولتـو بوجهـه المنحـوت تكتـل الزمـلاء وأصبـح في صدارتهـم. كلّمـه القومنـدان بصـوت عـال مـن مكانـه

فبدا وكأنه يعزز مكانته ببعده هذا وعلو صوته، أو ربما كان خائفًا مثلنا:

«أنت من أيقظتني؟».

«نعم!».

«لماذا؟».

«كي تصلي معي!».

«احضر هنا عندي!».

قالها وهو يشوّح بقطعة الخرطوم.

«اسمي محمود علاء الدين!».

وكانت هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها اسم الشيخ ڤولتو.

«قلت... احضر عندي!».

«اسمي محمود علاء الدين!».

«أتكلمني أنا بهذه الطريقة يا عرص؟!».

«اسمي محمود علاء الدين يا حضرة!».

تزعزع القومندان من موضعه. سار نحوه في خطوات تتزايد سرعتها. قبض على ياقته واصطحبه لغرفته. أغلق عليهما الباب ولم نسمع لهما حِسًّا.

بعدها بأيام أتى ڤولتو من البوابة بملابس لا نرتديها هنا ونظارة «فريم ليس» وشعر مبتل لامع. كان بصحبة والده. أكلا سندوتشات فول وطعمية في الكانتين. رمق الأب صفوفنا أكثر من مرة مثل أُم تمر بعينيها على صاحبات ابنتها وهن

يرتدين فساتين الزفاف، لتجد ابنتها في نهاية الصف على كرسي متحرك. لم يخفِ تأففه من انتسابه لهذا الشاب الذي خنق جنونه ذكورته. والذي لن يحضر حفل تخرجه وهم يعرّونه من سرواله ويتوّجون رأس قضيبه بإكليل الغار. أنهيا بعض الأوراق عندي في المكتب، وأردت عدة مرات أثناء تواجدهما أن أهوي بيدي على وجه أبيه، كأنه أبي. هذه أول مرة لي أتضامن فيها مع ڤولتو. سلّم واقيه الذي يحمل اسمه، ورحل تاركًا كرسي الخلافة، دون أي فتن أو انتخاب، للمهدي.

***

كان المهدي يمسك بمبضعه وقفازيه عند تعامله مع الأقباط، مُتَّبعًا نفس منهج الشيوخ الوسطيين والرجال البرلمانيين من حيث الالتزام بما هو قليل ومبهر في آن. فلا بأس من إلقاء تحية الصباح: «السلام عليكم» على زميل زميل باسمه وقت الاستحمام الجماعي وحلاقة الذقن. ومن ممازحتهم أحيانًا؛ فيدعوهم في مواقيت الصلاة قائلًا: «مش هتتوضى يا مينا؟». ولو هناك عيد بشرط أن تتوافق حبكته مع قصص القرآن، فلا ضرر أن يعيّد عليهم. وكان في أوقات كثيرة يفضّ مشاكلهم مع زملائهم المسلمين أو مع القمادين. حيث لوحظ أن الأقباط هنا يشعرون دومًا بأنهم مثار اضطهاد وأن أسماءهم في حد ذاتها تهمة. ولعل المهدي كان في احتياج شديد أن يفهم كيف يعامل المسيحيون أنفسهم بالأساس، إذ كانوا يسيرون من تلقاء ذاتهم على نهج البطريركية: «اجعل من خصيتيك قُرْطين لأذنيك!».

وكانت علامات ساعة المهدي تتجلّى وقت الفجر في الظلام،

حينما يجتمع الصبيان كلهم خلفه في الحوْش كي يؤمهم. والحق أن صوته كان يتنافى تمامًا مع وجهه. كان يشبه أصوات الشيوخ المُرتلين الذين كانت تُسجل لهم شرائط الكاسيت. كان مميزًا فعلًا فلا هو بالرفيع المضحك ولا الجهوري الغاضب. كان يبدو وكأنه مطرب من مطربي التخت ذوي الطرابيش. ربما لا يكون رائعًا بالنسبة لمقاييس الموضة، لكنه بلا شك كان مناسبًا للحالة التي تبتغي الأناشيد الدينية أن ترشقك فيها. كان واثقًا من أنه يترك أثره لديهم. يشعر بكل كلمة في أعماقه قبل أن يتلوها. لدرجة تزج بك للاشتراك في هذا الماراثون الروحي، حتى وإن كنت لا تؤمن به!

رأيت ربي بعين قلبي

فقلت: لا شك أنت، أنت

فليس للأين منك أين

وليس أين بحيث أنت

أنت الذي حُزْتَ كل أين

فحيث لا أين ثم أنت

وليس للوهم منك وهم

فيعلم الوهم أين أنت

وحزت حد الدنو حتى

لم يعلم الأين أين أنت

***

في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي

بحثت عنه في شوارع المدينة

صادفني الحراس فسألتهم: هل رأيتم حبيبي؟

فضربوني وجرحوني

وما إن تجاوزتهم حتى وجدته

فأمسكته ولم أُفلته

يا بنات أورشليم أستحلفكن بالغزلان وبالأيائل

ألا توقظن الحب حتى أستعد له!

ومثلما يذكر سفر الخروج أنه «أتى فرعون جديد لم يكن يعرف يوسف...» هكذا أيضًا أتى في ليلة ما قومندان جديد لا يعرفنا ولا نعرفه. والأهم أنه لم يكن يعرف المهدي. كان من المقرر أن يستلمنا من ظهر الخميس إلى باكر السبت، لأن قومندان مجموعتنا سينزل بلدته ليعمل واحد مع زوجته. إلا أنه في هذين اليومين انقلبت الأوضاع بشكل أجبرهم على فضح طريقة تحكمهم بنا، كأنهم يملونها علينا كي نكتبها وراءهم في كراسة. كانت البداية منذرة بالسوء؛ فما إن دخل فرعون الفناء ورأى منظر الصبيان وهم يتحاورون بصوت عال ويضحكون غافلين عن وقفته، حتى نادى بعلو صوته قائلًا:

«يا مُهزأين... ارقدوا!».

نزلنا ببطوننا على الأرض. علاوة على أن هذا الوضع كان يشعرني بأني نملة، كان يرهق عينيّ، وكنت أشعر بالحَوَل بسبب طول فترة تحديقي في الأرض من هذه المسافة التي لا تزيد عن إصبع. وكنت عادة أخلع نظارتي وأضعها أمامي

كي لا تصطدم عدساتها بالزلط. حتى كاد أحدهم أن يدهسها أثناء عبوره أمامي.

وفي واقعة أخرى تأخرنا دقائق أثناء نزولنا من العنبر وقت الغداء، فما كان منه إلا أن أمرنا بوضع الضفدعة؛ أن نقطعها قفزًا حتى المطعم. ولأنه أراد أن يضاعف من العقاب جعلنا في قفزنا نحمل سرافيز الطعام المعدنية فوق رؤوسنا. كان المشهد مُهينًا لدرجة جعلتني أتوقف عدة مرات في الطريق وأفكر جديًّا أن أنهض وأخبره بأنه لم تعد لي رغبة في الطعام، إن كان على هذه الطريقة السادية. لكني خشيت عاقبة هذه الثورة الفردية!

وكان كل هذا سهل أن يمر لأي فرد وسط أربعمائة. لكن حينما طالت يداه رقبة خليفتنا الجديد، اتخذت الأمور منحى آخر.

في المساء بعد انتهاء التمارين أضيئت الكشافات وصدحت صافرة الراحة وأنزلوا العلم المرسوم عليه شعار البطريركية، وهو عبارة عن قضيب له عين سحرية وجناحان. وجّه دوناتيلو الذي كان ينظم الطوابير أكثر من ملاحظة لمُنحلّين في صفوفنا، وكان هذا في عُرفهم إهانة مُوجهة بشكل شخصي لقومندان المجموعة التي لوحظت، وليس لأفرادها. ففوجئنا بالجميع يغادرون الساحة بينما نحن لا نبرح مكاننا. وبمجرد أن صرنا بمفردنا مع فرعون أمرنا بالرقد ثم الزحف. مع العلم أن الزحف هنا من شروطه ضم اليدين خلف الظهر، والانطلاق في حركة مثيلة لحركة أول كائن شرير عرفته البشرية.

أمرنا بالجري في اتجاهات كان يخبرنا بها فقط في لحظتها. كان يغّير وجهتنا بسرعة فائقة لا تترك لنا متسعًا كي نوحّد صفوفنا،

فرأيت الرفاق يرتطمون ببعضهم ويُطرحون على الأرض. ثم شعر بتباطؤنا فأخذنا إلى الشاطئ. ظللنا نجري هناك على ضوء القمر الذي أضاء الرمل. جرينا بينما التراب يصعد لأنوفنا وأعيننا. سقط مِنّا مَنْ سقط دون أن يلتفت أحد. رأيت بابا ينزل على ركبتيه ويمسك صدره بكفه فاغر الفم. لكني لم أملك الشجاعة الكافية كي أتحرك نحوه، فلعنتُ نفسي ولعنته ولعنت البطريركية، ولعنته ثانية لأنه أنجبني. وسألت نفسي هل كانت لتراوده نفس الشفقة تجاهي لو رآني أنا مَنْ أسقط؟ رقدنا وزحفنا سواء كان حظنا فوق الرمال أو الصخر. وكان الجميع يسعلون ويلهثون بينما فرعون واقف في الوسط فوق مكعب ضخم من الصخر، منتصبًا بقامته العالية ونظرته المتماسكة، ونحن حول كعبيه نطوف.

أخيرًا انطلقت آهة عرفنا على الفور صاحبها، بسبب صوته الذي لم يكن الزملاء ليخطئوا أبدًا في تمييزه حتى لو سمعوه على الهاتف بعد سنوات من مغادرتهم هذه المستعمرة:

«كفى، لسنا يهودًا!».

«توقفوا!».

صرخ فرعون فتوقفنا جميعًا وسقط البعض مغشيًّا عليهم بينما سعل البقية.

صَمْت. صوت الموج يهدر خلفنا.

قفز فرعون من فوق المكعب فأصدر بجزمته الغليظة عفرة، رأيت ذرّاتها أسفل عمود الإنارة الذي كان يضيء هذه البقعة من الساحل.

«أي رجل فيكم، نام في حضن أسد ليلة أمس، نطقها لتوه؟».

رفع المهدي يده دون تردد:

«أنا!».

«تعالي يا حبيبتي!».

مشى المهدي وسطنا دون عجلة حتى صار رأسه في محاذاة صدر فرعون.

«بعد إذن سعادتك...».

«امنع الكلام! ثم ما «سعادتك» هذه؟ أنت في البطريركية فالتزم بألفاظها!».

«وأنت ناديتني بحبيبتك ولا أظن أن البطريركية تساندك في هذا».

«طيب يا قطة!».

قلّب المهدي نظره في الواقفين مستشعرًا حرجًا كبيرًا:

«وهذه أيضا ليست في القاموس!».

هنا تحجّرت عينا فرعون وشعر بأن الموقف لن يمر كما يمر عادة مع صبيان البطريركية، الذين في الأغلب لا يفقهون حرفًا في دستورها، لأن أغلبهم لا يستطيعون القراءة والكتابة.

فكر فرعون في نفسه قائلًا: أتريد أن نتعامل بشكل رسمي؟ حسنًا ليكن، أنا الفائز في نهاية المطاف، وبالطريقة التي تحددها أنت. ما لا تعرفونه أيها المغفلون أن البطريركية تسمح لي بخزوقتكم جميعًا، وبطريقة مقننة!

«ماذا تريد يا لولب؟».

نادى المهدي، فأحدثت الجملة رعشة في أبدانهم، كأنهم شُتموا كلهم في نفس اللحظة. وأنا على يقين من أنه لم يكن ليساورهم هذا الشعور، لو أنهم فعلًا شُتموا جميعهم. وكانت هذه اللفظة فعلًا مُصرحًا بها وينضم إليها: (مخنث، متني، طري، شذّ، علق).

«لا أريد إلا الاحترام!».

كان المهدي يتحدث بمنتهى اللباقة والهدوء، لكن مع الحفاظ على درجة من الصوت العالي بحيث يسمعها الجميع. سأله فرعون:

«هل مسست شرفك؟».

«لا».

«هل طلبت منك مليمًا؟».

«لا».

«هل قلت لك تعال أنيكك؟».

«بعد إذنك أمتنع عن الرد طالما لم يكن بصيغة مهذبة!».

شخر فرعون مثل فرس النهر ورفع يده كي يمدها على الشيخ، ثم تذكر أن قانون البطريركية لا يسمح له فأنزلها حالًا وتحرك عوضًا عن رد فعله الخائب بيننا ليعبر عن غضبه بأي طريقة:

«شكلكم هتدوّروها، إياكم تكونوا فاكرينه بمؤهله العالي هيعلمني الأدب والاحترام، الاحترام أعرفه لكم كويس لو متعلمتهوش في بيوتكم».

ثم تدارك أو هكذا أظن، فقال:

«فيكم ناس متربية أحسن تربية وبنعرفهم من غير ما يتكلموا، سيماهم في وجوههم، وعن نفسي مستعد أحطهم بجزمهم فوق دماغي، لكن تشغّل دماغك عليّ، أحط جزمتي في بُقك وملكش عندي غير شرفك وفلوسك!».

«أنا متظلم منك وأطلب أن تدفع بي لمكتب البطريرك!».

«شعري شاب في هذه المهنة كي تأتي أنت وتُملي عليّ ما يتوجب فعله!».

«وما المشكلة؟ هذا من حقي!».

«وما الذي تود إبلاغه له يا ترى؟».

كان صوت فرعون قد خفت وبدا لنا جميعًا أنه يتراجع بطريقة الهجوم المطاطي.

«سأخبره بأنك نقضت في تعاملك معي قوانين البطريركية».

«وماذا تعرف أنت يا ابن امبارح عن قانون البطريركية، لو تريد أن نتكلم في الأصول لا يحق لك التظلم للبطريرك مباشرة، يجب أن آخذك أولًا لمن هو أعلى مني درجة، حتى لا تتجاوز مناصِبَ ورُتَبًا نالها أصحابها قبل أن تولد أنت!».

«أنسيت حضرتك أنك تحدث خريج شريعة وقانون؟!».

«شريعة وقانون برّه مش هنا!».

«ومُطّلع على قوانينكم أيضًا، مادة...».

«امنع الكلام، لسنا في مجلس شورى. اسمعني، أنت من

خرقت اللائحة من البداية وتحدثت بطريقة لا تناسبك كمجرد فرد هنا، وطالما تريد أن تتظلم سأحقق لك أمنيتك، وسأجعلك عبرة يا صاحب الشريعة!».

ثم وهو يضغط على الحروف:

«وكله بقانون البطريركية!».

ثم وهو يرفع بصره ناحيتهم:

«ألم تسمعوه وهو يتحدث بطريقة غير لائقة؟».

«أبدًا أبدًا ماحصلش!».

خرجت أصواتهم مثل جوقة، لو تدربوا على البدء سويةً لمرات ومرات ما كانت البروفة النهائية لتخرج منهم بهذا الشكل الممتاز!

«الله الله... تجمهر! وعلى يدك أنت يا شيخ!».

«لماذا تحدثه هكذا، إنه شيخنا وخاتم قرآننا!».

كان الموقف ملتهبًا لدرجة لم تمهل فرعون كي يبحث عمَّن قالها، انبرى دون تفكير مهاجمًا:

«أعرف أنه خاتم للقرآن وأتمنى لو أكون مثله... لكنه يحفظه لنفسه، وليس لي!».

***

في وقت متأخر من نفس الليلة أتى القومندان الفعلي لمجموعتنا. جاء من بلدته كي يلحق بهذه الأزمة التي أحدثها زميله قبل أن تتفاقم. كان كاريزماتيكيًا جدًّا رغم قصره، يتسم

بالخبث الريفي والحذق البطريركي؛ حتى إنه مرة توارى وسلّط علينا قومندانًا غيره ليعاقبنا بطريقة «ضفادع على الشاطئ»، ثم ظهر لا نعلم من أين وسمح لنا بالنوم، فاغتبط الرجال بمجيئه وتهامسوا في أسرّتهم مثل فتيات عن شهامته. وفي الصباح التالي سمعنا أنه هو الذي خطط مِن البداية لتلك الواقعة.

ملامحه حادة يشبه عصام الحضري، له من العضلات في شتى مناطق جسمه ما يجعل كل بِدل البطريركية تليق عليه بشكل لفت نظر الزملاء وأثار تهكمهم. وكانوا جميعهم دون استثناء المنحرفين منهم يهابونه ويتهامسون باسمه خوفًا، كأنه بابا أتى للمنزل! إذ كان دائم التأكيد على نقطة بعينها طوال الوقت؛ وهي أن صورة مجموعتنا وأداءها مرتبطين بصورته هو شخصيًّا، وبالتالي أسرار مجموعتنا لها نفس حُرمة أسرار بيوتنا، ومن ثم لن يسمّي على واحد منا إذا آذينا صورته بسلوكنا، فيعود ويستشهد في كل مرة بالمثل إياه الشهير: «أدعي على ابني وأكره اللي يقول آمين».

والحق أنه لم يستغل مرةً خوفنا منه ضدنا؛ في أول يوم لنا فقط استقبلنا على الشاطئ وجعلنا نزحف ونجري، فتمزق حذائي الرياضي وأحدثت أوراق الشجيرات بأطرافها المدببة ثقوبًا في البلوفر الذي كنت أرتديه بعد أن تعفر بالرمل. لكن اتضح لي فيما بعد أن فعلته هذه لم تكن سوى عصا معلّقة في المطبخ. باختصار كان يتّبع معنا تكتيك العصا والجزرة.

حينما أتى لنجدتنا من فرعون انفرد أولًا به ثم خرج كلاهما من الغرفة وقد مر على موعد نومنا وقت طويل. كنا المجموعة

الوحيدة المستيقظة في هذا الوقت. ظلا صامتين، يقلّب كل منهما نظره فينا دون أن يواجها بعضهما. انتظرنا حتى ينطق الحضري لأننا كنا متأكدين لمن سيكون انحيازه:

«الجمعة القادمة ستكون هناك زيارة، اتصلوا بأهاليكم وأخبروهم!».

علت ضجة وارتفعت صيحات الحمد وعانقوا بعضهم بعضًا.

«ممنوع الأكل والتليفونات أُمر «قامرا». ولو خطيبتك والا مراتك جيالك قول لها والنبي تاخد بالها من لبسها، الرجالة هنا ماشافتش ستات بقالها مدة وبضانها لزقت في بعضها!».

خطيبتك! داهمتني الكلمة كأنهم يعايرونني بها. حسدت زملائي لأنهم يخوضون ارتباطات هوجاء مع فتيات منحرفات، ولا يكترثون لأي تفصيلة حساسة من التفاصيل التي أعتبرها في العلاقات حدثًا جللًا. أعترف أني سأغار عليها لو أتت هنا. تخيلتها عارية بينما الحضري بعضلاته البارزة يضاجعها. أظنه على السرير سيكون أرجل مني. تخيلتهم جميعًا عُراة يلتفون حولها بقضبان لها تيجان حمراء كي تباركها لهم بينما أنا مترفِّع عن الأمر. كانوا حينما يشتمون ويسبّون في العنابر أتذكرها حينما كانت تهمس لي بنفس الألفاظ الوقحة في مضجعنا. هل تشبههم؟ سألتها يومًا كيف عرفتْ هذه اللغة وهي من بيت وعيلة وكنيسة؟! قالت أن الشارع كفيل بتعليمنا كل شيء. عليّ أن أنفض عني هذه الفتاة مثلما سأنفض ذكريات هذا المكان بمجرد أن أغادره... هل سأتخلى عنها فعلًا؟ لو فعلتها سأكون بمفردي، وأنا لا أخاف الوحوش لكني أمقت العزلة. عرفت هذا عن نفسي جيدًا هنا. وما أقبح أن تكون حديث

العهـد بنفسـك!

ابتهـج الأولاد بخـبر الزيـارة، واسـتأذن الحـضري بنفسـه المهـدي كي يُسـمعنا قصيـدة مـن قصائـده. فخـرج وألقـى واحـدة مُلحَّنـة عـن الأم، وكانـت روحهـا مقتبسـة مـن مواضيـع التعبيـر الـتي كنـا نكتبهـا في الابتـدائي. وقـد بـدا مـن كلمـات الشـيخ أنـه لا يعـرف عـن أمـه وأمهـات الـ٣٩٩ ذكـر الآخريـن في مجموعتنـا، سـوى أنهـن كتيبـة مـن المحاربـات الأمازونيـات العفيفـات. ثـم شـعر الحـضري بـأن القصيـدة لـم تـزد الليلـة سـوى كآبـة، فأخـرج سـيكا والبـاز أفنـدي وأمرهمـا بـأن ينشـدا خلفـه:

الواد زعبولا

عمل إيه؟!

كسر القلة

وأنا أعمل إيه؟!

ثـم أتيحـت فرصـة المشـاركة لـكل مـن يـروم اسـتعراض مواهبـه، فرقـص البـاز أفنـدي وسـيكا معًـا لأول مـرة بشـكل علـني، بينمـا غـنى رفيـق في الخلفيـة بحـزن:

ولازم تعرفي إني

لا أنا عفريت ولا جِنّي

بحبك بس إيدي أقصر كتير مني!

كان هـذا طبعًـا خرقًـا للوائـح البطريركيـة. لكـن كل مـا جـرى وبترتيـب مُحكَـم، كان في سـبيل أن ينـسى الصبيـان مـا وقـع مـع شـيخهم.

***

قبل الزيارة بليلة صعدت للعنبر لأحضر شيئًا من دولابي فسمعت أحدهم يناديني. تعجبت إذ لم أخالط الكثيرين هنا، ومن عرفوني كانوا لا ينطقون الاسم صحيحًا فيقولون: «مينا، ملاك، مايكل...» وحينما اعترضتُ مرة لاعتزازي باسمي جاءني الرد بأننا جميعنا واحد في أعينهم. وبناء على هذا كان من المنطقي أن يسألني أحدهم ذات مرة أين يسكن «ساويرس»؟

وجدت من ناداني يمد يده لي بهاتف أسود ضئيل:

«ألا تريد أن تخبر الجماعة بأمر الزيارة غدًا؟».

لطالما عانيت طوال فترتي هنا كي أتغلب على اشتهائي لها، كي تأتي أنت في النهاية وتقدم لي هذه التفاحة:

«لقد أخبرتهم بالفعل، ثم إنك أولى بكل دقيقة فهو هاتفك!».

«إن كنت أخبرتهم فعلًا فلا ضرر أن تؤكد عليهم وتطمئن على أحوالهم. نحن هنا منذ زمن يا رفيق!».

أنزلت بصري ليده.

أردف:

«وهذا ليس هاتفي، فهو هاتف القومندان وأمر بأن يمر على كلّ واحد منّا».

ثم هامسًا:

«هذا ممنوع طبعًا لكنه يحاول أن يجعلنا ننسى الليلة إياها».

نظرت مرة أخيرة ليده.

انفتح الخط على الجانب الآخر فأتاني صوتها. بادئ الأمر لم أنتبه لشيء سوى أنه مجرد صوت. حينما تقضي كل هذه المدة بدون هاتف، لا يتسع لك شيء سوى أن تنتبه للصوت أكثر من هوية المتكلم. كأنك تريد التأكيد لنفسك أنك بالفعل تكلم أحدهم، وأن هناك على الجانب الآخر من يستمع الآن لصوت أنفاسك. اعتصرتني خيبة أمل لمّا وخزني صوتها الحاني. كان مُحمّلًا بإغراء كل النساء كأنهن جميعًا انحشرن في فمها.

«ألو!».

«ألو... من معي؟!».

انعقد لساني. تذكرت أغنيتنا المفضلة.

يا ترى ناسي

جلبك جاسي

إنت أساسي

استنى شوي

صار لك ساعة

ع السماعة

شو عم تحكي

فهمني شوي شوي

بالكاد لملمتُ صوتي:

«ألا تعرفينني؟».

«معذرة؟».

تُرى أي أفاعيل ارتكبتها طوال فترة غيابي طالما لديها القدرة أن تنسى صوتي.

«أنا مُعجب».

«ومن أين أتيت برقمي؟!».

لم تنزعج أو تقفل الخط مثل بنات الناس المحترمات. أخرستني الصدمة وابتلعت ريقي. نعم كان لدي تخيُّل مُلِحٌّ طوال علاقتنا يصورها لي عاهرةً. لكن تخيلي ذلك لم يكن سوى حيلة دفاعية تجاه شيء ليس بمقدوري أن أتحمله لو صار حقيقيًّا... ربما السبب غيابي، أو صوتي الذي لم تسمح علاقتنا القصيرة لها أن تألفه، أو ربما حالتي النفسية المنهارة بفعل احتجازي هنا هي التي جعلت صوتي الآن غريبًا. لِمَ كل هذا التبرير؟ ألم ترغبها عاهرة؟ ها هي عندك!

***

كان المكان المُعَد للزيارة قاعة كبيرة لها جدران مستديرة تُشبه ماسورة عملاقة مكونة من طابقين. وحرصًا من الإدارة على عدم استثارة مشاعر الصبيان، وعدم حدوث تلامس جسدي بينهم وبين حريمهم، قد ينقل متلازمة الحنان المفرطة الخبيثة ولو بطريقة غير مقصودة، نص بروتوكول الزيارة أن يدخل الأهالي في الطابق السفلي، بينما نحن في الأعلى نراقبهم من خلف زجاج لا يروننا من خلاله ولا ينقل أصوات أي جانب للآخر. ومنعًا لحدوث ازدحام في قاعة المراقبة حظروا علينا دخولها وأمرونا بالبقاء في العنبر، ومنْ يسمع اسمه فقط هو منْ كان يتوجب عليه أن يذهب ليقف خلف الجدار الزجاجي.

كانت النداءات تتساقط علينا من مكبرات الصوت المتهالكة، فيركض الرجال متلهفين لإلقاء نظرة مثل عيال أطلقوهم من المدرسة.

أما أنا فكنت أعرف أن أحدًا لا ينتظرني، وأن اسمي لن يُنادَى. فقبل يومين اشتريت «كارت» وذهبت لماكينة التليفون. يوجد أربع ماكينات معلقة بالحائط يشرف عليها الحراس ويراقبون خطوطها. امتدت أمامها طوابير بطول الساحل. وقفت في دوري. ضربت رقم أخي. رن. رن. لم يرد. التفتُّ خلفي. لا أعتقد أنهم سيسمحون لي بوقت أطول من هذا. جربت مرة ثانية. نفس الشيء. الفتى الذي يقف خلفي بدأ يتأفف. أمرني أن أفسح له مكانًا. رجوته بنبرة متهدِّجة. وافق على مضض. لا أحد يرد. قذفت الحائط بالسماعة فكادت أن تنكسر. شتموني وحاول أحدهم ضربي. لوّحت بيدي وخبطتها أسفله بعشوائية. تصدوا له. التقطتُّ واقيه من على سترته وهددته أن أمضغه. توسطوا بيننا وتفاوضوا على ترك الواقي من أجل مستقبله. هربت ناحية البحر ورميته في بقعة ملحوظة حتى يرونها. سمعتهم من بعيد ينعتونني بالممسوس. وجدت أبي في مكانه جالسًا يصطاد. جلست بجانبه.

***

جريت نحو القاعة وخدعتهم متظاهرًا بأني سمعت اسمي. لم أكن أملك أي مشاعر لأحد أو حنينًا تجاه نفسي حتى. كنت فضوليًّا فقط. صحيح أن أحدًا لا ينتظرني بالحب والطعام، لكن كيف في المرة التي يُسمح لي فيها أخيرًا أن أطّلع على أناس مثل الذين يجولون في الشوارع بالخارج، أرفض؟! لم

أكن رأيت امرأة منذ أيام الجامعة، كما أني بدأت أقلق على نفسي خاصة أني سمعت الزملاء يقولون أكثر من مرة أن البطريركية تتعمد استخدام زيت الخروع في الطعام، مثلما تمتنع المدن الجامعية للفتيات عن وضع أصابع الخيار في صحون الوجبات.

كانت قاعة الاستقبال تشبه صالات الانتظار في البنوك والمستشفيات. أعمدة ضخمة وبورسلين ناعم وحوائط بيضاء وشاشات تعرض إنجازات البطريركية خارج مجال تحسين الجنس الذكوري.

تعذَّر عليّ أن أجد مكانًا وسط هذا العدد الضخم فحشرت نفسي بينهم. كانوا يقفون على الكراسي ويُلصقون جباههم بالحاجز الزجاجي ويمسحون من حين لآخر زفيرهم ويدقون بأياديهم ويصرخون بسذاجة كأنهم مسموعين. راقبت الأهالي من أعلى مثلما كان يراقبنا البطاركة من مكاتبهم. بدوا متأزمين داخل هذا الأنبوب الزجاجي رغم أنهم سيخرجون بعد ساعتين على الأكثر من هنا. وكانوا قد جلبوا معهم مشويات وسندوتشات وفاكهة وبيتزا وزجاجات مشبّرة مملوءة بمياه غازية وعصائر. ورأيت ورقًا بلون الألومنيوم يُزاح من فوق صاجات اصطفت بداخلها مربعات رقاق باللحمة، وصواني متخمة عن آخرها بقطع البوفتيك والفراخ بانيه، وطواجن فخارية بها أرز وبسلة ولحمة. الأُسر مع تفاوت مستوياتها اهتمت جميعها أن تجلب أغلى وأشهى ما يمكن إحضاره لرجُلها. وقد نبههم الحراس إلى وجوب وضع تيكيت بالاسم على الأكياس حتى تصل لصاحبها بعد الزيارة.

كانت هيئة الأم لا تختلف كثيرًا عما ارتدته بقية النساء؛ عباءة وحجاب وصندل. أما الابنة فكانت إلى جانبها في بنطلون استرتش أسود نتئت منه تعرجات سمانتيها ووركيها، وكانت ترتدي هي الأخرى صندلًا. أحب الصنادل لأنها تُظهر أصابع القدمين. كانت قد خلعته وأسندت قدميها على مصطبة أمامها في وضع قريب إلى الفرشخة. أصابعها دقيقة. النوع المفضل لي. مدهونة بالمانيكير. كانت تحملق في هاتفها غير مكترثة بما حولها كأنها لا تعي ما تمارسه بأصابعها عليّ. لندعني أنا جانبًا، أراهن أن مئة ولد غيري يزاحمونني النظر الآن. لطالما حيرتني تلك المسألة في هذا الجنس؛ يدّعين أن إغوائهن -الذي ظنناه نحن الحيوانيون شرًّا- لم يكن منهن سوى محض تلقائية! فليضعون التلقائية في مهابلهن!

لأن الأم تلد بالخطية، فلا سبيل لابنتها كي تُعتق من لعنتها. كانت الأولى تجلس بعباءتها السوداء اللامعة التي انتفخت بتكويرة مهيبة عند الصدر وضاقت عند الكتفين وكشفت عن قدمين بضَّتين. واحزروا ماذا أيضًا؟! كانت هي الأخرى مفرشخة ساقيها مثل ابنتها. أود أن أقترح شيئًا ما في هذا السياق كي تضعه البطريركية في إطار برنامجها الإصلاحي. على كل شاب قبل التقدم لفتاة يريد الزواج منها كي يضاجعها، أن يفعلها أولًا مع الأم من باب الاطمئنان. بنسبة قليلة لا يجب إهمالها لا يفوق أداء البنت في السرير منْ أنجبتها. بل يتقارب معه حد التطابق. ربما في عدد الصرخات التي تطلقها كل منهما حينما تصل، أو نوعية الوضعيات المسموح بها، أو ألوان وأشكال وتصاميم الملابس الداخلية وقمصان النوم، أو

عـدد مـرات الإنـزال، أو مواضـع الإيـلاج المشروعـة.

أعتقـد أني في وضـع أُحسـد عليـه كـوني الفـتى الـذي لـم يتذكـره أحـد. الآن عرفـت لمـاذا كان يسـتمتع أبي بعزلتـه في غرفتـه، بينمـا نملـك نحـن حـق المـرح في أرجـاء الشـقة بأكملهـا. عـدت لعنبرنـا بمفـردي. دخلـت الحمـام مسرعًـا قبـل أن تفلـت تلـك التفاصيـل الـتي جاهـدت في تخزينهـا. اخـترت الكابينة الـتي اسـتطعت تمييزهـا دومًـا مـن ترباسـها السـليم. أخرجتـه. كان متورمًـا كأنـه تعـرض للسـعات متوحشـة. رأسـه أحمـر وفمـه يتسـع ويضيـق. ابتهجـت. لـم يصـل لهـذا المسـتوى مـن قبـل هنـا. لمسـته فوجدتـه دافئًـا. دلّكتـه بشـكل محمـوم. لـم أسـتغرق وقتًـا طويـلًا. صعـب أن أحـدد، عـلى أيٍّ منهمـا قذفـتُ.

خبـط أحدهـم عـلى البـاب فلـم أرد. حدّثـني مـن مكانـه خارجًـا: «أعـرف أنـك هنـا، ألـم أقـل لـك أنـه قـادر عـلى ابتلاعنـا!». حينئـذ سـمعت صيـاح الديـك. لـم تكـن حسـاباتي في محلهـا، العنابـر ليسـت خاليـة بشـكل تـام، زميـل آخـر معـي في المجموعـة أغفلـه أهلـه مثلمـا أغفلـوني. أخفضـت بـصري فرأيـت أناملي عـلى نفـس العصـا الـتي أزهرتـني وقتلتهـا. نظـرتُ إلى لبـني الـذي قذفتـه في كفـي وتقـززت، لا مـن إفـرازات لـذتي، بـل لاقـتران المشـهد بصوتـه. تذكرتـه في نفـس الموقـف حينمـا كان يقـف مـكاني هنـا يخونهـا. وقتهـا عايرتـه بأنـه يخـون بينمـا أنـا أحـب.

لـم تكـن علّـتي الحقيقيـة الـتي ورثتهـا عنـه في جُبـني، وإنمـا في شراهـة عضـوي!

غير أني لم أقلده هو لمّا خنتُ. بل قلدتها هي.

***

مساء يوم الزيارة جمعنا الحضري. ظللنا واقفين في صمت لمدة مُقلقة وهو لا يفعل شيئًا سوى أن يوقّع على بعض الدفاتر التي يحضرها له الباز أفندي، ويرشف بصوت عال من الشاي الكشري الذي صنعه له سيكا. انتهى من الأوراق وجلس يشرب على مهل بينما نحن لا نزال واقفين في البرد. وحينما نطق أخيرًا اتهمنا بأننا خنّا العهد الذي وضعه معنا في أول يوم. وسألنا إن كان أحدنا مُرر له اليوم هاتف وسط الحقائب. فلم يسمع إجابة. أخبرنا بأنه سيمهلنا عشر دقائق فقط قبل أن يضايقنا.

«الإنسان أصله جبان!».

قالها ثم أمر المهدي أن يحضر. ومن وسط الصفوف انبثق الشيخ برأسه القردي وهرول إلى القومندان.

«مارس دورك الذي تمليه عليك البطريركية!».

كأنه أفلت يده من على زنبلك خلفيّ، انطلق الشيخ يحوم حولنا. أشار بإصبعه لبعض الزملاء فخرجوا من صفوفهم. أمرهم أن يقفوا بمحاذاة بعضهم. طلب من أحدهم إخراج هاتفه وزجر آخر كي لا يدخّن سجائره في العنبر مرة أخرى... همس أحدهم: «كسمك يا شيخ» وعاتبه رفيق بصوت سمعه الكل: «لماذا يا شيخ تنتوي أذيتنا؟!». لكن الحضري لم يترك مجموعته لتسود بها بلبلة، فأخبرنا دون مقدمات أن المهدي صار الإمام والحكمدار. وتفعيلًا لصلاحياته ألقى علينا الشيخ المُبرقَع حالًا أول خطبة/بيان له:

«أيها الرفاق! قد وُلّيت عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنت

فأعينـوني وإن أسـأت فقوّمـوني... صدقـوني، كل مـا تفعلـه البطريركيـة هـو في صالحنـا تمامًـا، حـتى لـو لـم نتبـين ذلـك إلا بعـد رحيلنـا. ولا أخفيكـم سرًّا، حينمـا عرضـوا عليّ هذه المسئولية الكبـيرة رفضتهـا بـادئ الأمـر، لأني لسـت بأفضـل منكـم في شيء كمـا سـبق وقلـت، لكـن المنزلـة لا تتخلـى عـن صاحبهـا أبـدًا، مهما تواضـع هـو ونـزل عنهـا. والله عـز وجـل يقـول في كتابـه الحكيـم: وقـل اعملـوا فسـيرى الله عملكـم ورسـوله والمؤمنـون!».

وكأنه انتشلهم بآيته من جُب حيرتهم رددوا خلفه:

«صدق الله العظيم!».

«وأنتـم يا إخوة جميعكم مؤمنون وموحّدون، أليس كذلك؟».

وكأنه سؤال جدّي لحقه أحدهم مؤيدًا:

«لا إلـه إلا الله! طبعًـا يـا شـيخ شـاهين، وإحنـا نـلاقي أصلـح منـك فـين؟ إيـه لازمـة التليفـون؟ مـا احنـا مرتاحـين وبنـاكل وشـفنا أهلنـا خـلاص، وأي حـد يسـتجري ويـشرب سـيجارة في العنـبر مـا يسـتحقش نخـاف عليـه، لأنـه ممكـن يولـع فينـا ويموتنـا!».

رأيـت لأول مـرة الحـضري يبتسـم دون أن يوجّـه عينيـه لأحـد منـا بينمـا أحـاط المهـدي بيـده. وبـدا الرفـاق قنوعـين بمـا آل إليـه وضعهـم، وصـارت مشـاكلهم مـن بعـد تلـك الليلـة تُـدار مـن قِبـل الحكمـدار الثيوقراطـي الجديـد، قبـل أن تصـل للقومنـدان.

هـل بابـا فعـلًا صاحـب مقولـة: «يجـب ألا نثق أبـدًا بمـن يظهرون كاملين»؟

٩

يـوم جمعـة. بـدت مسـتعمرة الذكـورة وكأنهـا انقلبـت لديـر راهبـات.

فجـأة دوَّت صافـرات الإنـذار فهـرول الـكل وتركـوا مـا يفعلونـه. وتشـفّى الصبيـان وهـم يـرون القماديـن يجـرون بجانبهـم لأول مـرة، لا يقلّـون عنهـم فزعًـا. لا أحـد يعـرف السـبب، لكنـه يبـدو خطـيرًا طالمـا أن شـخصًا في منصـب وسِـنّ دوناتيلـو العجـوز كان يجـري بجانـب الصبيـان وقـد اسـتحال مـن سـلحفاة لفيـل مترهـل يـكاد يدهسـهم بجانبـه أثنـاء عَـدوِه... قالـوا: أحدهـم أتى لزيارتنـا، لكـن مـن الـذي تنقلـب المؤسسـة لأجلـه بهـذا الشـكل؟ فـرّ المعظـم إمـا مـن المسـجد أو الصالـة الرياضيـة. خرجـوا بملابـس مثنيـة أكمامهـا وبالصنـادل والشباشـب وأحذيـة الرياضـة الـتي كانـت تُعـرف هنـا بالـ «كوتـش».

الصافرات لا تزال تصدح بينما رُفع علم البطريركية. جرينا أنا وچيت لي إلى الساحة، هناك حيث انتصب ألفا رجل لا يرمشون. شعرت بچيت لي يلكزني في كتفي. حركت عينيّ قليلًا ورأيته يشير برأسه هناك. كان الموكب يقطع الطريق التي تحيطنا من الخلف، مكونًا من أربع سيارات؛ الأولى چيب مكشوفة، الثانية دوبل كابينة مؤخرتها مُغطّاة بمشمَّع أسود، الثالثة مرتفعة عن الأرض لها إطارات ضخمة وسقف عالٍ كعربات القادة والرؤساء، والرابعة مثل الأولى. تحت سارية العلم توقف الموكب وسمعنا من مكاننا البعيد فرملة المكابح. ترجَّل من السيارات الأولى والثانية والرابعة الحرّاس. ثم لحظات وانفتح الباب الأمامي للسيارة الرئيسية فنزل منها رجل له عضلات وشنب ثقيل يرتدي صدرية بلا أكمام وتظارة شمسية، وخلفه ظهر زعيم متأنق تبدو عليه الفخامة. خيم الصمت، لا لسبب سوى أن القمادين أنفسهم وقفوا في خشوع، الأمر الذي أوحى للرفاق بهول ما يقع حتى لو لم يفهموه.

إنه نيافة الحَبر المبجل؛ البطريرك الأعظم!

«قف ياض انت وهو بلا حركة!».

صرخ دوناتيلو.

حتى الذين ألفتهم دومًا مشاغبين في عنبرنا التزموا الصمت وسارعوا في تقويم سلوك بعضهم بعضًا. تسلَّم البطريرك الميكروفون:

«صباح الخير!».

لم نكن سمعنا هذه الجملة منذ أتينا لهذا المكان، فلا أحد هنا كان يستخدم مثل هذه التراكيب المرهفة من قبيل: «كيف حالك؟!».

تقدم البطريرك خطوتين وقلّب نظره في الحشود التي تطوّق الفناء:

«سمعت أنكم تبلون بلاء حسنًا، وعكس هذا لا ننتظر من رجالنا المستقبليين. أعرف ما تمرّون به هنا، لكن تذكروا كمّ النساء اللاتي ينتظرنكم في الخارج بفروج مفتوحة مثل سلال بيض سريع الفساد...».

«ابن الهرمة كان موعد مجيئه المتفق عليه الأسبوع القادم!».

سمعتُ الحضري خلفي يوشوش زميله.

«أنتم جميعًا أبنائي، وأنا لا أدّعي هذا... أنتم حماة جنسنا. بل حماة المجتمع من الانحلال الأخلاقي. لقد صرنا نرى بأعيننا الآن الشواذ جنسيًّا وهم يخرجون إلى الشوارع يتظاهرون علانيةً رافعين أعلام قوس قزح يطالبون بحقوقهم. أي حق هذا الذي يطالب به شخص غير سوي؟! وربما سمعتم عن تلك الفرقة التي تدعى «بوي باند» وعن مخططها لتكوين مشروع يحتضن كل الشواذ، ينووون إطلاقه قريبًا تحت مسمى «مشروع ليلى». لكن الحمد لله، لقد رصدتهم أجهزتنا اليقظة، ولن يفلتوا منّا هؤلاء الخونة. سنحرقهم، وسنحرق أعلامهم وعائلاتهم، وإذا تطلب الأمر سنمحو بين ليلة وضحاها أسماءهم من قوائم ذكور المجتمع، كأنهم لم يولدوا. سنقول لهم ما قلناه لـ «داڤيد كاتو» في ٢٠١١ هو وأتباعه:

«علقوا مشانقكم!». لن تأخذنا بهم شفقة مثلما لم يشفقوا على أبنائنا. إذا أرادوا الخراب سنجلبه على رؤوسهم، لكن أن يلعبوا في أساس الطبيعة فهذا ما لن يسمح به ربنا، ولن أسمح به قبل أن أموت أولًا...».

ارتفع التصفيق وغطى على كلامه، فتبينت منه:

«...اسكن أنت وزوجك الجنة... الكلام واضح!».

ثم عاد الهدوء للساحة.

«تعرفون أن للبطريركية أعداء كثيرين، ولن أحصرهم لكم لصعوبة عدِّهم. لكنهم معروفون بطبيعة الحال. إنهم يريدون التغلغل في كل مؤسسة، لكن مؤسستنا لا زالت نقية وستظل! أتعرفون لماذا؟ لأننا منذ بداية عهدنا لا نحاسب المُجرِم أو نحايله، بل بترًا نبتره. وهذا ما جعلنا أقوياء على مر العصور، فنحن على استعداد أن نخصي أنفسنا أولًا إذا ارتأى لنا أننا لسنا بالمسئولين الأكفاء لمناصبنا...».

تحرَّكت الرؤوس حولي نحو اليمين. استطلعت بعينيّ فلاحظت الصفوف جهة البحر تبعثرت. كان أحدهم سقط مغشيًّا عليه. حمله زميلان وبينما هما يخرجان به من الساحة صاح البطريرك:

«ما الذي جرى له؟ ألا تتحملون الوقوف في الشمس ساعة على بعضها بينما أتحدث عن الأعداء الذين في كل مكان حولنا... أجروا له تحليل مخدرات حالًا وإذا ظهرت نتيجته إيجابية ستكون وقعة أمه سوداء!».

«أين توقفنا؟ صدقوني إذا لم نجتمع كلنا اليوم حول إرادة

البطريركية، إذا لم نسلّم برؤيتها، ستؤول أحوالنا إلى ما آلت إليه بقية المؤسسات التي نراها تتهاوى على مرأى ومسمَع من العالم كله. والتي اعترفتْ بنفسها أنها اتبعت منظومة خاطئة في البناء والإصلاح. فإياكم أن تنسوا دور هذا المكان الذي أخرج رجالًا جعلوا من كل بيت ومن كل أسرة، بطريركية صغيرة.

لقد كنا حريصين دومًا على تحقيق مصلحة الشعب، حتى الفوضى جعلناها منظَّمة وخططنا لها بحيث تكون في صالحكم. هم يسخرون منا كل يوم على صفحاتهم الإلكترونية ومنابرهم الإعلامية. فليأكلوا أنفسهم؛ لأننا نبني ونصنع ونزرع وندجّن ونسفّر أهاليكم لأداء الحج والعمرة. والأهم من كل ذلك أننا نصنع رجالًا للزمن الذي لا نعرف بما سيأتي علينا. باختصار نحن مؤسسة مثل بقية مؤسسات الدولة، مع فارق أننا لا نطلب أي مقابل تجاه ما نبذله باسم النخوة والشعب».

هتف القمادين ونحن خلفهم:

«باسم النخوة والشعب!».

«باسم النخوة والشعب!».

تفاجأت بأبي يجلس في الصف الذي يتقدمني مباشرةً. ينظر للبطريرك مشدوهًا بكلامه. وكأن مراقبتي له شوَّشتْ على حالة التواصل التي يجريها في جلسته المقرفصة هذه. استدار وابتسم لي. هل يعني هذا أننا صرنا أصدقاء؟ هل بسبب واقعة الحمام؟ أقصد واقعتيْ الحمام؛ حينما سلّكناه سويةً،

ولمّا قلدته وقذفتهم على فتاة غير حبيبتي؟ لكن أي واقعة منهما كسرت الجليد يا ترى؟ لِمَ التساؤل؟! نحن مربوطان ببعضنا من قبل مجيئنا هنا!

«وكما لا يفرّق المجتمع بين أقباطه ومسلميه، كنا نحن بالمثل حريصين ألا نرى فارقًا واحدًا بينكم؛ فجميعكم تشخّون واقفين!».

فهز بابا رأسه مؤيدًا. أما أنا فلم يرق لي هذا الكلام وأوضحتُ له نظريتي هامسًا:

«صحيح أن البطريركية لا تفرق بيننا وهي تراعي هذا الأمر بشدة، لكن مؤسسات أخرى في المجتمع سبّبت ضررًا كبيرًا في عقول هذه الأجيال والأجيال القادمة. ربما تكون مؤسستنا مُعفاة من أي لوم، لكن البنية الأساسية للرجال هنا خرِبة بفعل التعليم والجهل المستشري في بيوتهم وبيئتهم، ألا تتذكر ما فعله معك الشيخ ڤولتو؟!».

«اخرس يا خائن!».

«بابا، ألستَ أنت الآخر مسيحيًّا؟».

«مسيحي أكثر منك يا شرموط!».

ها قد عدنا. لست أمي!

«صدقني حتى هذا البطريرك رغم خطابه التوعوي، فهو بمجرد أن يتنحى من أمام الميكروفون ويخلع بذلته الرسمية، لن يستطيع أن يراني أنا وأنت سوى مواطنين من الدرجة الثانية؛ كفرة لا نصوم ولا نصلي. لقد ترسخت تلك المفاهيم في طفولتهم قبل أن يكبروا ويرتدوا بذلاتهم».

«من أين لك بهذا الحكم المطلق؟!».

«ألم يقتلوا منذ سنوات بسكاكينهم التي وزعوها علينا، ذكورة ١٧ رجلًا منّا، ٣٤ خصية جرت على الأسفلت يومها مثل كُرات البلي».

«نعم قبضوا عليهم أمام أكبر حمّام شواذ في البلد».

«كانوا يتظاهرون سلميًّا، وللصدفة مر خط سير المظاهرة أمام ذلك الحمّام».

«أي عمليات تطهير يكون لها عادةً ضحايا. المهم بنيان المجتمع. لن تفهم أنت طبعًا مثل هذه الأمور بسب طبيعة سنك!».

لو التفتوا إلينا الآن بسبب همهمتنا سيسألوننا حتمًا أي موضوع هذا الذي شغلنا عن خطاب البطريرك، وبابا طبعًا لن يتورع عن فضح أمري. فضّلتُ الصمت لأن الرؤى كانت محسومة؛ القتلى يومها كانوا في رأيه شواذًا وحسب إيماني أنا شهداء. أتحسبون بابا فقط مَنْ يقدّس البطريركية. البطريركيون في كل مكان! وبابا لم يأت إلى هنا، بل هو قائم منذ الأبد، هنا وخارجًا. ثم، ألم أقابل أشخاصًا لهم فكر بطريركي خارج البطريركية؟! ماما على سبيل المثال تصلح جدًّا أن تكون عضوًا بارزًا لديهم، بصراخها الدائم وعنادها وطاووسيتها. جدتي التي تناور الموت حتى تعيش وتراني قسيسًا. القسيس نفسه حينما يطرد الشباب خارج الكنيسة وكأنها تركة أبيه. وفتاتي حينما يأتيها الحيض وتحظر عليّ تلك المنطقة. وأستاذي الذي جعلني أثق بالكتابة كوسيلة انتقام ويطلب مني الآن

حق وصايته الأدبية. والرب إذا لم أعبده. والقومندان إذا لم أنافقه. وأنا حينما أفرض عليك أن تصدق كل هذا الهراء!

كلنا نعمل لحساب البطريركية.

لكن أحدًا لا يصرّح!

***

لم أعلم بخبر تفجير الكنيسة من التليفزيون طبعًا، لأنه لم يكن يُستخدم إلا في بث الأفلام ومباريات الكرة وحلقات «ماما شرشر». ولم أعرف من الراديو أو الجرائد لتعذُّر وجودهما. كنت قد تلقيت مراسلة اليوم شكلها مختلف عمَّا يصلنا في المكتب عادة. وكان مغلفها أصفر مختومًا بالشمع الأحمر. فتحه مسئول المكتب ثم علّق غير مكترث: «هُما يولعوا لهم في الكنايس، وإحنا اللي نتعك فيها». ثم صرفني كي أمرره على كل القمادين حالًا.

قبل أن أبدأ جولتي دخلت الحمام وفضَضْتُ الحبل الرقيق الذي يلتف حول المظروف. بعد عدد من الديباجات الإدارية التي سئمتها، ذُكر خبر تفجير إحدى الكنائس صباح اليوم في مدينتي الأم. قفزتُ بعينيّ على اسمها فوجدتها كنيسة غير التي تصلي بها أسرتي. لكن للأسف الخطاب لم يذكر أي تفاصيل عن الحادث، باستثناء أنه على البطريركية القيام بدورها الذي يندرج تحت بند المسئولية الاجتماعية، وهو أمر تقوم به أي مؤسسة محترمة لديها جهاز علاقات عامة قوي، مثل سلسلة مطاعم ماكدونالدز في تطويرها للعشوائيات، وشركة ڤودافون في محو الأمية. على أيِّ حال، لست في حاجة

لمعرفة المزيد لأنه حسبما أتى في نص الخطاب سنكون هناك الليلة، إذ تحتم علينا الدفع بصبياننا كي يقفوا بجانب رجال الجيش والشرطة، لتقديم الدعم اللوچيستي للكنيسة والنفسي للعائلات المفجوعة.

في المساء أضيئت جراچات البطريركية وخرجت منها عرباتها الضخمة التي تشبه اللوري. ملأناها بكراتين بها أناجيل صغيرة وأغراض طبية سنتبرع بها للمستشفيات التي استقبلت الحالات، وسترات فسفورية وبرتقالية عليها شعارنا المُحرِج كي نرتديها هناك، ونبذات مطبوعة وأفلام تسجيلية عن مكافحة الإرهاب ووأد الفتن الطائفية من إنتاج جهاز العلاقات العامة بالبطريركية.

لم يكن اسمي في البداية ضمن قائمة المُعيّنين، لأنهم راعوا ألا يتعرض الزملاء الأقباط لمشاهد قد تنخر في ولائهم لهذا البلد، لكني ذهبت للحضري وبدأت الحديث معه ذاكرًا اسمي، وهي ربما المرة الأولى لي هنا التي اضطر فيها للجوء لاسمي واستخدامه كتأشيرة مرور. ثم أخبرته بنبرة تمثيلية أن أسرتي كانت تصلي هناك، لكن كذبتي أتت برد فعل معاكس إذ ربت على كتفي وطلب مني البقاء هنا ووعدني أن يتولى هو بنفسه طمأنتي من هناك. كنت أعرف أنه يكذب، بيد أن تضامنه بدا لوهلة حقيقيًّا؛ فهو حتمًا لديه أبناء في المنزل. أمرني بالانصراف من مكتبه الآن حتى يتفرغ لعملية شحن صبيان البطريركية لموقع الحادث. نفذّتُ، وعند عتبة الباب استدرتُ وأخبرته بنبرة متهدجة أني لن أكون مسئولًا عن تصرفاتي بمجرد أن أغادر هذه الغرفة.

«ماذا تعني يا متني؟!».

«سأحطم ماكينة الحلاقة بكعب جزمتي الضخمة، ثم أنتزع شفرتها الحادة وأبتلعها!».

بند رقم ٢٦٥ من لائحة قوانين البطريركية: في حالة شروع أي ذكر في الانتحار يُستجوب قومندان المجموعة عن علاقته بالفرد، وعن المساعدات التي قدمها له قبل أن يقدم على فعلته النكراء تلك.

وضع دوناتيلو صافرته الطويلة التي تنتهي بكُرة في فمه وراح يصفّر بشكل محموم. اندفعت مجموعتنا وسط حشود المجموعات الأخرى، كل واحد يحمل زمزميته وبطانيته الصوف الخشنة، وجميعنا نرتدي معاطفنا السوداء الطويلة. تفرقنا عند صف العربات. كان مؤخرها مرتفع جدًّا، مددت يدي لأحدهم عند صعودي. أبي. بعد أن اتخذ كلٌّ منّا مجلسه صار بإمكاني رؤيته. كان يجلس في إحدى الزوايا بوجه لا يُبدي تأثرًا. سألته كيف استطاع المجيء، قال إنه قذفهم مرتين على مكتب القومندان، وفي أقل من خمس دقائق. ابتسمتُ له وطمأنني وجوده.

خُيِّل لي أن صراع الأقباط مع قاتليهم يشبه صراعي مع أبي. المعارك عامة لا تُحسم نتائجها إلا بفناء الآخر أو تقهقره. لكني توقفت عند السؤال الذي طرحته على نفسي؛ أيهما أنا في هذه المعركة؟ أيكون وَهمًا لو تخيلتني رغم صغر حجمي الإرهابي المرهوب، هل يمكن أن يمثّل أبي بكل همجيته القبطي الضعيف؟ مستحيل! حتى لو كان قبطيًّا في الحقيقة!

تحركتْ بنا السيارة. كانت ترتجُّ بعنف بينما تهتز رؤوسنا وترتطم سيقاننا ببعضها البعض وتحتك مؤخراتنا بالمقاعد الصلبة في صندوق العربة. قطعنا طريقًا طويلًا داخل البطريركية يحفّه النخيل. ثم انفتحت البوابة الرئيسية أمامنا. لم نكن رأيناها منذ أول يوم ولجناها فيه. أول ما خرجنا للشارع أبصرت مدينة ملاهي دارت فوقها ساقية ملونة تُشع بالأحمر والأخضر والأزرق. وتأملت منظرًا لمراكب خشبية مهولة جميعها لا تتعدى حجم بلنصات الصيد رَسَتْ أسفل القلعة، كأن عملاقًا يلعب بها رصَّها على هذه الشاكلة. وجذبتني هالات مُضيئة أتت من محلات المثلجات، فلحظت لوحاتها النيون وروادها القليلين بعد أن رحل أغلب المُصيفين. وقطعتْ علينا الطريق عربات الترام الحمراء وهي تسير بتؤدة. تعطّل الترام. نزل الكُمساري ولَحَمَ العجلة الدوارة بالسلك المعلّق في الهواء. انطلقتْ شرارة وتحرك مجددًا. متى دهنوا الترام بالأحمر؟ ومتى صارت صافرته تشبه القطار؟

شعرت بتآكل أسفلي لما رأيت نساء بعباءات سوداء يجرجرن مؤخرات ضخمة وقِطعان من الأطفال. مررنا بحلقة السمك فداهمت أنوفنا رائحة الزفارة المعهودة. ومن هناك اتجهنا لوسط المدينة، وعند الجندي المجهول شاهدنا وقفات احتجاجية بلافتات ونداءات، عرفنا منها نكائب تعويم الجنيه وغلو الدولار والبنزين ورفع الدعم عن الكهرباء والمياه، وأن السوق بكل سلعها الأساسية قبل حتى سلع الرفاهية، ترزح تحت موجة غلاء عنيفة. ولما استغرقنا في طريق البحر ألهيتُ نفسي في مناظر المقاهي والنوادي المُضاءة جهة الشاطئ.

ورأيت بلوكات الصخر يصطدم بها الموج، فتساءلت وأنا محبوس في عربتي كم من العشاق الذين بلا شُقق لجأوا لجحور هذه البلوكات الليلة، يفعّصون بعضهم بعضًا في هذه اللحظة مثل سرطانات على الرمل. نقلت بصري للجهة الأخرى فهالني منظر «إنچي مصّاصة» لما وجدتها لا تزال تقف مكانها أسفل الإشارة عند ناصية مقهى كريستال. كنا نستهلكها أيام الجامعة. كانت دميمة قصيرة وجهها يبرز من حجابها مثل نصف ليمونة. ولم تكن تمارس الجنس الفموي من أجلنا بل لأنها مُغرمة بفمها.

صوت الريّس خرج من كريستال فجأة يعلن حالة الطوارئ لثلاثة أشهر. جماهير غفيرة احتلت سور الكورنيش وحوّلته لمأدبة بسبب ارتفاع أسعار المطاعم، يؤنسهم بائعو الفشار والفطائر والحلبسة وبائعو لعب رخيصة عبارة عن مسدسات تُخرِج فقاقيع صابون، وأطواقًا نورانية تنطلق في السماء وتسقط بعيدًا جدًّا عن شاريها بحيث تتعذّر عليه استعادتها.

كان الناس يتوقفون عما يفعلونه ويتأملون عرباتنا الضخمة ومنظرنا المهيب. ورويدا رويدا تخلّينا عن طريق الكورنيش ودخلنا أحد الشوارع الجانبية المُفضية إلى قلب المدينة. وهناك لمحت رجال الجيش والشرطة يقفون خلف المتاريس والمدرعات فعرفت أننا وصلنا.

توقفت العربة التي كنت فيها، بينما واصلت بقية العربات طريقها إلى المستشفيات وإلى كنائس أخرى تعرضت لهجمات مشابهة في نفس اليوم. ترجَّلنا من السيارة واصطففنا في أربعة صفوف في الشارع. تمّم الحضري على عددنا وأعطانا بعض

النصائح قبل تركنا:

-التزم بسترتك، فهي تبيّن هويتك، وتشير للناس والإعلام أن البطريركية في المشهد!

-لا تتحدث في الدين!

-لا تقدم المساعدة من تلقاء نفسك!

-عدّ كلماتك، حتى في مواساتك!

-احترسوا لبطانياتكم وأغراضكم، هذا المكان لم يعد بيت عبادة بعد الآن!

-لا تتحدثوا لأي جهة إعلامية!

-لا تسألوا عن موعد رحيلكم!

كان التفجير قد أحدث فجوات كبيرة في جدران الكنيسة، لذلك لم نضطر لدخولها من بابها. المقاعد الخشبية التي يجلس عليها المصلّون والدواليب والمنجليات، تناثرت بقاياها في كل مكان، والذي تبقى منها سليمًا كان ممسوحًا بالأحمر، كأن أحدهم دعكه بفوطة تنزّ دمًا. تقاطعت حولنا كالزجزاج أشرطة صفراء كُتب عليها «احترس منطقة عمل... محظور الاقتراب... قوات الدفاع المدني». سمعت چيت لي من بعيد يشرح للزملاء: «حتما المُفجِّر منهم، وإلا كيف تمكن من الوصول إلى هذه النقطة القريبة!». الأعمدة الرخامية تفحّمت وتحفّرت وبدا الدم مرشوشًا عليها. أيقونة يوم الدينونة التهم الانفجار نيرانها المزيفة، وتبقى الديّان في وسطها وحيدًا. الزجاج المعشَّق الذي يحكي أساطير المسيحية التوراتية، تهشَّم في مواضع عدة مُحدِثًا تعثّرات في سير

أحداثها. السجاجيد تكوَّمت وجُمِعَت جانبًا. القناديل نُسِف زجاجها وصارت شموعًا مطفئة. وعلى الأرض تشكّلت رسومات بتفاصيل لونية متداخلة، امتزج فيها الدم المتجلّط بالطين مع بقايا الجلد المحترق.

كانت الرائحة لا تزال صامدة أمام كل الوافدين الذين ملأوا المكان، رغم الهواء الذي هبَّ من الأبواب والفجوات. وعلى أحد الجدران توقفت عقارب ساعة، أخبرنا فرّاش أنها تعطلت إثر الانفجار كعلامة غضب على ما حدث. وفي الصحن هبطت الأرض وأحيطت بمقاعد كأنها متاريس، فخمّنتُ أنها كانت موضع وقوف الانتحاري، أو المكان الذي زُرعت فيه القنبلة. إذ سمعت من الصحفيين المحتشدين أشياء عن قنبلة معطوبة عُثر عليها في نفس الكنيسة قبل الحادث بأسبوع. واستنتجت بدوري أن فشل العملية أول مرة كان إخفاقًا من الخلية الإرهابية، وليس نجاحًا من الأجهزة الأمنية.

بحثت عن مكان أجلس فيه. لكن هل تبقى شيء على حاله؟! جلست على كومة من السجاد غير عابئ بملابسي، فاتساخها على أيِّ حال سيحقق غرض البطريركية في شهادة تواجدنا. ألقيت بناظري على الأرض فرأيت مجموعة متعلقات جُمعت جانبًا. فردة صندل حريمي وعكازًا وكيسًا بلاستيكيًّا ملونًا، وغطاءً نبيتيًّا من أغطية مذابح الكنيسة، ومروحة سقف سقطت، وقطعًا سوداء متفاوتة الحجم كان يجمعها رجل في ملابس ملكية. سألته ماذا تكون؟ نظر لسترتي وأخبرني أنه من المعمل الجنائي وأنه مُكلّف بجمع الشظايا. أكملت بحثي بعينيّ من مكاني فوجدت صليبًا خشبيًّا صغيرًا لا زال يمر

مـن ثقبـه الخيـط الـذي كان ملتفًّـا حـول عنـق صاحبه/صاحبتـه منـذ سـاعات. ورأيـت حافظـة جلديـة نهضـت وجلبتهـا. أخرجـت منهـا بطاقـة صاحبتهـا. واجهـت صعوبـة في تحديـد عمرهـا مـن الصـورة. قـرأت الرقـم القومـي فوجدتهـا تقـترب مـن سـن أمـي. سـقطت مـن الحافظـة صـورة فوتوغرافيـة. انتشـلتها مـن الأرض. كانـت لطفلـة تبتسـم بتقويـم أسـنان فـضي وشـعر مرسـل. مـنْ منهمـا حيـة الآن؟!

على أي المرأتين قذفتُ في الحمام؟

لا أعرف. لا أعرف. بكيت.

اقـترب مـني چيـت لي وسـألني إن كانـوا سـيدخلون الجنـة. أشـحت بوجهـي. كيـف يمكـن لإنسـان أن يتجـاوز مثـل هـذا المنظـر، ويسـأل مثـل هـذا السـؤال؟!

لقـد مـات هـؤلاء يـا چيـت لي ببسـاطة لأنهـم يقـرأون كتابًـا غـير الـذي تقـرأه.

هل تراه سببًا جديرًا بأن يموت إنسان، متشظيًا؟

***

لـم تكـن الأمطـار شـديدة بالخـارج. ومـع ذلـك تسـاءل أحـد الرفـاق إن كان بإمكانـه التدخـين داخـل الكنيسـة. فهـي لـم تعـد كذلـك، هكـذا صرّح. سـانده آخـر: «صحيـح، فنحـن ننـام هنـا وندخـل دورة الميـاه ونصـلي أيضًـا». وكان الأخـير مُحقًّـا إلى حـد بعيـد، حيـث إننـا افترشـنا بالفعـل منـذ أول ليلـة أسِرَّة بسـيطة صنعناهـا مـن صناديـق الميـاه الغازيـة وبعـض المقاعـد الخشـبية الـتي ظلـت سـليمة، في هيـكليْ الكنيسـة الجانبيـين. واقترحـت

عليهم استخدام أغطية المذبح وأنابيب رفات القديسين كوسائد، إلا أني لم أخبرهم طبعًا بمحتوى الأنابيب حتى يتمكنوا من النوم عليها. كما أننا استخدمنا دورات المياه دون تصنيف، إذ انعدمت الزيارات تقريبا للكنيسة. واستطعنا تدبر طعامنا دون الحاجة لتضييع أموالنا القليلة على محلات السندوتشات، حيث لجأنا لمطبخ خاص ببيت الخلوة. وتولى ثلاثة منا عملية الطبخ وأمدّونا بلائحة المشتريات اللازمة. وفي أول مرة خرج اثنان من رفقائنا فيها لشراء التموين المطلوب، انتهزت فرصة أن المدينة تعد مسقط رأسي وعرضتُ عليهم قيادتهم إلى حيث توجد الأسواق والنساء، ومن هناك عرجت دون أن يشعروا بي على سوق النبي دانيال للكتب القديمة، واشتريت رواية لا على سبيل التعيين وخبأتها في ملابسي.

كنا نفطر ونتعشى نفس الشيء غالبًا؛ الفول أو العدس. أما الغداء فكان ينحصر في ثلاث وجبات؛ بطاطس فرن ومسقعة ومكرونة بالصلصة. وهذا التنوع على قِلته كان يتيح لنا على الأقل معرفة ما سنأكله غدًا. لأن عنصر المفاجأة في حياة البطريركية لم يكن بالشيء المرغوب فيه، خاصة حينما يتعلق الأمر برجال يُطعمون رجالًا.

استخدمنا المنارتين منشرًا لملابسنا؛ ربطنا حبالًا تحت أجراسها الضخمة، وكان بإمكان السُّكّان أن يشاهدوا من شرفاتهم ملابس غريبة لجيران جدد. بيد أن الرفاق بعد مرات معدودة شعروا بحاجتهم للبحث عن مكان أفضل، لأن الطيور اعتادت ترك فضلاتها فوق ستراتهم، وغالبًا لم يكن أحد يكتشف ذلك إلا بعد ارتدائها. لكن كل هذه النقائص الصغيرة بثكنتنا الجديدة

اختفت دفعة واحدة حينما اكتشفنا ملعب كرة قدم. وكان عبارة عن فناء خلفي مُحاط بسياج من السلك المخرم، وله باب موضوع عليه قفل، ولا يميزه كملعب سوى تلك الخطوط البيضاء بالطباشير على أرضيته المبلطة. كان ملعبًا بسيطًا، ولم أكن في حاجة للتخمين بأن الكنيسة أنشأته بشكل خاص كي تحوّط على أبنائها، حتى لا يلجأوا للعب الكرة في ساحة شعبية وسط منحرفين، يأتي انحرافهم في المرتبة الثانية بعد مشكلة ديانتهم. وحتى لا يضطروا يومًا لتعديل أسمائهم حتى يتمكنوا من الالتحاق بمنتخب الساجدين. وبعد أسبوع من الحادث رأينا أولاد الكنيسة يعودون للملعب ويفتحونه وهم يضحكون ضحكات قصيرة ويلكزون بعضهم مازحين. وتساءل واحد منَّا كيف يمكن لأحد أن يشاهد صديقه وقد تمزق لقطع بجانبه، ثم يعود ليركل الكرة من نفس المكان؟ أما أنا فأجبت نفسي في سري؛ بأنه إذا كان الموت والجنس فعلًا الحقيقتين الوحيدتين في هذه الحياة، فإنه من الطبيعي ألا تختلف الأمور في ظاهرها كثيرًا بعد اجتيازهما.

ألحّ ذلك الزميل وسأل الولد سؤاله، فأجاب الأخير بأنه طالما سيلحق بأصدقائه في الحادثة المقبلة أو التي تليها، فلماذا لا يلعب الكرة اليوم؟!

وعلى عكس ما توقعتُ، صنعتْ تلك الخرقة المصنوعة من الكاوتش ما فشلت الأجهزة العظمى في تحقيقه بين أطياف الشعب؛ إذ اندمج صبيان البطريركية مع أولاد الكنيسة سريعًا، ولم يأت أحد على ذكر مسألة الدين إطلاقًا. وشكّلوا فِرقًا مزجتْ بين الطرفين ونظموا أيضًا دورات كروية. وكانت الأسماء

هي العقبة الوحيدة، لأن صبيان البطريركية أثناء اللعب لا يملكون أن يتذكروا أولاد الكنيسة بأسمائهم، فكما قلت سابقًا؛ أسماؤنا بالنسبة لهم واحدة. وبالتالي يحدث كثيرًا أن يضيع هدف، بسبب أن أحدهم هتف في توقيت حرج باسم مينا بدلًا من بولا.

***

تكيّفنا على العيش في الكنيسة؛ إذ إن البطريركية كانت قد انتزعت منّا سابقًا تلك الأُلفة الخبيثة التي يأبى الإنسان أن يبنيها إلا مع أمكنة اعتادها. والحق أنه راقت لي مظاهر تأقلم الزملاء هنا، خاصة وقد صاروا غير قادرين على معايرة أحد بتلك الجُمل التي كنا نسمعها ونحن صغار في المدرسة، من قبيل: «نوّر لي شمعة يا بطرس» إذ إن جميعهم كانوا يضطرون في بعض الليالي لفعل ذلك حينما ينقطع تيار الكهرباء. وكان مُلهمًا لي أن أرى چيت لي ذات مرة وهو يسير بشمعة أمام إحدى الأيقونات متلمسًا خطاه.

وباستثناء رائحة الدم التي كانت لا تزال تهيمن على المكان، وصرخات الاستنجاد التي كانت تصدر عن أرواح القتلى من حين لآخر في الأروقة وصحن الكنيسة، وبعض التهيؤات الشبحية التي تراءت لبعضهم هنا، لم نواجه أي أزمة في المعيشة.

روى أحدهم أنه في المنام أتته فتاة مكشوفة الشعر صدرها عاري يتدلى فوقه صليب صغير، وطلبت منه أن يضاجعها. ورأى آخر في صحوه، رجلًا ضخمًا أسمر يهرول في الكنيسة بلا رأس، فانلته الداخلية ممزقة وملطخة بالدماء، وكان رأسه هناك فوق كومة حطام يسب الأديان كافة ويتهمها بأنها

تسببت في فصله عن صاحبه. لكن المهدي طمأنهم وأخبرهم أنه حَلَم بسيدنا عيسى والرسول يسيران جنبًا إلى جنب في أحد الممرات الجانبية، ثم توقفا فجأة، فانحنى عيسى وقبّل يد محمد أمام الهيكل، ثم دعاه أن يصعد للمنبر ويعظ شعبه العنيد الذي لا يود أن يعترف بنبوته. طلب أحدهم تفسيرًا للحلم مني، فأخبرته أنه سيموت قريبًا.

لم تأت الأوامر بعد بالمغادرة. والبطريركية بدت مثل أُم رمتنا في الشارع، لكنها مع ذلك تراقبنا من حيث لا نراها، ورغم ذلك ستحاسبنا إذا نسيناها. وذهب ظننا الأكبر إلى أنها تحتفظ بنا هنا كي تظل متواجدة ولو بشكل ظاهري، فلا تُتهم من أي مُشكِك بالتقصير.

قمنا بدور الكشافة؛ نمنع الفضوليين في الشوارع المحيطة من الدخول كي يروا ما تُعرف بالكنيسة. وقد انتبهنا لهذه المهمة الكشفية منذ أول يوم، إذ سادت حالة من السُّعار بين المُصلّين أنفسهم الذين نجوا من المجزرة، فأصيبوا بلوثة وضرب بعضهم بعضًا، ففصلنا بينهم ومنعناهم من المجيء مرة ثانية حتى يعود بيتهم لحالته الأولى. كما ساعدنا عمّال البناء الذين شرعوا في عمليات الترميم ونصبوا السقالات داخل الكنيسة، في منظر أعاد لي صورتها الأولى وهي تُشيّد، فتخيلت الفنانين الإيطاليين وهم يرسمون أيقوناتها المُشبّعة بألوان زاهية قبيل افتتاحها، يقفون كلهم وقفة مكسيم... وقمنا أيضًا بتأمين الثغرات التي تركتها الداخلية، كالشوارع الخارجية الموصولة بفناء الكنيسة عبر أزقة ضيقة مظلمة، مُعتمدين في مهمتنا على سكاكيننا وصافرات زودونا

بها لما بدأت نوبات الحراسة تلك. ثم أضيف إلى أدوارنا؛ استقبال الصحافيين ووفود القنوات الإعلامية، وإرشادهم لأهم المواقع وترتيب لقاءات لهم مع الكهنة الذين انتظم تواجدهم وقلّ، لحمايتهم. وكان چيت لي مُنبهرًا بفكرة أن القساوسة لهم مكاتب مخصصة، وأكد لي أنهم ينفردون حتمًا بالفتيات العذارى داخلها.

***

استقروا في النهاية أن يذهبوا لأبي ويأخذوا برأيه في مسألة تدخين السيجارة داخل الكنيسة. انفعل واستنكر كأنه لا يعرفهم ولا يشبههم. كيف تجرأوا وفكروا في شيء كهذا! حتى كاد أن يمسك في خناقهم. وفي رأيي لم يهمهم أمر السيجارة بقدر ما استمتعوا باستفزازه.

كنا نترك أنا وأخي أنوار غرف المنزل مُضاءة وأنابيب معجون الأسنان منزوعة الأغطية حتى يجف، كما كنا نُحجِم عن ارتداء الفانلات الداخلية في الشتاء، كل ذلك لمناكفته.

ولمّا وجد المهدي أن الأمر سيخرج عن مسار المزاح، زعق فينا وطلب أن ينصرف كل منا لموقعه المُعين فيه. فاستاء زميل من زعيقه وعاتبه قائلًا: «لِمَ أنت متحيز لهم بهذا الشكل؟ إذا كانوا هُم أنفسهم يقلبونها ماخورًا ليلة رأس السنة!».

برّق بابا وتحرك نحو صاحب الجملة، دافعًا مثل مدرعة الواقفين أمامه. فواصل الآخر غير مكترث:

«ألا تأتون إلى الكنيسة هنا ليلة رأس السنة كي تقبّلوا وتقفزوا...».

«اخرس يا كلب يا ابن الكلب، من أين أتيت بهذا الكلام؟».

«الكل يعرف!».

«أنتم مجموعة من الفلاحين الجهلة، منحوكم واقيًا ذكريًّا وسلاحًا كي يقنعوكم بأن لكم قيمة!».

راقني جدًّا وصف بابا لهم، لأنه كان يدور بذهني دومًا، فهُم فعلًا مجموعة جهلة فلاحين لم يكملوا تعليمهم، حيث توقف معظمهم عند الإعدادية غالبًا، ثم تركوا فؤوسهم وانضموا إجباريًّا للبطريركية لينالوا شهادة ذكورتهم التي لن يستطيعوا الدخول على زوجاتهم بدونها. شيء آخر سرّني؛ اشتباك بابا مع أناس ظنهم من قبل مؤهلين لنجدتنا، كما أنه شتمني من أجلهم مرة. كيف لجاهل أن يمد لك يد العون يا أبي؟ وإن فعلها، حتمًا سيؤذيك!

سألني چيت لي مبتسمًا إن كان الكلام الذي يدور حول ليلة رأس السنة صحيحًا، لأنه سمع في بلدتهم أن الأقباط يطفئون الأنوار ليلتها في الكنيسة. سألته عن جيرانه الذين يقترضون منه لبن بقرته في العيد إن كانوا يشبهونه؟

«يشبهونني كيف؟!».

«أقصد يرطنون بلغتك، ويلبسون مثلك، ولهم عاداتك وثقافتك؟».

«طبعًا!».

«جيد جدًّا، هل يبدو لك من المنطقي أن يسمحوا بتقبيل فتياتهم وزوجاتهم أمام أعينهم في الكنيسة؟».

في ممر آخر من الكنيسة كانت المعركة مع أبي قد اشتدت. فكرت أن أتدخل لكني تراجعت حتى لا تنقلب لمشكلة طائفية، وكان هذا كفيلًا بأن يعرّضنا جميعًا للمحاكمة. أردت أن يسير الأمر بطريقتهم؛ أن يأمرهم الحكمدار بالتزام الصمت والتفرق. وبمجرد أن نخلد للنوم ونستيقظ غدًا سيبدو الأمر وكأنه لم يحدث. كان هذا بشكل عام طابع المُناقرات بين صبيان البطريركية.

***

رأيت في الحلم سلمًا يصل السماء بالأرض. ورأيت عبدًا عاريًا ينزل درجاته مُجبرًا، بينما سيده يجلد ظهره بسوطه. حملقت في ملامح العبد فرأيتني. والحق أني كنت وسيمًا جدًّا وأنا زنجي، فابتهجت بتحوّلي هذا وقلتُ في حلمي: في حياتي الجديدة سيكون عضوي أكثر ضخامةً ومتانةً منه. التفتُّ لسيدي فكان أبي، وكان لمرة وحيدة أبيض مثلنا أنا وماما وجدتي. ولم يكن متوافقًا مع لونه الجديد، إذ بدا كالمصابين بالبهاق، وظهر في مواضع متفرقة من جسده لونه الحقيقي. كأنه رقّعه بجلودنا. حرّك سوطه ونهرني لمّا توقفتُ: «أكمل طريقك!».

«أريد ماما!».

«إنها تحتك!».

نظرت أسفلي فلم أجد غير السلم الواهي.

أفقت من كابوسي. مددت البطانية وغطيت قدميّ. رأيت نور الصبح وقد دخل من النافذة وغمر الهيكل. قلّبت عينيّ في

القبة فوقي. كان تجويفها مُغطى بأيقونة نجتْ من الانفجار. رأيت فيها سلّما يصل السماء بالأرض. الله في أعلاها، بينما يعقوب في أسفلها ساندًا رأسه على حَجَر، مستغرقًا في نوم عميق. وكان الله يراقبه وهو نائم، مثلما راقبني أبي حتى آخذ السلم لنهايته وأُولد من أمي. كم كنت أشبه يعقوب في نومتي وتشريدي! وكم تنافرتْ مصائرنا بعدما رأى كلٌّ منّا السلم؛ فقد اعتبر المسيحيون القدامى سلّمه الرؤيوي رمزًا لمريم التي أوصلت السماء بالأرض وصالحتهما. أما أنا، فأي خلاص هذا أو صُلح، أنجزته ماما لمّا كانت سُلّمي؟!

خرجتُ للفناء فوجدتهم واقفين يحملقون جميعهم في نفس الاتجاه. تلفتّ فرأيت فوجًا لأناس ملفوفين بملابس بيضاء من رؤوسهم لأقدامهم يسيرون ببطء مثل حجيج. كانوا يتكئون على أقارب وأصحاب يرتدون ملابس عادية. ظلت فقرة مسلية للرفاق حتى أدرك أحدهم أن بعضًا من النسوة السائرات لا يرتدين غطاء على رؤوسهن من باب المحافظة الكنسية، بل لأنهن محجبات. سألوني فزعين، لكني أنا نفسي لم أر مشهدًا مماثلًا في طفولتي. تذرعت بسترتي وما يعنيه لونها وسألت أحد الفراشين، فأخبرني بأنهم مرضى ينتظرون هنا في حجرات مخصصة لهم حتى تحدث المعجزة. حجرات للمسلمين في الكنائس!

«مرضى بماذا؟».

«عليهم شياطين».

«وكيف تحدث المعجزة؟».

«يتدخل أحد القديسين ويظهر، فيُخرِج الشيطان من المريض».

«لكن بعضهم مسلمون!».

سألني عن اسمي فأجبته. شرح في بحبوحة:

«يا بُني، المسيح أتى من أجل كل الناس!».

لمّا عدت سألوني عما قاله الفراش فأكدت لهم، بقليل من الحذر، ما رأوه في المسيرة. مع حذف جُمل الفراش الوعظية. ثم انتهزت الفرصة وقذفت چيت لي بالسؤال الغبي إياه الذي فخّخه لي مرات:

«هل تظن أن هؤلاء المسلمين سيدخلون الجنة؟».

مسّد شاربه الآسيوي:

«الله غفور رحيم، وهو لا يرذل أحدًا لمثل هذه الهفوات، هناك مسلمون كثيرون يذهبون للأضرحة ويؤمنون بالكرامات مع أن هذا حرام! هل تريد إقناعي بأن أي مسلم مهما ارتكب من ذنوب، طالما يوحّد الله وينطق الشهادتين، سيدخل النار؟!».

أنا لم أرد إقناعك بشيء من البداية يا چيت لي، أنت من دفعت بنا لهذا!

لم أستطع إنكار نبرة الازدراء التي صار يحدثني بها منذ وصلنا هنا. ربما رآني حينما بكيت وسط الحطام.

***

كانت هذه الشياطين اللاجئة في قلاع بشرية، مخصص لها مبنى من عدة طوابق. ولحسن حظنا كان يقع ذلك المبنى وسط عدد من المنشآت المحجوبة عن موقعنا. لكن منظرهم وهم في الطريق إلى معقلهم، كان من القوة بحيث لا يفارقنا جميعنا ليلتها. وخيِّل لي بالقياس إلى بلاهتهم، أن رعشة واحدة لم تنتابهم لحظة تفجير الكنيسة، وأنهم لا يفطنون لما يسود البلد من انفلات أمني وغلو في الأسعار. أعتقد أن بشفائهم تكون المسيحية قد أخرجتهم من فردوسهم الحقيقي.

وفي أحد الصباحات زارنا الحضري زيارة غير اعتباطية، وأخبرنا أنه من اليوم فصاعدًا سيتم تعيين عددٍ منّا لتفقد مبنى هؤلاء «الملبوسين» كما أسماهم، لتقديم أي خدمات يحتاجونها. وكنت أعرف أنها خدعة منه كي يرصد كل ما يدور هناك ويسجله في تقريره للبطريركية. وبمجرد أن بدأت نوباتنا هناك، صرنا كمَنْ تكشفت له نافذة في شقة الجيران يشاهد خلفها الأعاجيب، فكنا نتشاجر حول مَنْ منّا المناوب اليوم، خاصة وأنها على عكس بقية الخدمات التي قمنا بها، كان وقتها يمر سريعًا؛ إذ تتضمن إثارة مختلفة عن أي شيء فعلناه من قبل، مع الوضع في الاعتبار أننا نراقب أهدافًا لا تنتبه تقريبًا لوجودنا، حتى لو رأتنا. وطوال مراقبتهم لهم، ظل الزملاء ينتظرون منهم أي شيء خارق للطبيعة؛ كأن يطيرون مثلًا أو تخرج من رؤوسهم قرون، لكن شيئًا من هذا لم يحدث.

ويهيأ لي أنه من اللباقة والذوق مناداتهم بشيء بدلًا من قول: «هُم» كثيرًا، ولست في حاجة للابتكار إذ سبقتني الكنيسة

وسمّتهم: «المجدليون» نسبة إلى مريم المجدلية التي أحبها يسوع وأخرج منها سبعة شياطين. وهذه التسمية تشمل مُنتظري المعجزة جميعهم بما فيهم المسلمين. وكان من يقع عليه الاختيار منا للذهاب إلى بؤرتهم، يعود فحلًا بمخيلة طفل يحكي قصصًا غرائبية. وتمنينا لو أن هذه القصص من تأليف زملائنا، لأنها بدت حقيقية:

عددنا ستون، واسمنا لاجئون، ولا نؤمن بيسوع!

وكنت أتساءل عن شعور ذلك المرء الذي يملك قوة ستين شيطانًا، أعتقد أنه قادر على أن يكون مسيحًا بحق وحقيقي!

سوف أخرج من عينه إذا لم تتوقفوا عن ذكر مسيحكم اللعين!

أنا لم أدخله، بل هو من بحث عني!

وهو أمر مثير للحيرة رغبة الشياطين الأزلية في أن تسكن أجسادنا الضعيفة؛ أهو تنصُّل من طبيعتهم؟ هل كنا يومًا منهم؟ أم هي مجرد حالة مشابهة لليهود في افتقاد الوطن على مر العصور؟!

سأخرج منه وأدخل جسد أحدكم!

آه لو كان ڤولتو معنا، لأخذك إلى أي مقهى تتفاهمان سويةً.

أبعدوا هذا الصليب!

أبعدوا هذا الصليب!

أبعدوا هذا الصليب!

أعتقد أنه شيطان تركي.

***

جرينا نحو بنايتهم إثر صرخات أنثوية كانت من القوة بحيث قطعت فناء الكنيسة ووصلتنا في جناحنا الفندقي بالهيكل. حينما وصلنا إلى هناك رأينا زميلًا لنا يقف في الحديقة ممسكًا بعصا تبينت أنه انتزعها من مكنسة، وكان معه قسيس الكنيسة بعباءته السوداء وجسده المترهل وقد خلع صليبه الجلدي المضفر وعِمّته وتبعثرت خصلاته على صلعته البيضاء. أول الأمر ظننتها خناقة بين زميلنا والقسيس. لكننا انتبهنا متأخرين لامرأة عارية تقف في عمق الحديقة. كانت ملتصقة بالجدار ترتدي قميص نوم لم يتبق منه سوى خيوط على جسدها. وكانت قد أعطتنا ظهرها الذي التمعت أعلاه خطوط من الدم، أغلب الظن أنها قشطت جلدها بأظافرها. أمرها القسيس صارخًا وقد رفع صليبه الخشبي عاليًا:

«آمُرُك أن تخرج منها باسم ربنا وملكنا يسوع المسيح!».

نتفت المرأة خصلات من عانتها وإبطيها، وراحت تصرخ بصوت غطى فناء الكنيسة بمنشآتها، متحدثة بالنيابة عن سيدها الذي يملك كل شيء، إلا اللسان:

«تعال إلى هنا وارضع من لبني، فهو أطيب من قربان مسيحك!».

رمش القسيس بعينيه وسدد الصليب بقوة:

«لو فقط كان لك جسد...!».

«ابتعد عني وإلا جعلتها تقتل نفسها!».

لكن الأب لم يكترث، أو يبدو أنه على عهد بعفاريت مراوغة تلجأ كثيرًا لمثل هذه التهديدات، فرأيناه يكبّ من زجاجة في

يده ويرشها بالماء المقدس. ولم يساعدها ذلك الماء في شيء لأنها ألقت بنفسها بعدها في بقعة كلها ثمار شوكية في حجم البطيخ. فتقدمنا المهدي وصرخ من مكانه:

«اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ...».

والقسيس يردد خلفه:

«فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس، والنور أضاء في الظلمة، والظلمة لم تدركه...».

«يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ».

تدخل الفرّاشون وانتشلوا جسدها الأبيض من فوق الأشواك. وعندما نهضتْ بجسد مبقع برؤوس دبابيس حمراء، ولولتْ وتمطتْ بذراعيها وفرشخت ساقيها. هرول القسيس إلى جدار الحديقة. كان مُعلقًا عليه نموذج بارز الأبعاد لمارجرجس وهو يعتلي حصانه ويمسك بحربة على شكل صليب. انتزعها الأب من يد المحارب الروماني وكانت كبيرة نسبيًّا نظرًا لحجم النموذج. حملق في صليبه الخشبي والحربة، كأنه يفاضل بين سلاحيه. ثم اختار حربة القديس في النهاية ورفعها في وجهها.

جرتْ نحونا. خفنا وتفرقنا ولم يتبق سوى الكاهن. التحمتْ به في عنف. حاول الصمود لكن لوقت قصير ثم أخذته وسقطا معًا. صعدته وبركتْ فوقه. ضربها بالحربة الصليبية في جبهتها، فندتْ عنها آهة وترنح رأسها للخلف. شَرِست وخطفتها منه. نهضت بجسدها المترهل المجروح. قلبتْ الصليب ثم ابتسمت، أو بالأحرى هو، ولا نعرف اسمه أو

أيهم مِن «لاجئون» يكون، هو مَنْ ابتسم.

متشبثة بابتسامتها، عشّقت الحرية الصليبية بسهمها الحاد في أحشائها. صرخت صرخة طويلة. ثم ارتخت وأسلمت نفسها لسيدها الذي استضافته طويلًا. لكنه تحنن الآن وأنزلها على الأرض، فاستلقتْ على العشب بعينين ممسوحتين ورغوة تسيل من فمها ودم يبقبق مثل ينبوع من نافورتها، التي دشّنتها بصليبها المسنون.

***

قادنا الفرّاش أنا وخمسة آخرين من الرفاق، من بينهم چيت لي، في جولة سياحية بالكنيسة. وطوال مشينا في السراديب امتلأت أنوفنا برائحة ضاغطة. لكنها بالتأكيد كانت أفضل كثيرًا من رائحة الدماء التي استقبلتنا أول ما وصلنا الكنيسة في أيامنا الأولى. توقف الفرّاش عند زاوية وفتح بابًا كأنه لمغارة. أضاء لمبة صفراء أصدرت طنينًا وشعّت في غرفة ضيقة لها سقف منخفض. في الوسط رأينا بئرًا مغطاة بلوح خشبي مستدير. أزاح الفرّاش الغطاء بمفرده رغم أنه بدا ثقيلًا، لأنه اعتاد فعلها حتمًا. أطلّ چيت لي أولًا على مياه البئر ثم تبعه بقية الزملاء. أما أنا فتباطأت لأني كنت أعرف أنها مجرد معمودية. لكن الفرّاش ذكر أشياء عن هروب العائلة المقدسة لمصر، وأنهم مرّوا في رحلتهم بهذه الكنيسة فحمّت العذراء ولدها في هذه البئر، وهي تشفي ما يعجز العلم أمامه. فخمّنت أن المياه التي رأينا القسيس يرش بها المرأة كانت مملوءة من هنا. سأله چيت لي إن كانت تشفي غير المسيحيين، فأخبره الفرّاش دون تردد بأن المسألة برمتها تعتمد على قدر إيمان الفرد.

ذهبوا جميعهم خلف الفرّاش ليطلعهم على أماكن أثرية أخرى، أما أنا فكوّرت يدي واغترفت من الماء. كان طعمه عفنًا جدًّا.

***

قضينا ليلتنا متبرمين إذ أخبرونا أننا سنرحل مع أول شعاع للشمس. فهنا كنا نشعر بأننا عُدنا لحياتنا الأولى التي عرفناها قبل البطريركية، حتى لو ما زلنا بعيدين عن بيوتنا. تجمعنا داخل الهيكل متدثرين ببطانياتنا، والمطر في الخارج صوته مثل حنفية متروكة في حمام بحجم الكون. فكّروا في شيء يلهيهم، ولم تكن الألعاب الشفهية البسيطة كزجاجة الاعتراف الدوارة وتمثيل الأفلام الصامتة جزءًا من ثقافتهم. كان اللعب بالنسبة لهم يعني الكرة، وأعني الكرة فقط. لكن المطر قد يعاود الهطول والملعب مغلق وأولاد الكنيسة في بيوتهم والجو هنا في الداخل طبعًا أدفأ. فكروا في الغناء لكنهم تراجعوا عنه بعدما تذكروا تداعيات حادثة السيجارة.

اقترحت عليهم لعبة كنت قرأتها مرة في كتاب لجدتي وأنا صغير؛ أن أختار لهم طقسًا من الطقوس التي نمارسها في كنائسنا ونمثّله كأنه مسرحية. كنت متأكدًا أنهم سيجدون متعة كبيرة في ذلك وأنه سيصل بنا لتوقيت الشروق سريعًا.

«على سبيل المثال، ما هو أكثر شيء تريدون أن تعرفوا كيف يتم عندنا، باستثناء ليلة رأس السنة؟».

ضحكوا، ثم أجاب أحدهم:

«الزواج!».

«عظيم، سأختار منكم ممثلين وعليهم أن يفعلوا ما سألقنهم إياه بالضبط، وما على البقية سوى الاستمتاع بالعرض».

اقتطعت ورقًا من كتب الصلوات وارتجلت عليه نصًّا مسرحيًّا. أجلست الزملاء على مقاعد الكنيسة. أخرجت زجاجات «الأباركة» من القبو تحت الهيكل متغاضيًا عن اللافتة الورقية الملصوقة عليها، والتي تحذر من استخدامها في أي شيء آخر غير الصلاة بالكنيسة، وصببت للمُنحلين منهم بعد أن أحلّ المهدي شربها على مضض، باعتبارها آخر ليلة لنا هنا. لجأتُ لستائر الهياكل واستخدمتها كستارة مسرح. أنرْتُ خشبته بالشمعدانات النحاسية والمصابيح التي تضيء الصلبوت. اخترت الممثل الأول وأخبرته أنه سيلعب دور العروس، فأخذوه وجهزوه؛ غطوا رأسه بملاءة بيضاء من أغطية المذبح وحشوا له نهدين من جواربهم البطريركية الغليظة. ثم اخترت ثانيًا ومنحته دور الكاهن الذي سيتلو الصلاة على العروسين، وكان يشبه الكهنة بصلعته وترفعه. ثم اخترت ثالثًا نحيفًا قصيرًا كي يلعب دور الشمَّاس. وفي النهاية عيّنتُ نفسي كي أمثّل دور الثمرة الفاسدة المتأتية من تلك الزيجة النتنة. يا لها من مسرحية حقيقية! هل هذا ما يسمّونه بالتراجيكوميديا؟ قلّبت عينيّ فيهم لاختار العريس. وكما يقول المخرجون عادة: اختار الدور صاحبه! لم يكن أمامي سواه. هو مَنْ ألهمني في الأساس بفكرة المسرحية. ناديته بصوت عال لكنه توارى خجلًا. هذه أيضًا لم أكن أعرفها عنه؛ أنه يخشى الظهورات العلنية، لكني كنت أعرف أنه يخرس في التجمعات العائلية. فكّرتُ في إكسسوار يميز شخصيته لكني اكتفيت بتعريته، كي

يظهر بشعره الغزير وبشرته السمراء. بهيئته هذه سيستدعي نفسه من أعماقي.

أين ذهب وجهك ؟!

مسرحية في أربع لوحات

مستوحاة من رواية

صورة دوريان جراي

لأوسكار وايلد

اللوحة الأولى

(يقف بابا وماما أمام الهيكل في محضر المدعوين والمصوّرين والأطفال الذين حملوا سلالًا ممتلئة بورود سوداء وثعابين. يلبسان رداءً موشًّحًا بصلبان ذهبية، وعلى رأسيهما تاجان. يضع القسيس يده عليهما ويقرّبهما، فيميل بابا برأسه عليها كإشارة إلى استناده عليها طوال حياته)

القسيس مرنِّمًا: «إشليل» (صل)

الخادم: «إيه بي إبروس إفكي استاثي تيه» (انهضوا للصلاة)

أشير من مكاني للمجاميع فيقفوا متدثرين ببطانياتهم.

القسيس: (بخشوع)

«أيها الابن الملعون... أيتها الابنة الملعونة... لقد اجتمعنا اليوم نحن وكل هؤلاء الحضور المجاذيب، كي نبارك شيئًا لن يقدّم أو يؤخر البشرية في شيء. فاسمع يا بني هذه النصائح كي لا يأتي عليك الطوفان يومًا، فيغلق ابنك باب الفُلك في وجهك! إذا أردت أن تضربها أو تشتمها فهذا من حقك، لأنها سمعتْ للحية وأطاعتها يومًا وشرّدتْ من بعدها بقية جنسها. لكن احذر أن تفعل هذا في حضور ابنك، لأنه سينتقم منك ومن إلهنا. ولا تطعن أمامه شرفها بكلمة من فمك، لأنه لن يراك سوى قوّادًا، وسيرى كل نسائه اللواتي سيلتففن حوله من بعد أمه، حفنة من المومسات. ولا تقل له مرة شيئًا ينتقص من رجولته، لأن الرب الذي غلب الموت، كفيل بأن يجتز لك خصيتيك... آمين».

الحضور: (مُصلّين) «آمين».

أما أنا، فمِن مكاني في الظلام، نزلتُ بيديّ على الأرغن، صانعًا نغمةً مرعبةً، ولم أرفع أصابعي، تاركا النغمة المخيفة تهز أرجاء الكنيسة.

(يطلق واحد من المجاميع زغرودة طويلة. يتفل القسيس في يده ويلطخ بمائه جبين كُلٍ منهما)

القسيس: «اعذراني، هذا لأن الزيت المقدس نفد البارحة!... والآن تعلن الكنيسة التصاقكما ببعض إلى أبد الآبدين، حتى وإن كاد أحدكما أن يقتل الآخر!».

اللوحة الثانية

(يدخل الزوج الكنيسة فيجد كرسي الاعتراف بشكله غير الأرثوذكسي)

الزوج: (هاتفًا)

«يا أبتاه، أأنت في الداخل؟».

القسيس: «خدّامك يا بني».

الزوج: (متوعدًا)

«اشتكتني زوجتي الساقطة لك أمس بعد القداس، حدث؟».

القسيس: (مرتعشًا)

«نعم يا بني، حدث!».

الزوج: «وما الذي قالته لك عني تلك القحبة؟».

القسيس: «المحبة تفوق كل شيء يا بني!».

الزوج: «يبدو لي أيها العجوز أنك أحد زبائنها، وأنها تزورك في هذا الدولاب!».

القسيس: «قالت إنك تشتمها وتضربها، وإنك تقصّر بعض الشيء في مصاريف الأولاد، لكني أتفهم طبعًا طبيعة الحياة وغلو الأسعار. كما قالت إنك تعاملهم بخشونة وفظاظة، لكن الرب نفسه قال عن الذي يحبه إنه يؤدبه. كما ذكرتْ كلامًا غريبًا عن علاقتك بممرضة و... لا أعرف كيف أقولها حقيقة؛ ذكرت شيئًا عن علاقتكما الخاصة وأنك تطلب مضاجعتها بعدد مرات يفوق قدرة احتمالها في اليوم الواحد، لست على علم يا بني منذ متى ونساؤنا صِرن يتحدثن عن مثل هذه الأمور بهذا الشكل؟!».

الزوج: «وماذا قلت أنت لها؟».

القسيس: «المحبة تفوق كل شيء! ثم طردتها».

الزوج: «بوركت يا أبتِ!».

(يفاجأ الكاهن بشيء ضخم يقتحم صندوقه الخشبي. يظن أول الأمر أنها يد الزوج، لكنه يتبين بعد ذلك أنه قضيبه. ثم يأمره أبي أن يقبّله)

القسيس: «المحبة تفوق كل شيء!».

اللوحة الثالثة

(يجلس الابن على سريره، بينما خليلته تمددتْ عاريةً عند قدميه تمسك كتابًا لـ «سوفقليس» وتحكي له ما تقرأه في الكتاب)

الخليلة: (في حنوٍّ ورقة)

«ثم دخلتْ وأغلقت الباب بعنف وراءها. وهتفت باسم لايوس، الذي مات منذ عدة سنوات، وذكرت الأبناء الذين أنجبتهم منه، والذين بواسطتهم هلك هو، تاركًا الأم هي الأخرى تنجب لنفسها ذرية منحوسة. وراحت تنوح على الفراش الذي عليه أنجبت هذه البائسة زوجًا من زوجها، وأبناء من أبنائها! كيف هلكت بعد ذلك، هذا أمر أنا أجهله. لأنه في هذه اللحظة وقع أوديب وهو يصرخ بيننا، ومنعنا من مشاهدة نهايتها، فلم نستطع أن نشاهد إلا إياه.

استدار حول جماعتنا، وغدا، وراح، متوسلًا إلينا أن نزوده بسلاح، طالبًا منَّا أن ندلَّه على المكان الذي توجد فيه الزوجة. التي لم تعد بعدُ زوجته، لكنها كانت الحقل الأمومي له ولأبنائه. ولا شك أن إلهًا كان يقود غضبه، ولم يكن واحدًا من أولئك الذين أحاطوا به وأنا معهم. وفجأة، أطلق صرخةً مروعةً؛ وكما لو كان مقودًا بدليل، انقضَّ على الباب واندفع إلى وسط الغرفة. إن المرأة مشنوقة! إنها هناك أمامنا، مخنوقة بالعُقَد التي تتأرجح من السقف. فلما رأى المسكين هذا المنظر أطلق زفرة مروِّعة. فكّ الحبل الذي عُلقت فيه، فسقط جسمها البائس على الأرض. لقد كان ذلك منظرًا ترتعد منه الفرائص. ثم انتزع الدبوسين الذهبيين اللذين كانا يربطان ملابسها بجسمها، ورفعهما في الهواء، وأخذ يغرز بهما عينيه في محجريهما. وقال: «هكذا لن تبصرا الشر الذي عانيته». والدم يسيل من حدقتيه على لحيته. ولم يكن ذلك تقطرًا لقطرات حمراء، بل مطرًا أسود يجمع بين الدمع والدم...».

(يرن هاتف الابن فيُجيب. تخبره أخته أن أباه توفي للتو وأن جنازته بعد ساعة في الكاتدرائية)

الابن: (بغضب شديد)

«بحق المسيح! أنا برفقة عاهرة حقيقية الآن وليست مزيفة مثل أمي، هل تظنين أن ما تقولينه يستحق أن أتركها كي أحضر وأتبول على تابوت هذا الكلب؟!».

اللوحة الرابعة

(يدخل الابن الكنيسة ومعه خليلته ببلوزتها العارية وبنطالها الجينز المقطوع، تهرع أخته إليه وتدفن وجهها في صدره)

الأخت: (منهارة)

«أين كنت طوال هذا الوقت، لقد عثرنا بصعوبة بالغة على صندوق يتسع لجسده الضخم».

(يترك الابن الفتاتين عند أحد الأعمدة ويسير نحو الهيكل، حيث وُضع التابوت واجتمع حوله الكهنة والمصلّون. يسند القسيس رأسه على صدر الابن)

القسيس: (باكيا) «كان والدك قويًّا جدًّا».

(يزيح الابن رأس الكاهن عنه بتقزُّز كي يطلّ على جثة أبيه الراقد. ومثلما يحدث في اللعنات الفرعونية، يتصاعد دخان كثيف من التابوت ويغطي الابن. يتألم الأخير ويصرخ بينما يخبئ وجهه بين يديه. يجري إلى باب الكنيسة وعند خروجه تدركه خليلته)

الخليلة: «لماذا تتهرب مني يا ولد، لنذهب للبيت ونكمل لهونا؟».

(يستدير لها الابن)

الخليلة: (صارخة)

«يا إلهي، أين ذهب وجهك؟ وأي وَحْش يخصه هذا الوجه؟».

الابن: (مذعورًا)

«يخصه هو!».

(تنطفئ أضواء المسرح كلها، ولا تبقى سوى الشموع لتنير الوجه المُخيف، بينما ينطلق صوت الراوي الجهوري ناطقًا بكلمات فيلسوف المطرقة)

الراوي: من يصارع بوحشية وجب عليه أن يحاذر من أن يصبح هو ذاته وحشًا. وإذا نظرت في الهُوة طويلًا، فإن الهُوة تنتهي بأن ترى من خلالك.

ستار بطيء

انتهت

بعد أن انتهينا من المسرحية شدّني من سُترتي ودفع بي خلف أحد أعمدة الكنيسة، حتى أخفانا الظلام عنهم وحجب صوت المطر بالخارج همهمتنا. حملق فيّ كأنه أنجبني لتوه وسألني بنبرة حرّكت شفقتي نحوه عن سر اختياري له هو بالتحديد كي يلعب الدور، ولماذا جعلته أضحوكة اللعبة وهو ليس بمُسخة أو هفأ؟! فظللت أنا مثل قط أرمقه في الظلام ولا أنطق بكلمة، لكني قلت له في سري: لم أحاسبك على ما فعلته بحياتي، والآن لا تتقبل مني مجرد مزحة في مسرحية؟!

في الصباح، أتت عربات البطريركية لتُقِلّنا. لم أكن أخذت كفايتي من النوم في الكنيسة وكان حلقي جافًّا جدًّا. قلّبت عينيّ حولي فرأيت چيت لي ترك زمزميته على مقعد العربة وذهب ليشاكس أحدهم. أخذتها وشربت منها. كان الماء عفنًا جدًّا.

١٠

أخبرني الحضري أن البطريرك يريدني بشكل شخصي. أرجعت الأمر لليلة العرض المسرحي في الكنيسة. حتمًا وشى بي أحدهم! ليس هذا ببعيد عن طبيعة الزملاء هنا. هو المهدي، أو هو! معقول؟ سرتُ مع الحضري. فحينما تُساق للموت، إما أن تكون المسيح وتُصلب في صمت، أو تكون نيتشه وتقذفهم بكل حجَّة ممكنة، حتى ينقلب الأمر وينتهي الحال بالقضاة أن يشعروا كم هم معتوهون كونهم أحضروك إلى مجلسهم.

دخلت مكتب البطريرك وأول ما واجهني برواز ذهبي يقبع داخله البطريرك الأعظم. وصورة لـــ «سارة چاي» تطل منها بصدرها الجامح. وساعة خشبية في الزاوية لها حجم دولاب ومنحنيات امرأة وفي أسفلها ثقب مظلم. ولوحة لكُرة أرضية تَقَابل فوق خصرها قضيبان ملتحمان. وكُتب تحتها:

يا ذكور العالم اتحدوا!

سبقني الحضري وجلس في كرسي مجاور للبطريرك، ثم دخل بعدي قومندان الأمن واتخذ مجلسًا قريبًا مني. ولم يكن البطريرك على كرسيه الوثير بل على مقعد جانبي ممددًا رجليه، رجله، إذ اكتشفت أنه بساق واحدة، وكانت الأخرى مبتورة ورُكِبت مكانها ساق خشبية. أغلب الظن أنه فقدها في معركة شرسة مع ضفادع نسائية.

«هل هذا الكتاب يخصك؟».

مد إصبعه الغليظة نحو مائدة منخفضة أمامه، كان موضوعًا عليها «موسم الهجرة للشمال».

«نعم!».

«ولماذا أدخلته تكنتنا؟ ماذا عسانا أن نظن بك الآن؟».

«إنها مجرد رواية!».

«رواية!... إنه كتاب في النهاية! إذا كنت شاذًّا فهذا أمر سنتبينه بمعرفتنا، وسريعًا. لكن ماذا إن كنت جاسوسًا؟!».

نقلت بصري للرجلين على اليمين واليسار، فوجدتهما رافعين عنقيهما يحملقان في السقف يكتفيان بالإنصات كأنهما في مؤتمر يُذاع على الهواء.

«نحن لا نعرفك بشكل شخصي ولا نعرف أي أفكار يتضمنها هذا الكتاب. أنت مجرد ذكر من بين ألفين عندنا، ما أدرانا بالبقعة التي يسافر إليها مخك حينما تقرأ».

وهنا فرد جناحيه وصفّر بفمه.

«أنزل بنطالك وسروالك الداخلي، حالًا!».

نفّذتُ. وظللتُ متجمدًا كأنهم يعلمونني التبوُّل.

حملقوا جميعًا فيّ. صفعني قومندان الأمن على مؤخرتي كي أستدير، لكن البطريرك ردعه:

«ليس الآن!».

«تقارير قومندان مجموعتك تقول إنك مستقيم السلوك، لكن الحقيقة أنك وضعتَ نفسك، ونحن معك، في مأزق كبير».

ساد صمت للحظات بينما يرغي ويزبد ويدق بقدمه الخشبية على الأرض في توتر واضح.

«حضرة البطريرك إنها رواية جنسية، انظر...».

وهنا خطوتُ بضعَ أقدام نحو مكتبه، ففوجئت بمسدس يوجهه لي قومندان الأمن دون أن ينهض من كرسيه. ابتلعتُ ريقي وعُدت للخلف. قلت بصوت واهن:

«إنها رواية إباحية تساعدني على الاستمناء كل ليلة، انظروا حضراتكم بداية هذا الفصل، البطل يضاجع امرأة سودانية مدملكة...».

«امنع الكلام! هذا الفتى يوضع تحت حراسة مشددة، ويُكشَف عليه شرجيًّا وعقليًّا. هيا اخرج!».

ثم بزعيق:

«اخرج! لا أريد شواذًّا يقرأون في مكتبي!».

خرجت من مكتبه مُحمَرّ الوجه أشعر بسخونة تتدفق إلى رقبتي. أحطتُ رأسي بيديّ شاعرًا بعينيّ وقد ابتلّتا بدمع خفيف، وداهمني نبض عنيف رجّ صدغيّ، وصار ريقي جافًّا

بشكل مُباغت دون أي استشعار مُسبَق للعطش. ما الذي حدث للتو؟ هل يمكن أن يكون حقيقيًّا؟ أستنتهي حياتي على هذا النحو المُختلَس بتهمة لا تشرّف حتى حينما يكتبون سيرتي! راودتني ذكرى وحيدة، لا أعرف لماذا هي بالتحديد، لجلسة تصوير عقدناها لصديق من شِلتنا مع خطيبته، كانت أمام بنايات محطة الرمل التراثية صباح يوم جمعة قبل أن تنشغل الطرقات. فكرتُ أني ضِعتُ في سن صغيرة قبل أن ألحق بمتع كبيرة. تذكرت طبيب أسناني لأني مَدين له بـ ٣٧٥ جنيه. سيودعونني السجن قبل أن أسددها له. ماذا سيقول عني بعد شهر أو اثنين أو للأبد؟! وتذكرت وعدًا أعطيته لصديقة ماما الأرملة أني سأنزل البحر معها يومًا وهي ترتدي البكيني. وتذكرت ماما... التي لن أتزوجها. سرتُ شاردًا متعثر الخطى ولمحت ضوء النهار الساطع ينهمر من باب الهنجر. كأن هناك دنيا غير مرئية خلف هذا الباب، رغم أنه مفتوح. ناداني الحضري وطلب مني أن أسير أمامه، فاصطحبني هو وقومندان الأمن. أحدهما همس ولم أتبين مَنْ في غمرة هلعي:

«صَلّ أن تكون مذنبًا يا ٢٤٢، هذا أفضل من أن يطلقوك حرًّا مع ذكرى هذا اليوم!».

أخليا عنبري من بقية الزملاء وفتشاني ذاتيًّا ليتأكدا أني لا أحمل تليفونًا. أزالا مرتبتي ومخدتي. عثرا على قصاصة كنت دوّنت فيها أمرًا شخصيًّا. سألني قومندان الأمن قلِقًا لمن أكتب هذه الأشياء. قلت: لنفسي! لطمني. فتحا خزانة ملابسي وألقيا كل ما بها على الأرض. ثم رأيت الحضري يلتفت لي وفي يده شيء.

عرفتها فورًا من لونها. كانت كراسة اختلستها من الباز أفندي.

«ما هذه؟».

«مذكراتي!».

لم ينطق، لكني حدست كل ما هو مُقبل من عينيه المُشفقتين.

***

عرّوني وعرضوني على الطبيب المختص باختبارات الهوية الجنسية بالبطريركية. أمرني أن ألتف وأنحني وأفتح فلقتيّ بيديّ. دقق النظر من على مكتبه ثم تناهى إليّ صوت خرفشة قلمه على الورق. لا أعتقد أن النتيجة ستكون سيئة؛ لأنه لم تكن لي علاقات مثلية خارج البطريركية، باستثناء «حبيبتي» (لاحظوا أني خائف ولم أنعتها هنا بالعاهرة) التي كنت أطلب منها من وقت لآخر أن تقحم أدوات مكياجها كوسائل مُحفزة. أين هي الآن؟ وما الذي تفعله بينما أنا في طريقي للمقصلة؟

احتجزوني في غرفة بها سرير من دورين برفقة حارس. ولم يكن سوى واحد من زملائي. كانوا بارعين في زرع الضغينة والشك بيننا. انتشل واقيّ من على صدري ليضمن عدم صدور أي سلوك مشاغب مِنّي طوال الليلة التي سيقضيها برفقتي. حاولت ردعه دون أن أجرؤ على استعادة الواقي بالقوة منه، إذ كانت عقوبة تمزيقه بقصد أو غير قصد، السجن. لكن لِمَ القلق وأنا بالفعل في سجن. أهو كذلك حقًّا أم هي المرحلة التي تسبقه؟ هل سيفعلونها بي؟ معروفة! عقوبة الجاسوسية في أي مؤسسة الموت! أمسكت كيس خصيتيّ. تخيلت صورة

الطيب صالح بالأبيض والأسود يتقاطر عليها دمي. ما الذي ارتكبته كي أنال معاملة المجرمين هذه؟! جاسوس! أغبياء وسُذَّج.

كنت أعرف أنهم أمروا حارسي بكل ما فعله، وسيفعله معي الليلة. قيَّدوا يدينا بالأصفاد. نمنا سويةً في الطابق السفلي لصعوبة ارتقائنا سلم السرير ونحن مكبَّلين هكذا. لم نغير ملابسنا، باستثناء الأحذية التي خلعناها. كانت رائحة قدميه كريهة وخشيت أن أطلب منه غسلهما فيزجرني، وقلت لنفسي من الأفضل أن أنتظر حتى وقت الصلاة، حتمًا سيضطر للوضوء.

لكن يبدو أنه لم يكن ملتزمًا، فقد ظل طوال المساء يهاتف صاحبته. أخرج الهاتف من سرواله الداخلي غير مكترث لأمري. كان متأكدًا أني لن أشي به. تشاجرا بسبب ابن عم لها يغار منه ويكره أن تجتمع به في أي محفل عائلي. ظل يشتمها ببذاءة كأنه يحدّث صاحبه. رأيت نفسي فيه حينما كنت أتشاجر معها. أأنا سيء لهذه الدرجة أم أتعمد إذلال نفسي في هذا المَطْهَر الذي أجتازه الليلة قبل حتفي؟! معقول كل ما يقع لي الآن انطلق من ظلمي لها؟

بعد وقت طويل من المكالمة قرر أن يصالحها فأخفض صوته وطلب منها «سكس فون». ظللت أتململ في الفراش وتحتمت عليّ وضعية واحدة؛ أن أظل راقدًا على ظهري. بدآ يناوشان بعضهما بعضًا بالإيحاءات، ثم راح يفرك قدميه الواحدة في الأخرى، وبشكل تلقائي أراد تحريك يده اليمنى لأسفل ليجدها مقيدة برسغي الأيسر. صرخ فيّ أن أفعلها بدلًا منه.

«أفعل ماذا؟!».

«دلّكه لي!».

«ولماذا لا تفعلها بيدك اليسرى؟!».

«لن أستمتع!».

لو اعتديت عليه سيحبسونني بمفردي.

«أسرِع قبل أن ينام!».

مُحدثًا عاهرته:

«أكملي أكملي، أنا تمام يا حبيبتي... لا، لا ليس معي أحد، أكلمك أنتِ يا قلبي، وهل عندنا نساء هنا؟!».

فتحتُ سوستة بنطاله وأخرجته. داعبتني رغبة قوية في أن أطلب منه، كمقابل لخدمتي، أن أجري مكالمة بعده. أردت أن أهاتف أي زميلة لي من أيام الجامعة من الريفيات اللواتي أظهرن إعجابهن وترفعت أنا عنهن. كنت سأداهمها بمجرد أن تفتح الخط: أنا فلان الفلاني، من المؤكد أنك تتذكرينني لأني واثق أنكِ احتلمتِ بي أيام الدراسة، لكني كنت غبيًّا واتخذتُ بدلًا منكِ مومسَ أخرى. لن تسمعي صوتي مجددًا لأنهم سيعدمونني في الصباح... أنا من أكبر المفتونين بصدرك العظيم. التهمي خصيتيّ بأسنانك ذات الفلج المثير. اقضميهما مثلما تقضمين الجزر. احصديهما أنتِ أولى قبل أن يجتثوهما هُم بمناجلهم في الصباح. عاودت النظر لقضيبه. شاورت له حتى لا تسمعني صاحبته، أني لن أتمادى في هذا وأني لن أفعل شيئًا سوى التدليك. ثم أخبرته أني أملك حلًّا أفضل.

انقلبنا سويةً على بطننا وأشرت عليه بأن يحكّه في الملاءة. ظل يهز السرير محدثًا صريرًا. خفت أن يسمعوا شيئًا من الخارج فيظنونا... لكن أحدًا لم يدخل علينا. ظل يحكّه حتى شعرت ببركة دافئة تتسع تحتي فاطمأننت، لكني لم أنم. إذ قضيت الليلة بأكملها في السرير محملقًا عبر النافذة، في حُلكة السماء، حتى انبلاج الفجر.

رأيت لا أعرف في صحوي أمْ نومي، البطاركة يقتحمون شقتنا وهم يرتدون بذلات واقية منتفخة عليها شعار القضيب المجنَّح، وعلى رؤوسهم خُوَذ زجاجية مكوّرة مثل رواد الفضاء. هرولت إليهم وأشرت على ماما. لكنهم تجاوزوني كأني غير مرئي وذهبوا حتى عندها. أخبروها أنه لا يمكنها العيش معي في مكان واحد بعد الآن حفاظًا على سلامتها الشخصية، فأغمضتْ النذلة عينيها واكتفت بهز رأسها متفهمةً.

***

في الصباح فكوا وثاقي. تقيأت، وكل ما استطعت إخراجه كان عصارات بطني. أخذوني للحلّاق فلم يترك شعرة واحدة على رأسي، ثم أجروا لي تحليل مخدرات سلبي، ثم أودعوني في النهاية سجن البطريركية. فنمتُ هناك. لم أكن أكثر اطمئنانًا قطعًا، لكني لم أذق النوم طوال الليلة الماضية، وكنت في حالة من الإنهاك توارى خلفها عقلي المضطرب، وبمجرد أن وضعت رأسي على الأرض الصلبة غشيني سُبات الأنبياء.

كان المحبوسون هنا لكل واحد منهم اسم فتاة ينادونه به، وحينما يسمعه، يلتفت ويتجاوب دون أدنى شكاية، كأنه اسمه الذي وُلد به. وكانت حياتهم تتمحور حول نصيبهم من

الفول والعدس والشجار على جرادل الحلاوة والمربى التي تُوزع بحصة معينة كل يومين. كما ألفيتهم يستخدمون صفائح المياه الغازية كأكواب للشرب، بعد حفرها من الأعلى وإزالة فوهتها المعدنية. ولما رأيتهم يشربون الشاي الكشري في تلك الأكواب استغربت أين وكيف صنعوه، فحكى لي أحدهم أنهم يستخدمون قالب طوب كبوتاجاز صغير شديد الحرارة عبر تمرير سلك في مسار محفور داخل الطوب، وبمقايضة الحراس بالسجائر يمكن مد السلك للحصول على كهرباء. سألته؛ ألا تسيح صفيحة المياه الغازية فوق قالب الطوب المتقد؟ فرمقني بازدراء ومضى. ولم أر ذلك البوتاجاز حقيقة، ربما لأنهم لم يبقوه في زنزانتنا، أو لأني قضيت -متعمدًا- أغلب الوقت نائمًا، كي لا أدرك أي شيء مما يحدث لي. ولم يكن يوقظني سوى عراكهم حول سجائر «الكاريلا» أو حول مَن أتى دوره في تنظيف الغرفة وتفريغ جردلي التبول والتغوط. إذ كان الحمام جزءًا من الزنزانة، والفاصل بينهما مجرد قوالب طوب مرصوصة على الأرض. وفي هذه الحالة لم يكن هناك داعٍ كي أخلع ملابسي مثلما كنت أفعل في الحمام البلدي، وكفاني أني أفعلها أمامهم، كما لو أني أبصق في أحد زوايا الغرفة. وشفع لي في أيامي الأولى عدم احتياجي لقضاء حاجتي، لأني لم أستطع أن آكل أي شيء.

وكان لديهم صندوق بلاستيك لزجاجات الكوكا كولا يستخدمونه كمائدة أو ككرسي يحق فقط لأقدم واحد فيهم. لأن أقدم سجين هنا كان يُعامَل معاملة قومندان مرموق. وكنا ننام على الأرض، لكل فرد منا بطانية واحدة، له كامل الاختيار في

أن يفصل بها ظهره عن برودة وصلابة البلاط، أو يصنع منها وسادة، أو يتغطى بها. فتذكرت سريري ذا النِصال في العنبر وتخيلته حينها، رغم أصوات شخيرهم وروائحهم في العنبر القديم، كأنه سرير جدتي الدافئ في فصل الشتاء. ولم يكن لدينا أي مصدر إضاءة. باستثناء أنه في الليل كان يتسرب نور لمبات تعمَّدوا تعليقها على النوافذ من الخارج، فكان يعكس فتحاتها في هيئة أكساس على الأرضية.

حاول السجناء توريطي في أي شجار لكني انكمشت، حتى سألني أقدمهم عن مكانِ سكني فأخبرته، رحَّب بي جدًّا وسألني أين بالضبط فأجبته، قال إنه كان يعمل صبي شيشة هناك، ثم حذرهم من الانخراط معي في أي مشكلة طالما أني ابن «جيهته» يقصد منطقته.

كنت أتغلب على ضجري وهلعي بالنوم، وإذا استيقظت على خناقة بينهم أو من تلقاء ذاتي، كنت أجبر نفسي على معاودة النوم، حتى أصابتني حالة من الخمول والصداع المستمر. أما إذا وجدوني مستيقظًا فكانوا يمنحونني قِسمًا لا بأس به من الأكل أو يعزمون عليّ بالشاي، بعد أن استسلمت أخيرًا وقررت أن أدخل شيئًا لتلك البطن التي لم تتوقف عن التقلُّص من فرط القلق. وفي حالة أني نائم، لا أحد كان يقترب مني أو يلمسني، لأنهم بالتأكيد مرّوا بما أشعر به. لكن من وقت لآخر، كان ينتهز أحدهم فرصة يقظتي ويسألني لِم انضممت أصلًا إليهم؟

كان السجن مكانًا لمن ارتكبوا تجاوزات صبيانية همجية من ذلك النوع الذي لا بد أن يقع في أي مكان يُحتجز بداخله

عدد من الذكور؛ من قبيل التعدي باليد والسبّ. أما النوع الآخر من التجاوزات والمتعلق بأي احتكاكات، ولو طفيفة بين الصبيان، بسبب اهتياجهم الشديد وافتقارهم لمنفذ يصرّفون من خلاله طاقاتهم، فكان حله التوبيخ، وفي المرة الثانية الإخصاء. أما تهمتا الجاسوسية والشذوذ اللتان تعثرت فيهما، فالسجن في عرفهما كان مجرد مكان للانتظار، حتى يصدر الحكم النهائي. زد على ذلك أنهما تهمتان غير مشرفتين أبدًا، حتى ولو أمام سجناء. لذلك في كل مرة كان يُوجَّه لي ذلك السؤال السخيف عن تهمتي، كنت أخبر سائله أني تطاولت على زميل لي في العنبر، فلا يجدها تهمة تتسق مع طريقتي المهذبة، فيهز رأسه ويطقطق بفمه غير مقتنع ويمضي. وبتُّ أرتعد من أن يستوي لديهم أي شك في نوع تهمتي ويربطونها برجولتي، فيفعلون بي أي شيء وأنا نائم... ولم يعد النوم هو الآخر يصلح ملاذًا.

لكن الرائحة! الرائحة! كانت أكثر شيء لم أستطع الإفلات منه، ونجح في إقناعي بأني مسجون فعلًا. مزيج من رائحة عرقهم التي تشبه الخل، بين حوائط تنشع صنانًا، تتكاتف مع روائح بقايا الأكل المتروكة في الجرادل، وكل ذلك يسجد للرائحة الأم في الزاوية؛ الفائحة من جرادل غائطنا. لكني لم أفكر أن أعلّق مرة على أي رائحة تصدر منهم بقربي، لأني كنت متأكدًا أن واحدة شبيهة، وربما أشنع، تصدر مني.

وكان الحراس من حين لآخر يوكلون لنا بعض المهام؛ مثل صيانة العربات في الورشة وتسليك البلاعات وتنظيف الحمامات. تذكرت عندها بابا وسألت نفسي هل يملك من الغضب ما

يجبره على أذيّتي لدرجة أن ينفيني؟! أيريد العودة لزوجته، هو الذي كرهها دائمًا، بعد أن غار من ولهي بها هنا؟! هل فعلت به البطريركية ما فعلته بي وجعلته يدرك قيمة تلك المرأة؟!

كما اعتادوا إطلاقنا للشاطئ في عزّ الشمس كي نجمع قواقع يزينوا بها جدران مكتب البطريرك، وفي مرات أخرى استخدمونا لتفتيت الأسمنت المتحجر على الأرض في أحد المواقع تحت الإنشاء، وأقرضونا لنفعلها معاول ثقيلة، بعد أن أخذوا مِنّا واقياتنا لضمان إرجاع أدواتهم. وذات مساء أرسلونا في عرباتهم وتركونا في العراء تحت المطر، كي نشطف أرصفة الميناء من فضلات النورس التي كانت تشبه كُتل منيٍّ سقطت من السماء؛ فرُحنا ندعك الأسفلت جيدًا بالمقشات معتمدين على مياه الأمطار التي ستذيبها تلقائيًا. ولمّا فشلنا، وجّهوا من أسطح السفن خراطيم الحريق، فتكفل الماء المتدفق بقوة بكل شيء. كان المطر فوقنا، وتيارات الماء حولنا، وبركة من الوحل ارتفعت فوق أرجلنا، وزعيقهم لا يترك لنا مُتَّسَعًا كي نفكر أو نخطئ.

في كل مرة ألجُك فيها، كنت أفكر أنه من العدالة أن ينتهي المطاف بولد شَبِق مثلي في هذا المستنقع. كرهت نفسي وتنصلت من هذا الجنس الحجري، وتمنيت لو أن الله في اليوم السادس جَبَل حواء أولًا، ثم جعلها تتفل في يده، ومن لعابها خلقنا. بالتأكيد كان هذا أفضل كثيرًا للإنسان من أن تكون المادة الأولى لتكوينه، شخاخ النورس.

***

بعد اثني عشر يومًا من حبسي أخبروني أني سأقابل المحقق المختص بالحالات المشكوك فيها كي يبتّ في أمري. كانت غرفته مكيفة. اشتممت رائحتي لأول مرة. لم أتحملها. غيّرت كثيرًا من جلستي، لكني تسمرت تحت وقع نظراته، وساعدني على تقبل رائحتي فكرة أنهم في النهاية المسئولون عنها، وأن كل من يدخل هذه الغرفة تكون له عادةً نفس الرائحة. سألني إن كنت محتاجًا لشيء لم يوفروه لي فقلت:

«أريد أن أستحم!».

«اشرب شيئًا أولًا يهدئ أعصابك».

لم أتجاوب.

«أنا لا أقترح عليك، هذا أمر!».

أومأت.

«ماذا تريد أن أطلب لك؟».

«لا أعرف».

«ستشرب يانسونا».

طلب لي واحدًا وأمرني أن أذهب للحمام كي أغتسل.

في مرآة الحمّام رأيت وجهي شاحبًا. لكن بعد ما اجتزته به، صار وجهًا حقيقيًّا لرجل، يفوق عمره سن أبي.

***

مدّ لي المحقق يده بمجلة. أول ما وقعتْ عليه عيناي كان عنوانها، وتبينت من حروفه أنها ألمانية، لكني لم أستطع قراءته بشكل جيد أو ترجمته. فرفعت نظري له. أمرني:

«تأمل الغلاف!».

كان لامرأتين يداهما متشابكتان ويرتديان نفس البزة الرسمية.

«هل تستطيع أن تحدد أيهما ميركل وأيهما هيلاري كلينتون؟».

«وما النتيجة في حالة أني أخفقت؟».

«لا شيء، لا تقلق!».

تناولت المجلة مرة أخرى من على المكتب وغرزت بؤبؤيّ فيها.

«أخشى أني لا أستطيع!».

«لا يهمك، صاحبتا الصورة أيضا لم تستطيعا».

دخل زميل ووضع كوب اليانسون ثم خرج.

لدي سؤال لك بما أنك مُتعلم ومن أصحاب المؤهلات العليا، هل كان لهتلر أو لينكولن أن يكونا امرأتين؟».

فكرتُ.

«أسرع من ذلك!».

«لا!».

«لِمَ لا؟!».

كدت أن أرمش، لكني تحكَّمت في نفسي وخفت أن يحسبه تبرُّمًا من أسئلته. أنقذني هو لما أهمل إجابتي وانطلق من نفسه يشرح:

«سأخبرك أنا لماذا؛ لأنهن تافهات وسهل أن ينشغلن بأي شيء عن تحقيق ما يُردن. ولو تفوقن، يتوقفن دائمًا عند عتبة التفرد! أخبرني، أي امرأة هذه التي لا تنحصر اهتماماتها في

الأكل والخِلفة والجنس؟ العالم لا يحتاج لمثل هذه الكائنات الاستهلاكية، هؤلاء مكانهن أفران الإبادة! العالم أنثى يحتاج لمن يروّضه ويغيّره، وهذا لن يتأتى أبدًا بالرخاوة والرومانسية، بل بالفحولة والقوة! كما أنه من المستحيل أن تروّض أنثى أنثى مثلها، وإلا تبقى علاقة مش مظبوطة. صدقني، نحن البطريركيون فقط من يمكنهم الاضطلاع بهذه المهمة. أعطني امرأة واحدة استطاعت أن تأخذ الإنسانية خلفها لأي رحلة استكشافية! كيف يمكن أن نثق بإنسان لا يملك عضوًا يحميه؟ هنّ يدعين أن مُخّنا في بتاعنا، وهذا جيد جدًّا، لأنه يعني أنهن بلا أمخاخ أصلًا! هذه هي الفقرة التي فوّتها دارون؛ النساء ما زلن عند طور الجسد والعواطف؛ عند الغضب يلجأن للسان واليد؛ مجموعة من الغوريلات لم تكتشف عقولها بعد! والمتفتحات منهن لا يدركن أنهن يضيّعن حقوقًا كثيرة بسبب الأسلوب. صدقني، ليس هناك أخطر على النساء، من النسوية!».

استراح في كرسيِّه وعدل ربطة عنقه:

«والآن، ما رأيك في التهمة الموجَّهة إليك، والمتمثلة في تجسسك على البطريركية لصالح أعدائها؟».

«أنا لا أعرف مَنْ هم أعداؤها أصلًا!».

«كيف؟ الجميع يعرف!».

«ليس حقيقيًّا، ففي كل صباح نستيقظ على أسماء جديدة تُضاف للنشرة».

«يبدو أن اليانسون ساعدك على الاسترخاء في لسانك وليس

أعصابـك!».

عُدت لتوتري. واصل:

«هل تعني مثلًا أن أعداءنا وهميون؟».

«أنا لم أقل ذلك، أقول أني لم أقابلهم بعد، هناك فرق!».

«حسـنًا، اسـمعني جيـدًا، والـدي أسـتاذ جامعـي وأخـي يكتـب أشـعارًا، أقصـد أني مُحـاط بأنـاس عـلى شـاكلتك طـوال الوقـت، واعتـدت التصرفـات الـتي تقومـون بهـا مـن تسـجيل يوميـات وقـراءة قصـص تافهـة وغـيره وغـيره... لـذا، تأكـد أني أفهـم كل مـا يـدور في ذهنـك الآن، وأن في مقـدوري التحـدث معـك بمثـل أجوبتـك، هـل يبـدو لـك كلامـي واضحًـا؟».

«كل الوضوح، أعتقد أن...».

«قل لي، أتعرف المعنى الحقيقي لكلمة «مثقف»؟».

خفـت أن يكـون فخًّـا، ولـم أرد الظهـور أمامـه بشـخصية المـتردد. لكـن حـتى لـو أتـت إجابـتي سـطحية، فهـو في النهايـة موظـف لـدى البطريركيـة، والموظفـون فيمـا لا يخـص مهنتهـم جهلـة بشـكل عـام.

أجبت:

«أعتقـد أنـه الشـخص الـذي يحمـل مـن المعلومـات مـا يجعلـه قـادرًا عـلى فهـم نفسـه أقلـه، وفهـم الآخريـن والحيـاة مـن ثـم...».

«كلامـك ليـس دقيقًـا، سـأخبرك أنـا؛ التثقيـف كان يقصـد بـه قديمـا شَـحْذ السـهم الـذي يسـتخدمه العـرب في القتـال، ومـن

هنا انبثقت كلمة «مثقف»، وهي تُطلق على من نراه حاد الذهن والبصيرة».

ابتسمت كأني مُمتن لما دلقه عليّ من معلومات، ثم أكملت جُملتي التي بترها منذ قليل:

«كنت أقول؛ أعتقد أن كونك عالمًا بنمط شخصيتي، سيساعد هذا في قضيتي».

لم يردّ واكتفى بهز رأسه:

«هل تقدّر، في داخلك وليس بشكل ظاهري، ولا أتحدث هنا عن البطريركية فقط، خطورة التجسس؟».

«طبعًا، لكن أي مُتجسس في عصرنا هذا؟ الذي يدوّن أسراره الخطيرة في ورقة، ويترك دليل إدانته لتعثروا عليه هكذا بكل بساطة، في وقت نملك فيه الأقمار الصناعية؟!».

«إذًا، كيف يتجسس الناس الآن؟».

ابتسمت رغمًا عني، لكني تداركت وأخفيتها سريعًا من على وجهي حتى لا يظن أني أسخر منه:

«ها حضرتك تعود لتحدثني مرة أخرى كجاسوس!».

مد يده إلى درج مكتبه:

«هل تدخن؟».

«لا».

«مستحيل، المثقفون جميعهم يدخنون، فيمَ تنفق أموالك إذًا؟».

تعلمت من درسي السابق ولم أقل الكتب:

«النسوان، أخشى أن أزهق حياتي بالتدخين».

ضحك بصخب، وأخرج من جيب قميصه ورقة بيضاء بدت مثل فاتورة حساب طويلة بلغت الأرض، وقرأ منها:

«لولا الخوف، لأحرق الإنسان نفسه بعدما اخترع النار... قرأتها مرة لا أذكر أين. انظر كم هي جُملة بليغة. أنا أحتفظ بهذه الأقوال المأثورة أينما ذهبت، كما أعلق بعضها على حوائط مكتبي كما ترى. بدأت أخاف أنا أيضًا أن تؤثر السجائر على أدائي الجنسي. أحاول التوقف لكن دون جدوى، حتى أني اشتريت شيشة إلكترونية، أكيد سمعت عنها!».

«نعم، هي رائجة هذه الفترة».

«المهم، ما هي الأساليب الحديثة للتجسس، طالما أنك مثقف؟».

«قصدت من كلامي حضرتك أن الجاسوس الحقيقي في وقتنا الحالي بدلًا من توريط نفسه بأوراق يعبئها في جيبه، يمكنه ببساطة أن يدسّ ميكروفونًا دقيقًا في ملابسه أو في المكان المتواجد به، ولو أني أعتقد أن الجواسيس صارت لديهم تقنيات أحدث من التي أتكلم عنها، ففي النهاية أنا أنقل لحضرتك ما نراه كلنا في الأفلام».

«اسمعني جيدًا، صحيح أننا في عصر حديث وتكنولوچي وكل هذه الترهات التي ذكرتَها، لكن أريدك أن تفهم شيئًا؛ مهما امتد بنا الزمن، ومهما تطورت التقنيات، ستظل دائمًا للفرد مكانته وسط بقية التكتيكات. الفرد هو أساس المعلومة، داخل أي مؤسسة، هو الوحيد الذي بإمكانه أن يجلب لك

المطلوب بلا رتوش أو تحوير، مفهوم؟».

«مفهوم!».

«هل قرأت عن حروب الجيل الثالث والرابع؟».

«لا حقيقة!».

«أنصت لي إذًا، في البدء كانت المعارك عبارة عن جيشين يتقابلان وجهًا لوجه بالسيوف والرماح. ثم ظهر جيل ثانٍ من الحروب، تقليدي مثل الأول، لكن مع وجود دبابات وطائرات، وتسمى هذه النوعية بحرب العصابات، لأنها تتعلق بالمناورات والقتال والاختفاء في ظروف غير تقليدية، الأمر الذي يسبب إرباكًا للجيوش النظامية. لديك أكبر مثال عليها حرب اليمن التي تورطنا بها في الستينيات، بالضبط كما تورط الأمريكان في ڤيتنام، وتورط أتاتورك ضد الدروز في جبال سوريا. ثم أتت حرب الجيل الثالث؛ وهي ما فعلته أمريكا بالعراق بعد ١١ سبتمبر؛ أن تضرب عدوك قبل أن يحزم عتاده لك. وأخيرًا الجيل الرابع؛ وهو حروب لجيش أمام دولة متشرذمة تحاربك بأصابعها المنفلتة كأخطبوط من كل جهة؛ مثل تنظيم داعش أمام جيوش العالم... هل أجيد الشرح أم تُهت مني؟».

«إطلاقًا، لقد استوعبت كل ما قلته حضرتك».

«جيد! أما الآن فنحن في خضم معارك الجيل الخامس، والمعنية بها هي البطريركية وحدها، في تلك الحرب علينا أن نعرّي لهؤلاء المتمردات قضباننا الحادة ونضعها على المائدة، ونعلقها في المطبخ بجوار السكاكين! وهي ليست سياسة حديثة؛ لقد اعتاد چونسون أن يخرجه لهم في الكونجرس حتى يخرسوا. وغاندي... هل تتخيل؟ غاندي كان يضرب زوجته

ويبول عليها بتحريض من أصحابه وهو صغير. ومحمد علي، لم يتمكن المماليك ليلة ذبحهم من مغادرة القلعة لأنه اعترض طريقهم بعضو ذكري يليق بتاجر تبغ ألباني!».

ترددت قليلًا ثم قلت:

«لكني لا أتبع أي جيل من الأجيال التي ذكرتها حضرتك، باستثناء أني أحاول طبعًا مسايرة الأخير منها!».

«أعرف كل شيء!».

«تعرف ماذا حضرتك؟».

«أنك مجرد مثقف بشكل زائد عن اللزوم ولست جاسوسًا! خير لمؤسستنا أن تنبذ أمثالكم، فأنتم أشد خطرًا من اللوطيين!».

«وما فعلتموه معي في أول ليلة؟!».

«البطريركية يا عزيزي صارت مثل فتاة أُغتصبت مرات لا تحصى، حتى صارت تتخذ الحيطة من أي رجل مهما كان شريفًا، هل تفهم قصدي؟ مِن هيئتك عرفت أنك لست كما ظنوا، لكن خذ برأيي؛ في أي مؤسسة هناك دومًا من يتقاضون أجرًا كي يفعلوا أشياء خيّرة تهيّج الجماهير، وهناك من يقبضون لفعل أشياء إجرامية. والنوعان إذا تم الاستغناء عن أحدهما يحدث خلل. وفي النهاية لا تنسَ أن أناسًا أعلى مني منصِبًا هُم منْ ألقوا بك هنا في مكتبي!».

«إذًا، ستدعني أذهب؟».

«طبعًا، لكن لي عندك أولًا عدة مطالب!».

«تحت أمرك!».

«لا تتحدث مع أي أحد من زملائك عما جرى معك، ولا تقتني أي روايات مرة أخرى. وآخر شيء؛ أرجو ألا يؤثر هذا الموقف على علاقتك برجولتك، أعرف أنهم نظروا عبر فتحتك، لكن... هذا مجرد روتين أمني يتعرض له كثيرون هنا، أنا نفسي تعرضت له ذات مرة!».

«مفهوم. في المقابل، اسمح لي بسؤال!».

«تفضل!».

«هل اكتشفتم أمر الكتاب بمفردكم... أم أن أحدًا وشى بي؟».

«امنع الكلام!».

١١

في المساء تحلَّق صبيان البطريركية في دائرة على رمل الشاطئ. إذ أنبأونا أننا سنغادر معسكرهم بلا رجعة في غضون أيام، حاصلين أخيرًا على شهادة ذكورتنا. أشعلوا حطبًا ووزعوا تمرًا. وكان الحضري قد انتخب اثنين عارضًا عليهما أن ينشدا خلفه أغنيته المفضلة في فترة مراهقته، التي كان يلاحق بها وقتها امرأة متزوجة. راقبتُه من خلف الشجر وهو يغني، وفكرتُ في أن هذا الشخص المرح لم يكن ليقصد إيذائي لولا أوامرهم:

جوزي حَنّا في الحمام

يعمل واحد وينام

ثـم مثّلـوا مقطعًـا مـن مسرحيـة لسـعيد صالـح. وفي النهايـة طلـب زميـل بنـبرة مُتخمَـة بالـذوق والخجـل أن نمنحـه الفرصـة كي يُلقـي علينـا قصيـدة روائيـة، كمـا أسـماها، وشرح أنهـا قصيـدة لهـا حدوتـة ومغـزى علينـا فهمـه في النهايـة.

لـم يتخـذ مكانًـا أعـلى ولـم يتنحنـح عـلى عـادة الشـعراء المتكلِّفين، بـل مـشى وسـط الجمـوع، وفي مشيته شرع في قصيدته دون تمهيـد، كأنما يغنيها لنفسـه، حـتى إنهـم انتبهـوا إليـه بعـد عـدة أسـطر منهـا. وبـدا في خُيَلائـه ولمسـه للأشـجار بحنـوٍّ كأنـه ممثـل في فيلـم غنـائي:

شلة ولاد فيهم ولد زي العثل

دكتور بنات اللي انضرب بيه المثل

يعمل أصيل... يعمل جدع

يعمل وسيم... يعمل بطل

يعمل قصاد البنت روميو وإنه بعيونه اتسطل

أي دور بيجسده

دكتور بنات في البرمجة

وناس كتير بتحسده

الواد يا سادة باختصار

بير غويط ملوش أرار

أخد رقمها حضرته، بدأ يدوّن خطته

رهان في شكل مسرحية

بطلها هو وشلته

والاتفاق على قلبها

بعديها ينشدّ الستار

البنت دلوعة

البنت حباية كريز

جسم من النوع اللذيذ

فلقة قمر

صاحبنا شافها قام اتوهم

البنت زي ما شِلته

وصفتْ جمالها في المؤتمر

بدأ ينفذ خطته

يرسم صورتها بفُرشته

بليل يغادر شقته

على بابها علّق رسمته

ويكتب على صورتها

إهداء لأول بنت في حياتي

إهداء لأول بنت حبتها

يطلب رقمها بعدها

البنت تفتح

تلاقي حد بيقولها

عايز دقيقة من وقتها

البنت تتساهل وتسمح

ويا دوب دقيقة بالثواني

والحوار يخلص أوام

تجري على باب شقته

تطلب نفس الرقم تاني

وتسأل صاحبنا بكل دهشة واهتمام

إنت مين؟

يرد هو: «مش مهم!»

هي تقطعه بالكلام

«جبت رقمي طب منين؟!»

هو يسكت ثانيتين

هي تسكت ثانيتين

ثانيتين في ثانيتين

هي قالت روحت فين؟!

هو رد بصوت بطيء

إنه حد مش مهم

نقص دم كانسر

هو قال للبنت إنه عنده

وإن كل يوم صورتها بتناديله في المنام

وإن هي ساكنة حلمه كل ليلة بشكل تام

وإن هي وإن هي وإن هي

ساعة كاملة البنت تايهة

جوه معسول الكلام

***

شهر عدا

وفي يوم تلات تبعت رسالة ع (الواتس آب) بتقول

عرفنا بعض في يوم جميل زي النهارده

الخطة ماشية بانضباط وهي مش بتشك حتى

شهرين يفوتوا

(فوتو) ياخد معاها ألف سيلفي في ألف

وفي يوم يقرر ينفصل

لأنه حقق الرهان

كان المبرر وقتها

إنه صعب يدوم لها

عيان وحيموت بالسرطان

بس اللي حسه منها إنها حتموت عليه

فجأة الحكاية بتتقلب وصاحبنا بتدمع عينيه

***

البنت جاية وشايلة شنطة على كتفها

ولابسة طرحة على غير عادتها وطبعها

قلعتها قدامه بالتصوير البطيء

شالت عشانه خصول ضفاير شعرها

بعد الرهان على قلبها

قام الولد فجأة اكتشف

مع الأسف بيحبها

لكنه خايف يعترف

ومهما أقسم أو حلف

لازم ضروري هتتكسر

صورته الجميلة وشكلها

لكنه صمم ع الحقيقة

وراح يفاجئ شلته

إن الرهان مفسوخ

والعقد متكنسل

وإن التحدي فنيتو

وهو مستنزل

وإنه هيقول الحقيقة للبنت على فكرة

وحيركع قصاد الكل قصادها من بكرة

الشِلة سامعة كل الجُمل دي وساكتة

زي اللي بتعاني من صدمة أو سكتة

فجأة السكوت يتفك

وتهل ريحة شك

وصاحبنا حس بعيونه معمية

والشِلة تضحك ضحك سخرية

وبكرة ييجي ويروح لغاية عندها

يركع قصادها يحلف بإنه محقوق لها

يبكي بصوت مسموع

يحكي عن لعبته ويطلب عفوها

بس الغريب لحظتها

في الصدمة مش أكتر

تظهر صور شلته من قلب شقتها

كاميرات كتير شافت ركوعه لحظتها

الصدمة لونها جديد

الضحك صوته يزيد

البنت والشلة مع بعض من الأول

وفصول المسرحية في لحظة تتحول

وإن الولد يخسر

مع إنه حب بجد

وإن القديم يكسب

علشان محبش حد

وإن الستار يتشد

الستار مشدود

وصاحبنا طوب مهدود

كل اللي كانوا معاك

اتفقوا فجأة عليك

مين اللي قالك مين

آمن وغمي عينيك

عادي الصحاب خاينين

مبقاش في شيء مضمون

مبقاش في شيء أصلي

اعمل حساب الظرف

فتح عينيك في النور

ممكن تكون البطل

ونلعب عليك الدور

في حركة واحدة، كأنهم طوال مدة إلقائه لقصيدته حسبوا توقيت هذه اللحظة، انتصب الزملاء جميعهم من على الأرض واقفين. وراحوا يصفقون بأيادٍ مرتفعة وأوجه تتلفت يمينًا ويسارًا تراقب إن كان هناك من لم يصفق بعد. بينما وقفت أنا بالخلف أرقب أيديهم الممتدة لأعلى وهي تتحرك بأصابعها تحت وهج المصابيح مثل ألسنة لهب. ورفعت بصري فرأيت صبيانًا فوق الشجر، وفي الشرفات، لا يكفّون عن إقحام أصابعهم في أفواههم، يصفّرون بصوت عال ثم يهتفون: «عاش يا عالمي... الواد ده فنان... النسوان كلها بنت قحبة يا صاحبي!».

أما هو فتحرر فجأة من تحفظه، وخلع طاقيته بكل رزانة وتمرُّس نجومي، وانحنى انحناءة كاملة. ولعل ما زاد ثقته بنفسه؛ أن أغلب القمادين كانوا واقفين بمكان ليس ببعيد، وعلى وجوههم، لأول مرة، ليست ابتسامة القادة، بل المُريدين. فهُم بلا شك تحت بذلاتهم الرسمية البيضاء، يحملون مراهقين اجتازوا يومًا تلك القصة الرومانسية الفاشلة في قصيدته. قُذفت عليه الورود بينما يكرر هو انحناءاته المسرحية ويستقبل عطايا الإعجاب، ويوشوش مَنْ يصطفيهم مِن الجمهور فيطوّقهم بذراعه ويضحك لهم.

تبعثر الحشد وضاقت الدائرة حوله. ظهر في يده فجأة قلم وراح يوقّع لهم أوراقًا صغيرة. اقتربتُ من أحدهم وقرأت المكتوب فوجدته اسمه الذي تركه لهم كي يبحثوا بواسطته على الإنترنت عن بقية كتاباته.

تركتهم وتمشيت على الشاطئ. لم أشعر أني في حاجة للبحث

عن چيت لي. وقفت أتأمل آخر ما يمكن أن ترصده عيناي من أفق البحر. كانت حفَّارات البترول عادة في هذا الوقت من الليل تكون مضاءة بلمبات هائلة العدد، تجعلها مثل ثُريات ضخمة أو أجرام مشتعلة سقطت من السماء إلى البحر. لطالما تمنيت أن أهبط على سطح واحدة منها بهليكوبتر. كثيرًا ما كانت تمر فوقنا المروحيات المتجهة لتلك الجُزر النورانية، وكانت أعيننا لا تفارقها بالرغم من أنها صارت شيئًا مكررًا، وأنها لن تلتقطنا أبدًا.

رأيت أبي قادمًا من بعيد يهرول نحوي. لم أقابله منذ أفرجوا عني. فكرت أن أسأله إن كان هو مَنْ وشى بأمر الكتاب، كانتقام منه على مسرحيتي، لكني وضعت فرضًا باحتمالية جهله بالموضوع برُمَّته، وتذكرت تحذير المُحقق، فحاولت أن أتظاهر بتأمُّلي للحفَّارات. اقترب مني، بطنه الضخمة تتماوج، وفمه مفتوح من اللهاث. وقبل أن يصل إليّ صرخ: «الواقي! الواقي!».

هممتُ بوضع يدي على كتفه كي أهدئ من روعه، لكني أنزلتها فورًا.

***

أخبرني أستاذي اليوم في مدارس الأحد أني لن أتمكن في حياتي من منح أي حنان للآخرين، لأن أمي أتخمتني به.

***

أمسك بياقة سُترته ووجّهها لي. لم يبد على وجهي أي ملمح إذ لم أدرك بعد ما يقصده، فنهرني:

«واقيّ! لقد سقط».

أعترف بأنهم لو ذبحوا رأسه على الشاطئ، ورأيت دماءه وهي تمتزج بماء البحر، لن يساورني أدنى أسى، ومع ذلك جملة «الواقي سقط» كانت كفيلة بأن تُرعبني.

«كيف سقط؟!».

«لا أعرف، ربما وأنا أغير ملابسي، أو ربما سقط في عين الحمّام وأنا أقضي حاجتي، لا أعرف، لا أعرف!».

«اهدأ من فضلك!».

جذبته داخل الغابة المُطلّة على البحر حتى لا يسمعنا أحد:

«لنبحث في الأماكن التي قصدتها اليوم، لكن علينا أن نفعلها بسرعة قبل أن ينتبه أحد إلى ياقتك الخالية».

تبعني، ومن توتره سمعته يحكّ بجزمته في الأرض أثناء مشيه. ثم بدأ يأمرني بعصبية كي أبحث هنا وهناك كأني أنا من أضعته. الناس نوعان في المِحن؛ نوع ينكمش والآخر يتضخّم، كان أبي الأسوأ. إلا أنه مع غضبه هذا، لم يستطع أن يوارب نبرة الذعر في صوته. فمهما كانت سطوته في البيت، كان لا بد لها أن تختفي أمام رجال البطريركية. لكني وجدت نفسي أنا الآخر تحت وطأة جنونه وجزعه أبحث بشكل محموم، دون التفكير في مدى استحقاقه مساندتي من عدمها. وكنت مشتتًا بين واقعة تسليك الحمّام التي أنجزناها سويةً، وواقعة اعتقالي الأخيرة التي بلا شك يقف وراءها واشٍ. مشّطنا الغابة وساحة الطابور بالكامل دون أن نعثر على شيء. وكان الوقت تأخر ونوبة النوم ستبدأ بعد دقائق، وأثناءها يُمنع تواجد أي فرد خارج سريره، وإلا يكون في نظرهم «ج» أو «خ». وهما

التهمتـان اللتـان بالـكاد نجـوت منهمـا.

«الصباح أفضل، لا يمكننا أن نرى شيئًا الآن!».

كنت أعرف أني أكذب عليه وأننا مستحيل نجده!

«سيلحظون سترتي الخالية قبل أن يأتي هذا الصباح! يجب أن نجده الليلة».

نجده! هل ينتظر مني العرفان بمساعدته لي يوم سلّك الحمام معي، أم سيتحلى بشيم الآباء ويردد آيتهم الكاذبة: «كل ما فعلته معك، لم أنتظر من وراءه أي مقابل!».

«تجنب الكل حتى الغد!».

سمعت زفيرًا جهة البحر. استدرت فرأيت شبحًا لم أتبين ملامحه. نبرة صوت الشبح المتواضعة وهو يأمرنا بالتقدم نحوه أوحت بأنه زميل وليس قومندانًا. أخبرنا وهو ينهج أن دوناتيلو يقف هناك ويريدنا نحن الاثنين. تيقنت من التهمة التي نحن بصدد مواجهتها. مشينا ببطء نحو السلحفاة العجوز، وفي الطريق إليه فكرت في أي شيء أتلوه على أبي قبل وصولنا، لكني تخبطت في تشريح هذه الجملة المكبوتة، إن كانت عتابًا أو ثورة أو مجرد سؤال؟

قبل أي شيء أمرنا دوناتيلو أن نخرج الهاتف الذي معنا. وحينما أخبرناه بأننا لا نملك واحدًا، تعجب:

«إذًا، ما الذي كنتما تفعلانه في الخفاء، وفي هذا الوقت المتأخر؟!».

حملق فينا للحظات، ثم مدّ رأسه من جذعه كسلحفاة

حقيقـة:

«هل كنتما تفعلان قلة أدب؟».

محـركًا إصبعـه الوسـطى يُمنـةً ويُسرةً. فرفعـت حاحـبي دون أن يـراني وابتلعـت ريقـي. ثـم سـألنا محـذرًا:

«أستخبراني، أم أخبر البطريركية كلها بأن في وسطنا لوطيين؟».

لا أريـد أن أمسـك بعضـو أحدهـم مـرة أخـرى. خاصـة عضـو أبي إذا حبسـوني معـه!

توسَّـل لـه أبي متلعثمًـا، أمـا أنـا فكنـت أقـدم نفـس التضرعـات، لكـن في سري.

«حسنًا... كيفما تشاءان!».

استدار نحو الهنجر، فناديته مرتعدًا:

«انتظر من فضلك...».

«أفندم!».

«الحقيقة أننا كنا نبحث عن شيء ضاع».

تحاشيت أن ألمح رد فعل أبي بطرف عيني.

«أي شيء هذا؟».

«لقد أضاع...».

رفعتُ سبابتي المرتعشة نحو ياقة سترته.

يهوذا أسلم المسيح بقُبلة، وأنا أسلمت أبي،

بحركة من إصبعي.

***

دوت في أرجاء البطريركية صافرات إنذار تتصاعد في درجة إثارتها ثم تهبط تدريجيًّا، كتلك التي تسبق الغارات، وتخللها صوت ماما شرشر تهتف من سماعات التنبيه: هذا ليس تدريبًا... هذا ليس تدريبًا! أضيئت العنابر. تدافع الرِّفاق حفاةً بأعينهم النصف مفتوحة وبيجاماتهم الخفيفة وأعضائهم المنتصبة. أديرت الحنفيات وسال الماء على الأرض. لا وقت للاستحمام أو غسيل الوجه أو حلاقة الذقن. الحكمدارية يصيحون بشكل هستيري ويصفعون أي مُتباطئ. الصبيان يجذبون زملاءهم الذين لا يزالون نيامًا من فوق الأسِرَّة. والذين استيقظوا انزووا في أي ركن يمسّدون ذقونهم بالأمواس على الناشف. تمموا على مدياتهم وأوقيتهم. غادروا العنابر ونزلوا جميعهم للحوش. الجو بارد وأجسادهم دافئة بفعل النوم. رأيت كل القمادين على المنصة بينما كلاب البطريركية السوداء النهمة انتصبت أمامهم تنبح. وأسفل العلم وقف البطريرك وخلفه رتل من رجاله يتشاورون قلقين. ثم تحدث في الميكروفون بنبرة ناعسة، لكن مذعورة:

«ستكون ليلة طين على أدمغتكم إذا لم تتفهموا كل حرف من كلامي؛ زميل لكم أضاع واقيه! لقد بحث عنه هو وأصدقاؤه، وبحثنا نحن أيضًا بأنفسنا قبل أن نضطر لإنزالكم من عنابركم، لكننا للأسف لم نعثر على شيء. وبالتالي سنستغل أعدادكم الضخمة في تنقيب كل شبر من البطريركية بحثًا عنه. وأود أن أخبركم أن مسألة إيجاده ليست خيارًا أو مساعدة منكم، نهائيًّا! لأنه لو طلع علينا الصبح وهو لا يزال مفقودًا، ستكون نهايتكم ونهايتنا جميعًا معكم، السجن. وأنا

لست مستعدًّا أن أختتم فترتي في هذه المؤسسة المرموقة بفضيحة سخيفة من هذا النوع. سنجده يعني سنجده! حتى لو تطلب الأمر أن تلحسوا هذا البحر! ستصيرون دودًا وسمكًا ونوارس حتى تعثروا عليه...».

لمحته مُعاقبًا، يقف بجانبهم ورأسه منكّس. أعرف أنه يرتعش الآن. أعرف أنه لا يود من الحياة شيئًا سوى أن يجري إليّ ويرتمي في حضني، أو يحملق في عينيّ فقط، أو يذهب ليصطاد بسنارته البوص وشبشبه الزنوبة طوال حياته، حتى لا يتعرف على أمي وينجب ذلك الولد المُهلك. تقززت من نفسي. تنصلتُ من قلقي على شخص لم ينجز في حياته شيئًا سوى مُلاحقتي.

سرتْ همهمة بين الصفوف؛ تعجبوا كيف جرؤ أحد على إضاعة رمز رجولته وشرفه، وبعضهم تمنطق بمنطقه وبدأ يتساءل أين يمكن لهذا الكاندوم الذي في حجم علكة أن يكون راقدًا الآن، في هذه المدينة المصغرة التي يصعب العثور على زميلك فيها وقت الغداء! والبعض الآخر لجأ لنظرية المؤامرة وشكّ في أن يكون الأمر برمته مدبرًا من قِبل الإدارة، أو من قِبل الزميل الذي أضاع الواقي، كي يجده زميله ويحتفلا بالمكافأة سويةً. هذا السيناريو الأخير ليس في صالحي تمامًا!

«ستبحثون وسط الحشائش، وفوق الشجر، وأعلى الأسطح، وفي دياجير البلاعات، وتحت رمل البحر، وفي هياكل اللنشات الراسية على الشاطئ، وفي أشولة الحبوب، وغرف الثلاجات، وداخل أهرامات مصاصة القصب المتكومة خلف المعصرة.

وفي دواليبكم الخاصة التي قمتم بتحصينها بأقفال. اذهبوا وابحثوا جميعكم يا أوغاد عن لعبة مطاطية بمقاسات ثقوب أمهاتكم!».

لم يكد يكمل كلامه حتى انتشر الحُرّاس في كل مكان حولنا، وأتانا من فوقنا صوت مزعج جدًّا، لكنه مألوف. وتطايرت قبعات القمادين واهتزت أكمام بيجامات الرفاق والتصقت من شدة الهواء أقمشتها الخفيفة بأجسادهم، فأبرزت مؤخراتهم الكبيرة المشقوقة وكروشهم المنبعجة. التفتنا برؤوسنا خلف الطابور لنجد مروحية لم نر منها في الظلام سوى لمبة حمراء تومض وتنطفئ في بطنها. يبدو أن الأمر جد خطير لدرجة أن تسخّر البطريركية طائرة كي تبحث عن واقي أبي.

مثل أُسود مُجنَّحة حطّ صبيان البطريركية فوق الهنجر العملاق، وحلّوا فوق قمم المظلات الجبسية التي يحتمي أسفلها البطاركة من شمس الصيف في المؤتمرات والاحتفالات. البلاعات في الأزقة نُزعت شبكاتها وألقوا بأنفسهم فيها بكل إيثار ومحبة. وفي العنبر، أخلوا أسرّتهم إلا من هياكلها المعدنية، ونفضوا الملاءات وأكياس المخدات. فتشوا حقائب بعضهم بعضًا لعله قفز هنا أو هناك. وفي الحمامات وصل بهم الأمر إلى أنهم أخرجوا الغائط من عيون الأرض ومرّروه من مصاف شبكية.

طاف الصبيان حول الهنجر في مجموعات، مستشعرين قوة من المسئولية الأمنية التي ألقتها عليهم البطريركية فجأة، محوّلة إياهم من خصيان لغيلان بصحبتها كلاب مخيفة

جعلوها تشتم عضو أبي، موجهين في كل الأرجاء كشافات زودونا بها جميعنا، مصنوعة من معدن ونورها مؤثر.

وفي الغابة سارت جرّافات «الكاتربيلر» العملاقة تقلّب الرمل. تساندها في مهمة التنقيب كشافات ساطعة تتحرك من فوق الأبراج. وإبان حركة تقليب الرمل طفتْ على السطح متعلقات أثرية لذكور سكنوا هذه البقعة قبلنا. سلطتُ عليها كشافي ورحت أستكشفها دون مناداة أحدهم، فوجدت عملات معدنية نُقش عليها رجل بدائي عارٍ يضاجع امرأة مثل كلبة. ولوحة مهترئة للرجل الفيتروفي وهو يستمني بأياديه الأربعة. وتمثال فرعوني لإله خشبي انتصب قضيبه الطويل بما يسمح أن يكون سريرًا لحبيبته. ومجسمات صغيرة لنسور صدئة أحكمت مخالبها على هضبتين، دققت النظر فوجدتهما نهدين. وصفارة بحرية بفتحة مهبلية. وحربة طويلة تنتهي بحشفة قضيب. وأسطرلاب عربي قديم تقطعه مسطرة على شكل عضو ذكري. ومخطوطة تحكي قصة فلكي عاش في القرن الخامس عشر يدعى «أولوغ بك»، اشتغل بالتنجيم واستطاع أن يعرف من اقترانات بعض الكواكب السيارة أن ابنه البكر سيقتله... ونسخة مُحرفة للتوراة تحكي عن آدم الذي قتل حواء، مِن طول فترة تجريبه فيها وبحثه عن موضع ولوجه. وبعد أن أدخله في أذنيها ومنخاريها وسُرّتها، أُنهِكت وماتت. فيطلب من الرب أن يأخذ ضلعًا جديدًا ويصنع له حواء أخرى. وأخيرًا ورقة مكرمشة. فردتها. كان جانبها مُشرشَرًا كأنها أُقتطعت من كتاب، ورُسم عليها الآتي:

الهنود أطفال نساء (زوجات)

_____ = _____ = _____

الأسبان كبار رجال (أزواج)

حيوانات (قرود) وحشية جموح مادة

_____ = _____ = _____ = _____

بشر رأفة اعتدال شكل

جسد شهوة شر

_____ = _____ = _____

روح عقل خير

عرفت أن الصبح اقترب لما رفعت عيني للسماء ورأيتها اصطبغت بلون اللاڤندر. فاعتبرتها علامة انتصار أمي على البطريركية. مثل قوس قزح في العهد القديم الذي كان علامة انهيار ألوهيم أمام شعبه. ورأيت الأولاد محصورين على طول الألسنة الصخرية التي تمتد داخل البحر، مثل خنازير مخصية تندفع للجرف. وكان بعضهم يتلكأ هائمًا، فعرفت من حركته المتباطئة أنه لا يبحث عن شيء بعينه، وإنما فقط ينفذ الأوامر. وافترش كثير منهم الرمل في حركات بائسة، مثل لاجئين غرق على شواطئ ناعمة، أنارها ماء المدّ الملتمع تحت أثر الكشافات.

ولمّا يأس البطاركة من غربلة اليابسة، تذكر البحر الأم التي ولدتْ زوجًا من زوجها وأبناء من أبنائها، فأضيئت ظلمة مياهه بدمائها. كأن الدماء صارت أعماقه، فصنعتْ منه شفقًا متلألئًا.

وصار قاع البحر مريًّا، فانتهز القمادين الفرصة وأتوا بأقنعة غطس، وسألوا عمن يستطيع السباحة، فتطوع البعض مقابل ساعة حرة مع المرأة ذات القضيب.

كنت أرقب كل شيء من خلف شجرة لها بدن عملاق، تسلّقته عروق غليظة وتشابكت حوله مثل ضفائر فتاة. احتميتُ بالشجرة من هبّات الريح الباردة التي كان يرسلها البحر تجاهي. قبضتْ على مؤخرة عنقي يدٌ ضخمة. لم أشعر أول الأمر بالخطر، بقدر ما وخزني ألم. تمادى صاحب اليد فطوّقني بذراعه. ضمَّ رأسي لصدره المُشعر. سمعت قلبه يخفق أسرع مني. همس في أذني وقد أخذني بعيدًا عن الجميع

داخل الغابة: «لقد قذفتهم مرة فخلقتك...».

وكأنه يعني أن إنهاء الأمر أسهل!

ناجيته قائلًا:

«حاولت أن أساعدك!».

«اخرس، سأقتلك، أنت مَنْ وشيتَ بي!».

حاولت الفكاك والالتفات له. ضيّق زاوية ذراعه حول رقبتي. سأموت الآن دون أن ينتبه أحدهم؟ لماذا لم أقتله منذ رأيته معي في البطريركية؟ لم تكن الفرصة تتمثل في فوزي بماما فقط، بل في التخلص منه نهائيًّا. قتله ليس جريمة! لقد أماتني هو أولًا حينما أوجدني. قتله ليس سوى عودة للنقطة التي انطلق هو منها. أرتعب من أن ينتصر عليّ بهذه الخِسَّة، وسط انشغالهم بواقيه. سيدفنني هنا حيث اصطدنا وفضفضنا. سيعود لأمي ويذرف الدمع على جسدها العاري، سيعجن دمعه بمنيِّه على جلدها. سيعبِّئ تلك الوصفة التي لا تخيب، في قارورة تفوح منها رائحة، لا يمكن لأي امرأة أن تشيح بأنفها عنها!

لماذا ينجبوننا؟ استدعاؤهم لنا كان الأنانية في كامل عريها. أمن أجل الخلود تُرتكب مثل هذه الجرائم البيولوجية؟ أحقًّا لم يجدوا وسيلة أكثر إبداعًا؟! الآن عرفت لماذا يكره الأهالي أن يصير ابنهم فنانًا، لأنه يصل للخلود بمفرده دون أي عوالق على كاهله. أو لأنهم يرون أساليبه التخليدية، مقارنة بطرقهم الحيوانية، شيئًا إلهيًا!

إن ملايين الحيوانات المنوية تجري على الورق، تخصب أجيالًا لم تأت بعد، توصم ملايين البشر بفكرة شخصية، يقدسونها مثل الدين، أفضل كثيرًا من إهدارهم في تلك البئر الفاچنتية[1]. بئر تتقافز منها شياطين تحاول الفتك بمن دلّى لها حبل الوجود.

العزوة ضوضاء ونكبة. الأبناء مرايا مخيفة تبرز انعواجك في كل موضع من روحك، مثل بيوت المرايا في مدن الملاهي، التي لا تُظهرك دومًا مضحكًا. يمكنك العيش دون الحاجة لكائنات تأتي مُشوهة بحكمة من الرب، أو تشوهها أنت فيما بعد، بحكم ما عانيته في معتقلات طفولتك الأولى. لا حاجة كي تعير امرأةً ما نشوةَ وجودك. لا حاجة لذلك الارتباط الكاثوليكي حد التفسُّخ. لا حاجة لتفكيك جسدك، والتحول لآخرين يشبهونك حد البشاعة، توزع عليهم مثل بابا نويل ليلة ميلادهم، قسماتك وأنفك ونبرة صوتك.

أيها الغبي، أنصت لهذه الآية من إنجيلي الشخصي: حتى لو لم يتوفر أبناء يحملون يومها تابوتك، يمكنك في هذه الحالة أيضًا أن تفرّ لخلودك!

سقطنا سويةً على الأرض دون أن تفلتني يداه. سمعت إطار نظارتي يطقطق. عجز مقيت تملّكني منذ لحظة الولادة. حاولت التملص بلا فائدة. هل كنت في رحمها أتشاجر معه وهو يعتليها. حاربته مرة قبل أن يسقط هذا الجدار. معركة أدارتها العناية الأمومية. ليته كان مجرد مُعتدٍ. حينما يتعرض لك بلطجي في الشارع لا تعرفه، فأنت لا تكنّ له أي كراهية

١- نسبة إلى Vagina.

بعدها، لأنه فعل ما فعله بك لأسباب لا تخصك. تمنيت لو أن هذه الملحمة كانت جزءًا من لعبة يمارسها أب مع ابنه، يمسكه بعنف ويشقلبه ويرفعه بيد واحدة ثم يريحه فوق كتفه الصلبة.

لم أشك أنها النهاية. طافت بي الأنحاء؛ البحر والبنايات والشجر والصبيان، والشمس التي تأكدت أني سأفارق المكان قبل أن تكتمل استدارتها. فقط لو يلتفت لنا أحدهم! غرزت يدي في الرمال، وقلت لنفسي سأكون مدفونًا هنا اليوم. رفعت أصابعي فجأة وحاوطته من الخلف بها. لم يخمن ماذا أفعل ولم يهتم. كان مُنقضًا على رقبتي. مددت يدي وعرّيت مؤخرته. شرختها بقبضتي. قبضتُ على كرمة بواسيره. اعتصرتها لتعطي نبيذًا كريمًا. صرخ وحلّق من فوقي. انقلبتُ على بطني وزحفت متأهبًا للركض. نهضت بشكل نصفي. إذ في منتصف الحركة، حينما كان خصري لا يزال معلقًا في الهواء بين وضعيْ الزحف والمشي، قفز هو فوق ظهري حتى انغرزت أظافر قدميه المعقوفة أعلى مؤخرتي. تسلّقني بينما أهوي بجسدي نحو الأرض مجددًا. ووطأني. مشى فوقي. مشى حتى رأسي بتؤدة. اندفن وجهي بأكمله في الرمل فاستحالت زفارته لرائحة أنفاس ماما. تمكنت من التقلّب أسفله. خنقني بيديه. وفي مقدمات الموت لمحت ذلك المشهد الذي قاتل فيه يعقوب الله. تُرى، لو قابلت «أدوناي» سأجده هو الآخر مُشعرًا، وجسده له رائحة الملح؟

حل الظلام واختفت أصوات الكلاب والصبيان والجرّافات.

ومن وسط العتمة انبثق اثنان يتصارعان، خمَّنت أنهما يعقوب والله. لم تكن ملامحهما واقعية. بل بدت الأوجه والملابس كأنها أُقتطعت من تلك اللوحات التي تتعرَّى فيها الأفخاذ وتبرّق العيون. كان شعرهما بنيًّا متموجًا ثقيلًا. على جسديهما مجرد إزار يغطي خصريهما. حافيان، أقدامهما ملطخة بالطين. ملامحهما شيطانية. ومن الظلام الذي يلفهما اتسع شيء مثل ثقب. تسلل منه ضوء كريستالي. أمسك يعقوب بالثقب وقذفه لي وهو يغمز بعينه. مددت يدي وأمسكته. كان واقي أبي ملطخًا بالدم. دمها! عرفته في الحال. استوعبته في راحة يدي ورفعته أمام وجهه. أفلتَ رقبتي. تساقطَتْ من كفي حبات رمل ممزوجة بدم أمي، على وجهي، تطهرني. استكان ونزل من فوقي كفحل قذفهم لتوِّه. استلقيتُ على بطني وأنا أكحّ باهتياج. كنت أتمرغ في الرمل مثل طفيل اقتات على أحشائه طويلًا، وها هو لفظه أخيرًا ممزوجًا بدمه.

برغم كل ما ارتكبه في حقي طوال سني حياته وحياتي، أعترف بأني لا أجرؤ على أذيته. أستطيع أن أقوم بكل ما يرتكبه نجوم البورنو والأكشن. لكني لا أستطيع التخلص منه. شيءٌ ما يتنامى داخلنا منذ الصغر ونتركه يتمدد ويتمدد حتى يكبّلنا في اللحظة الحرجة. كأن تمتنع عن مضاجعة عمّتك إذا طلبتْ هي ذلك منك لأنها عمتك. من يعتَد أمرًا يصبح سيّد عاداته! في بداية علاقتي بعاهرتي الحبيبة كان يؤلمني جدًّا كذبها المتكرر عليّ. لكن للغرابة، ما كان يثير حنقي هو براعتها في الكذب، وليس الكذب ذاته. لم تكن ماهرة فقط، بل كانت تنشد

أكاذيبها كترنيمة متوحِّدة معها. لم تكن بالشيء الدخيل على عقلها. لقد اعتادت فعلها مع والديها وإخوتها، لأنها نشأت في بيت بطريركي مستقر يراقب أعضاؤه بعضهم بعضًا مثل الجستابو. كنت أحسدها. لماذا لا أستطيع أن أحاكيها يومًا، ألأني أطهر منها؟ مستحيل! كل ما في الأمر أني نشأت في بيت من رمل، لأب غائب وأم رعناء.

لم يسلّمهم أبي الواقي مباشرة. بل رماه في المنطقة التي كان يبحث فيها ذلك الزميل، الذي أراد تدخين سيجارته في الكنيسة. وجده العبيط فهلل وقفز. احتشدت البطريركية بكامل صبيانها وقمادينها حول بطل الموقعة حتى كادوا يدهسونه. حملوه على أكتافهم ومشوا يكبّرون ويغنون قائلين:

يا بحر يا أبو البحور

صيد السمك غية

وأنا اللي أحب الجمال

وأحب الملاغية

***

أثناء نومنا داهم العنبر السفلي رجال لم يتعرف عليهم أحد. أثاروا رعب الجميع، حتى إن الزملاء جميعهم تظاهروا بالنوم ولم يتحركوا من تحت بطانياتهم، حتى حينما سمعوهم يجرّون أبي ومعه رفيق السيجارة خارجًا. في الصباح تسربت إلينا أخبار مفادها خضوعهما لتحقيق صارم في إحدى البنايات، لكننا لن نراهما بعد اليوم، ولن ينامنا معنا في

العنـبر مجـددًا. لقـد أُتهمـا بالتآمـر. لـم تفهـم البطريركيـة أن أبي مـا زال صغـيرًا، لـم يلتفـت للبـشر الذيـن أنتجهـم، كي يلتفـت لفسـتان شـفاف حـول عضـوه.

١٢

لكزني الحضري بعنف وأنا نائم. أفقت فوجدت العنبر خاليًا إلا مني. أخبرني أن هناك حفلًا كبيرًا مُقامًا في الحوْش، وأنهم يريدونني حالًا. انتفضت من على السرير، وارتديت زيي، وعلقت دبوس الواقي في سترتي. هذه المرة بعد الإطاحة بأبي، شعرت كم أن هذه العلكة على صدري مقدسة وثقيلة. نزلت فرأيت أرض الطابور وقد بدت مثل سيرك. السارية ترفرف عليها شارات وردية صغيرة اعتلاها علم البطريركية. وأسفلها اصطفت فرقة موسيقية لرجال مُسنين، تحيط بخصور بعضهم طبول، والبعض الآخر يمسك بأبواق نحاسية ذات أفواه كبيرة. وفي كامل الحوش انتصبت طوابير الصبيان وهم يرتدون جميعهم كيلوتات بيضاء، ورؤوسهم ناعمة مثل بواطن أرجلهم، بينما قمادينهم يلتهمونني بنظرات تملؤها الغبطة أو التشفي.

جريت وسطهم، وكلما تجاوزتهم استدارتْ الرؤوس نحوي. كنت أركض بجسدي الضئيل مرتديًا نظارتي التي انكسر ضلعها في معركة الفجر. لكني، ولأول مرة في حياتي، لم أشعر بالشفقة تجاه ضآلتي. ربما لأن بابا لم يعد، ولن يصير موجودًا بعد الآن. أو ربما لأن دوناتيلو بنفسه هو منْ ينتظرني عند المنصة كي أتقدم نحوه. لكنه لم يبتسم. ولم أر البطريرك بينهم. هل لا يزال مقتنعًا أني شخص مشبوه، فلماذا اقتادوني إذًا لحفلهم؟ هل سيقطعونه على مرأى من الجميع كي أكون عبرة لزملائي؟! أهو احتفال أم حفل إخصاء؟

نهرني دوناتيلو:

«اسمع يا ٢٤٢، لقد فزت بجائزة القضيب البرونزي».

«أنا!»

انتبهت أني تركت فمي مفتوحًا فأغلقته، ثم سألته:

«لكن حضرتك أنا شخص معتوه!».

«امنع الكلام! هذا من أجل ما فعلته بأبيك، كي يتعلم زملاتك!».

انتزع الكاندوم من صدري، فوضعت يدي على موضعه كأنه عراني. التفتّ يمينه لأحد مساعديه:

«سلّمه جائزته!».

لم أقدر حتى على الابتسام؛ كان احتفالًا مُتحفِّظًا لا يختلف عن اللجنة التي تعرّينا أمامها في تشريفة استقبالنا. قلّبت نظري في أيديهم المشبوكة خلف ظهورهم أبحث عن أي

قضيب ذهبي منتصب كالأوسكار أو صندوق به درع. لكنهم لم يحركوها ولم ينطقوا بجُملة. سمعت صوتًا لزِجًا أتاني من خلفي كأنه لحَيَّةٍ ضخمة تمرِّغ بطنها في الأرض. التفتُّ فوجدتها تتقدَّم نحوي متسربلةً بفستان زفاف. انتحى أمامها البطاركة بصلعاتهم ونياشينهم. كان وجهها مغطى بشبكة من التول مثل العرائس، وابتسامتها كشفت عن أسنان صفراء معوجة سقط بعضها. مع ذلك كانت أبهى النساء. أبهى حتى من التي تركتها في المنزل. راعوث! ناديتها. خطوتُ نحوها مُرتبكًا. استغربتْ بشرتي بعد أن حمَّصتها الشمس، التي كانت قاسية جدًّا هنا رغم أني لم أغادر مدينتي الأم، كأنهم تعمدوا بناء معسكرهم في هذا المكان كي تجف أعوادنا وتسمرّ سحناتنا. لكن حتى لو صح ظني تجاه خططهم، لِم كانت هذه البقعة دون غيرها من بقاع مدينتنا الساحلية شمسها مستعرة بهذا الجنون؟! لدرجة أني أصبت ثلاث مرات بنزلات برد، وجميعها غادرت بدني من تلقاء ذاتها لمجرد وقفتي المستديمة في الحوش بالساعات في وضح النهار.

اعتصرتُ يديها الملفوفتين بقفازين من الستان، وألقيتُ بعينيّ في عينيها الفَرِحتين. ثم هتف رفيق يقف على المنصة بالكيلوت، مُمسكًا منشورًا يقرأ منه:

«مبارك أنتَ أيها الابن الشجاع، لقد انتصرتَ على أبيك انتصارًا لم تشهده البطريركية من قبل، والآن يمكنك أن تنفرد بأمك، لأنك أثبتَّ فحولةً أكثر من التي أتت بك إلى هذا العالم، فهنيئًا لك امرأته!».

«ألا تعدون هذا زنا محارم؟!».

زجرني المُحقِّق:

«أيها المتحذلق، نحن أدرى بمصلحة أبناء جنسنا!».

هتف دوناتيلو:

«فلتحيا أبدًا البطريركية!».

ردد الصبيان العراة:

«تحيا أبدًا البطريركية... تحيا أبدًا البطريركية!».

هرشت أسفلي ثم اصطحبتها من يدها. سألتني ماذا يقصدون بكلامهم عن زوجها، فأخبرتها أنها لن تراه ثانيةً. ابتسمتْ وضغطتْ على يدي. مشينا إلى سيارة چيب خصصوها لنا. كانت مكشوفة، ملصوق على أبوابها شعار القضيب إياه، كما زوّقوها بباقات ورد وكتبوا على إطارها الخلفي: نضج لتوّه! حملتها وألقيتها على كرسيها. لمحت حقيبتي وقد حزموها ووضعوها على الكنبة الخلفية للسيارة. أدرت المحرك وحركت مفتاح السرينة. رفعت يدي مُودِّعًا الجميع فرأيت چيت لي ينتحب لكني لم أكترث له، ولمحت قومندان الأمن يقبض من فوق بنطاله على كيس خصيتيه، بينما ينقل إصبعيه من عينيه ويسددهما ناحيتي، كأنه يقول لي: «سأظل أتتبعك!». فارتعبت. انطلقتُ مسرعًا جهة البوابة. صفّق الجميع، لكن بتصنُّع، حتى ترصد الكاميرات اللقطة. بينما أخذت أزيد من سرعتي. وعلى الطريق الموازي للبحر سرتُ بها، يداعبنا الهواء، أتطلع إليها وهي بجانبي.

قضيت أيامي هنا

أرهف السمع لهمهمة البحر

لماذا اعتقدت أنكِ بذلك تحدثينني؟!

الحب له عيناكِ

الحب يشبهك

والأب يشبه الرب!

وقبل أن أغادر بالعربة بوابة البطريركية الأخيرة التي تفضي إلى الشارع، خطر لي فكر شرير فجأة أبطل فرحتي وحوّلها لهاجس مرعب. ألم يكن من السهل أن يجبرني أبي على تسليم الواقي بنفسي، أو يورّطني بشكل ما في التحقيقات. كان في استطاعته على الأقل منعي من أن أكون في هذه السيارة المكشوفة الآن مع امرأته. شيء ما جعله يتراجع عن تدميري لمرة واحدة وأخيرة. لقد أنقذني لنية تبتعد كثيرًا عن الصُّلح والغفران. كأنه يقذفهم من جديد على حبيبته الأرض، كي يسلّطها عليّ وأعيش شريدًا فيها.

***

أخذتني لشقتنا القديمة التي تركناها منذ سنوات. أول ما فتحتْ الباب أمامي رأيت صديقي الأبله الثري الذي غازلته صاحبتي من قبل، مرتديا بيجامتي، حافيًا، يجلس على الكنبة أمام التليفزيون يشاهد مباراة كرة قدم، يأكل حبات الحرنكش من سَبَت ماما المُزَيَّن بالورود، ويدخن الفيب خاصته فيخرج من فمه غمامة واسعة بيضاء تحجب وجهه. وكانت بالقرب منه مطفأة سجائر متخمة بالرماد، وزجاجة نبيذ تبقى فيها ما يكفي لو أردنا الاحتفال. ارتميت في حضنه، لم أكن أريد

مزيـدًا مـن الأعـداء بعدمـا غـادرت البطريركيـة، أمـا هـو فلـم يطوقـني بذراعـه حـتى. ظللـت أبـكي وأمسـد بيـديّ عـلى كتفيـه، بالرغـم مـن معرفـتي بأنـه ضاجـع أمـي طـوال الليلـة السـابقة. عذرتهـا. كانـت وحيـدة هنـا، مثلمـا كنـت هنـاك!

ولمّـا وجدتـه لـم يبادلـني محبـتي، هرعـتُ للمطبـخ. بالطبـع سـمعا صـوتي في الخـارج وأنـا أنـزع درج السـكاكين والمعالـق مـن موضعـه. أعـرف هـذا الصـوت جيـدًا منـذ طفولـتي، وأعـرف مـا تشـعر بـه البقيـة حينمـا تسـمعه بأرجـاء الشـقة. خرجـتُ لهمـا بالسـكين في يـدي. لـم يكـن جالسًـا في مكانـه. وجـدت بـاب الشـقة تُـرك مفتوحًـا. أمـا هـي فهرعـتْ وألقـتْ بنفسـها عـليّ:

«لـم يفعـل سـوى الحـب! أنـت وأبـوك أخذتكمـا البطريركيـة مـني. لـم يكـن هنـاك رجـل بجانبـي. كنـت ألعـب في نفسـي مرتـين يوميًّـا، لكـن حـتى هـذا لا يعـوض وجـود رجـل حقيقـي!».

ضممتهـا إليّ بقسـوة. دلّيـتُ لهـا سُـلم يعقـوب. هربـتْ. ألـم تفعلهـا مـع صاحـبي؟! سـاقطة! ثـم ألـم تحـضر الحفـل برضائهـا مرتديـةً فسـتان الزفـاف!

«نعـم، لأنهـم أخـبروني أنـه يتوجـب عـليّ ارتـداؤه حـتى أتمكـن مـن اسـتلامك».

«لا تكابري، أنتِ تريدينني منذ ولدتني!».

شـتمتني ناعتـة أبي بالكلـب المهتـاج مشـبهة إيـاي بـه. ثـم رجتـني أن أتركهـا وشـأنها. لكمتهـا في عينهـا. خلعـتُ حزامـي وكربجتهـا. حاصرتهـا في أحـد زوايـا البيـت وطفقـت أسـدد اللكمـات لذراعهـا البضـة لأنهـا أأمـن منطقـة يمكـن أن تتلقـى الضربـات بأريحيـة.

كنت أصرخ وأسب وأنشج وأتضرع رغم أني المعتدي. توقفت للحظات آخذ أنفاسي فأزاحتني وجرتْ لغرفة نومها. تركتها تمرُّ، لا أعرف لماذا. كانت غرفة نومها مهيأة لكل شيء تطلبه زوجة بلا رجل؛ شبكة من لمبات حمراء تسلقتْ رأس السرير، وفوق الكومودينو تُركت علب أوقية ذكرية وأصابع موز ضخمة. وبجانب الدولاب ثُبّت عمود طويل بالعرض عُلقت عليه قمصان نوم بألوان متفاوتة، وكورسيهات لانجري كالتي ترتديها نجمات البورنو. الآن عرفت نية زوجها لما تركني أفلت من قبضتهم ونجا هو بالحبس هناك. كان متيقنًا أني سأمقتها لو عرفتها فعلًا. و«عرفتها» هنا يمكن استخدامها على عادة الكتبة التوراتيين بمعنى ضاجعتها. أمسكتُ بحُليّها ومجّاتها التي كان يهديها لها مديروها/عشاقها، وزجاجات عطورها، وألقيتُ بها كلها على الأرض، ثم حطمتُ ما بقي على شكله بكعب جزمتي البطريركية. دفعتني خارج الغرفة فتهاوى جسدي بخفة للوراء. صفعتُها. خربشتني بأظافرها المدهونة بالمانيكير. تحسستُ آثار خربشتها على رقبتي وابتهجتُ بها، كأنها وسام الذكورة المُعترف به في عائلتنا. انتهزتْ فرصة انهماكي في جروحي الطفيفة وحبستْ نفسها بغرفتها. عندها تداركت حالي وشعرتُ بدفء يغمر جسدي، خاصة ظهري الذي ابتل بطبقة عرق خفيفة. ذهبتُ للصالة ووقفت أمام شبّاك المنور، على مرأى من جارتنا المسلمة التي دأبت وقت سكنّا هذه الشقة على مساندة أبي ضد زوجته. كانت تردد من شقتها شتائمه ضدها، فيرتفع الصوت ويصدح في المنور، دون أن تطل صاحبته مرة برأسها من الشباك. مثل ربة أنثى خفية تناصر غول البيت في معركته.

خلعتُ ملابسي إلا سروالي الأبيض الشورت. رحتُ أتجول بحزامي في أرجاء الشقة. ظللت أزعق وأخبط بكفيّ على باب غرفتها. نعتّها بكل الشتائم التي زوداني بها حينما لم أكن أعرف معناها. خرجت للسلم وأخبرت الجيران بصوت عالٍ أن ساكنة هذه الشقة مومس. وأنه من اليوم، صار هناك رجل لهذا البيت! اتصلت بأخي وأختي وأخبرتهما أين تذهب كل يوم وقت دروسها الخصوصية. أمسكت بصورة معلقة على الحائط تجمعها مع جدتي، وكانت أخبرتني ونحن في الطريق إلى البيت أنها توفيت أخيرًا أثناء غيبتي بعد صراع طويل مع الشيطان، فكسرتُ أيقونة أمها نكايةً فيها. أمسكت بريموت التليفزيون وقلّبت القنوات. تركته على قناة رقص شعبي ورفعت صوته. دخّنتُ من الفيب التي نسيها صاحبي. رغم نكهة البرتقال الواضحة فيها، إلا أنها كانت ثقيلة جدًّا، فسعلت مرتين. تركتها. أحضرت نشرة الأخبار. استمنيت على المذيعة مرتين. لطختُ لها شاشة التليفزيون وسجادتها وحذاءَها. ما الفارق بين أن تربي في بيتكِ كلبًا، وبين أن ترعي رجلًا؟ ارتديت البيچامة واستلقيت على الكنبة. مددت يدي تحت البنطال. نمتُ ممسكًا به. لا لغرض بعينه. نمت ممسكًا به مثل ذلك الرجل الذي كان يعيش في شقتنا، في غرفة يسكنها بمفرده، على سرير يعتليه وحده.

في المساء أيقظتني من على الكنبة. كانت قد خلعت فستان الزفاف وارتدت قميص نوم غير مثير. نظفتْ ما فعلتُه بالصالة، وحملتني بين يديها إلى غرفتها. نمنا متعانقين مثل الأزواج. باستثناء أن عضوي لم يرتفع ناحيتها. قلقتُ بعد

منتصف الليل بسبب حلم مزعج رأيت فيه البطاركة وعلى رأسهم قومندان الأمن، وهُم يداهمون شقتنا عبر النوافذ بستراتهم الجلدية التي تشبه راكبي «الهارلي». أسقطوا مكتبتي ووضعوا كتبي في أكياس زبالة سوداء. ثم أيقظني القومندان كي أنزل معهم. استيقظتُ ونكزتها في جنبها. طلبت منها أن أفرغ داخلها توتري، حالًا. وافقتْ خانعةً. أخذتْ وقتًا حتى أفاقت من نومها. فتحتْ ساقيها. تمامًا مثلما رأيتها مع جدتي في الحلم. لماذا لا يقف؟! لماذا لا ينتصب؟! قفزتُ من على السرير. قَررت أن أنزل للصيدلية دون أن أخبرها عن وجهتي. أذكر مرة وأنا صغير أني ضبطتُه وهو يدهن به، يومها وارب باب غرفته تاركًا لي متسعًا للرؤية... بعد أن اشتريته من الصيدلية وصعدت به لها مرة أخرى، دخلتُ من باب الشقة على الحمّام مباشرة، ولم أصادفها في طريقي. جيد! استحممتُ لأول مرة في حمّام بيتنا. وبينما أدفع المياه على الأرضية نحو البلاعة، اشتممت رائحة ديتول، ورأيت ذلك الرفيق الذي دلّكت عضوه ليلتها مُمسِكا بيدي، يدفع معي المياه مبتسمًا. دهنت عضوي بالكريم. وضعت الكثير. كان مثل الثلج على لحمة حمراء. انتظرت قليلًا حتى لم أعد قادرًا على تأكله. اندفعت لحجرتها كي أذبح لها القطة، والعجيب أنها كانت لا تزال في وضعيتها المفرشخة. عذبني هذا ولم يشجعني. شعرت بها تقول: «لِمَ طردتَ صاحبك إذًا؟» فضّلتُ كسبها لصفي والتحدث معها كمُرشِد نفسي. فهي أُمي في نهاية الأمر. حكيت لها عن نظرة قومندان الأمن المتوعدة لي، وعدم ترحيب دوناتيلو لحظة تكريمي... حتى وهو يخبرني أني نلت جائزة القضيب البرونزي، كان بمقدوري

أن أسمع في الخلفية زعيق البطريرك وهو يرددها ثانية وثالثة: «اخرج! لا أريد شواذًّا يقرأون في مكتبي!».

«أنا لستُ شاذًّا. صدقيني، كان هذا الشيء قادرًا هناك أن ينتصب مثل خرسانة. كل ما في الأمر أنهم لا يحبون الكتب. لقد حلمت بهم وهم يخرّبون مكتبتنا ويلقون القبض عليّ».

مسدتْ كتفي وقالت ببرودها الذي ألفته منها في المصائب:

«لا تخف، لقد غادرتها وأنت الآن في بيتك».

«أتظنينني طفلًا كي تهدهديني!».

«أنت رجل، وسيد الرجال كمان».

نفس الجُمل المقيتة، حتى لو كانت تقولها بصدق.

«وماذا يفعل سيد الرجال بهذه اللحمة النيئة».

«ولماذا تشغل بالك بهم أصلًا؟!».

«سيداهمون المنزل في أي وقت! أعرف أنهم يراقبونني».

«لو لديهم عليك شيء لِمَ أفلتوك؟».

«تفكرين كامرأة! يريدون الإيقاع بي مُتلبسًا، محال أن يدعني زوجك أفلت منه بهذه السهولة، مؤكد أنه وشى بي واقترح عليهم مراقبتي».

«وما الجرم الذي ترتكبه؟».

«كل شيء في هذا البيت جدير أن يدينني: مكتبتي. مسوداتي. حتى جلستي المرتخية بجانبك».

***

في الصباح استمتعت بمجرد التمشية في شارع فؤاد. نعم نعم، كم كان محقًّا ماندیلا! جعلتني البطريركية أثمّن الأشياء واللحظات التي خِلتُها في زمن آخر عادية. لكن رغم حريتي التي حصلت عليها وأمي التي تنتظرني مثل عروس بكر في المنزل، شعرت بخواء لا يملؤه شيء. فكرت طبعًا حوالي ثلاثين مرة في الاتصال بروزالين منذ لحظة انعتاقي وإلى الآن، لكني استبعدت الفكرة تمامًا، لأني كنت على يقين من أنها صارت تواعد شخصًا غيري، هذا إن لم تكن خُطبت بالفعل لقبطي ساذج لا يعلم شيئًا عن ماضيها. تسمّرت أمام كُشك جرائد ورحت أتحسس بيدي ملمس الورق. سألني البائع إن كنت سأشتري أم سأكتفي بإتلاف بضاعته. رمقته مستنكرًا. دفعني وأخذ مني الجريدة. مررت أمام حلّاقي ولم أكن في حاجة لمقص يلمس رأسي مجددًا. رفعت بصري لبرج الثغر، وتذكرت حصص الچيولوچيا أيام الثانوية مع تلك الفتاة صاحبة المنزل، التي كانت تخرج علينا بعباءتها وطرحتها السوداء التي تحيط بوجهها البض مثل شخصية «فُلة» الكرتونية. تخيلتها في هذا الصباح تُخرج لرضيعها صدرها الذي انتفخ بعد أن صارت امرأة، بينما زوجها الملتحي يقف أمام مرآة التسريحة يضع من المِسك ويشذب لحيته. تطفلتُ على واجهة مطعم «روستري» الزجاجية فوجدته خاليًا إلا من طالبات الثانوية الألمانية بأدائهن الآنساتي، على عكس فتيات الحكومة بطراوة مشيتهن. وقفت مليًّا أمام بوابة سينما أمير. اقتربتْ مني مراهقة في ملابس رثة. طلبتْ مالًا. فكرتُ أن أصطحبها للداخل. لكني تذكرت عجزي في الفراش ليلة أمس. فنهرتها. مضتْ تهمهم. من شدة ملل اخترت فيلمًا أمريكيًّا

لـه ملصـق إعـلاني سـخيف. تعـارك بعـض الشـباب في الكـراسي الخلفيـة فتخيلـت للوهلـة الأولى أن البطاركـة اقتحمـوا الصالـة وأتـوا ليقبضـوا عـليّ، سـيصحبونني معهـم دون أن يتوقـف الضـوء الأبيـض المرتعـش عـلى الشاشـة، ودون أن يتوقـف النـاس حـتى عـن قضـم الفشـار. خرجـت مـن السـينما تـاركًا الفيلـم قبـل الاسـتراحة. فكـرت أن أعـرّج عـلى الكنيسـة كي أقابـل أحـد الكهنـة وأجـبره عـلى إقنـاع ماما بالوقـوف إلى جانـبي وتحمّـل نكبـتي. لقـد تعاملـتْ بحسـها الأمومـي بشـطارة مـع توتـري ليلـة أمـس، لكـني لا أعلـم إلى مـتى ستسـتمر حنكتهـا ونضالهـا؟ ومـتى سـتتوقف عنـد نقطـة مـا وتطلـب مـني أن تنـال مـا تنالـه أي امـرأة وليسـت أُمًّـا؟ أريـد مـن القساوسـة أن يقنعوهـا بمسـاندتي عـلى الأقـل في هـذه الفـترة حـتى أجتـاز محنـتي وأتمكـن مـن مضاجعتهـا.

ارتعبـت في طريقـي إلى الكنيسـة لمـا تصـورت النتيجـة الحتميـة إذا حُلّـت مشـكلتي ونمـت معهـا. سـأنجبني!

في الكنيسـة لمحـت صدفـة فتـاة جميلـة تغسـل دورة الميـاه. عرفتهـا مـن شـعرها وطيزهـا قبـل أن تسـتدير إليّ. روزالـين، عاهرتي الحبيبـة! شـهقتْ وكادت أن تحضنـني، لكنهـا منعـتْ نفسـها بسـبب مريلتهـا وشبشـبها وحمـض الفينيـك الـذي تفـوح رائحتـه منهـا. سـألتها محروجًـا بعينـيّ كيـف آل حالهـا إلى هـذا الوضـع؟ فشرحـت لي أنهـا كرّسـتْ حياتهـا مـن بعـدي للـرب. وهـي عـلى اسـتعداد مـن أجلـه أن تمسـح مؤخـرات كل المُصلّـين. فكـرتُ في أن ذلـك العضـو المشـقوق الكامـن خلـف كل هـذه الملابـس، التي تفـوح منهـا رائحـة أحمـاض المنظفـات، كان ملـكي يومًـا، وكنـت أفقـأه بدبّـوسي، وأنقعـه في حمـضي الأقـوى مـن الفينيـك. عرضـتُ

عليها أن نذهب لأي مكان ونشرب شيئًا. دعتني لكافيتريا على سطح الكنيسة. ظلتْ مستكينة أمامي تشبه سانت ريتا في صورها. أشفقتُ عليها؛ لقد منحتها توبتها سحنة بائسة. أي جاذبية هذه التي تضفيها المرأة على نفسها إذا قررت أن تكون مستقيمة؟ اسألوا أمي! أول ما نطقتْ، تكلمتْ عن أمها غير الواعية التي توفيت دون أن تؤمّن مستقبلًا لها هي وإخوتها:

«لم أسامحها، لكني أفتقدها بشدة، وأشعر أني وحيدة من غيرها. عليك أن تكون مُمتنًّا كون أمك لا تزال على قيد الحياة، أنت جد محظوظ».

«أنا متأكد أنكِ خُنتِني!».

«لقد انزلقت فعلًا... لكني تقززت».

«ولِمَ انزلقتِ أصلًا؟».

«ظننت بعد فقدانك أنه يتحتم عليّ من تلك اللحظة بالذات، أن أنطلق وأرتكب كل الخطايا الممكنة».

«وهل أنا من منعتك؟».

«لا، كل ما في الأمر أني مسيحية».

«ساقطة!».

«صدقني، لقد أحببتك لدرجة أني لم أجد عريسًا يليق بي من بعدك سوى يسوع!».

كيف يمكن لامرأة أن تمنح فتحتها لإله نباتي، إن لم تكن عشقتْ رجلًا حقيقيًّا، أدركتْ بصدق أنه لن يتكرر مجددًا في حياتها؟!

«وصديقي الذي صورتيه يوم خرجنا سويةً، ألم تعاشريه ولا مرة طوال غيابي؟ أنا متأكد أن على هاتفه الآن صورًا عارية لكِ».

«أنت أغبى رجل عرفته! وما تعذر عليك فهمه قبل أن تدخل البطريركية، محال أن تفهمه الآن. لم أعد ملكًا لنفسي. أما أنت، فليقتلع الرب الفكر الظالم من رأسك، وكل تخيُّل شرير من قلبك!».

***

هاتفتُ أمي من كابينة تليفون بالكنيسة، رد عليّ صاحبي إياه:

«إنها تستحم الآن».

حاولتُ ألا أجعله يسمع أنفاسي:

«غادر شقتنا حالًا وإلا أتيت لك!».

ضحك برقاعة:

«أأنت رجل بهذا القدر؟ لقد حكت ماما لي كل شيء عنك!».

صفعت الكابينة بالسماعة عدة مرات ثم تركتها متدلية وجريت للمنزل.

بتوْبتها، أثبتت روزالين رجولتي. أمسكت بفتاة يمكن أن تهمل رعشة الجماع، طالما لم أكن أنا مُسببها. يجب عليّ التخلص سريعًا من توهمات ضعفي قبل أن تنتقص من جاذبيتي.

حينما وصلت البيت كان صديقي الدونجوان قد هرب مجددًا. سألتني ماما: «أين كنت؟».

«في الكنيسة».

خافت وظنت أني حكيت هناك ما يقضي على هالتها وسط معارفها. غريب أمر النساء! بعد حياتها المليئة بكل هذا الخراء، كانت تطمح في هالة من تلك الهالات الموجودة في أيقونات الكنيسة حول وجوه المريمات.

«ماذا فعلت هناك؟».

«صليتُ».

لطمتني:

«لا تسخر من مقدساتي!».

«لقد قابلت روزالين، وقالت إنها لم تحب رجلًا مثلما أحبتني».

«وما الغريب في هذا؟».

«ما الغريب؟! كنت أظن جميعكن...».

«أي بطن وسخة التي حملتك؟!».

«ظننتها ضاجعت كل أصدقائي وأنا متغيب، مثلما كنتِ تحملقين في قضبان أصدقاء بابا البارزة من تحت بناطيلهم، في سهراتهم عندنا بالمنزل. أنا متأكد أنكِ كنت تقضين الليل بأكمله في قياسها».

احمر أنفها وتهدجت نبرتها وسريعًا ما ابتلّت عيناها بالدمع. جريتُ وعند قدميها اتكأتُ:

«أنا وأنتِ أخطأنا في حق الرب. فلنتُب الآن قبل الموت. لقد اختبرت الله في البطريركية وازداد إيماني به. اذهبي وافتحي حقيبتي التي عُدت بها، ستجدين إنجيلي الصغير. لولاه ما

كنت خرجت. لقد صليت له كثيرًا حتى ظهر لي ملاكه في إحدى الأمسيات، وبشّرني بأننا قريبًا جدًّا سنتخلص من أبي. وهو ما تم فعلًا! كيف لي أن أظل على إلحادي السطحي بعد معجزة مُلهمة كهذه، هي أول ما طلبناه أنا وإخوتي بمجرد أن تعلمنا الصلاة. واحزري ماذا أيضًا؟ لقد أخبرني الملاك أنهم في السماء يعدونكِ قديسة بسبب ما تحملتِ من زوجك ومن أبنائك. لا تصدقينني، أليس كذلك؟ أين أبي إذًا؟ لن ترينه ثانية حتى مماتك. لقد استمع الله لتضرعاتك. هو مَن قال: حوّلي عينيك عني، لأنهما غلبتاني. لقد كان يقصدك أنتِ بالذات. لم يتحمل أن يسمعك تتأوهين بسبب لطمات بابا، وبعدها مضاجعة بقية عشاقك لكِ. لم يتحمل النقي القدوس كل هذا القرف...».

وهنا نهضتُ وأمسكتها من كتفيها فوقفتْ معي. حملقتُ في عينيها المنكسرتين:

«أرجوكِ، ساعديني كي أنسى كل ما جرى لي على أيديهم وأسلك في حياتي التي لم أبدأها بعد! روزالين قالت أنها أحبتني. تخيلي؟ لقد تخلت عن فساقتها التي أحبتها، وجعلت من نفسها كنيسة لي، أنا الإله غير الموجود!».

«أساعدك؟! كفى عليك أني أنجبتك».

«هذا ما أخبروكِ به أنتِ وأبي، لكنهم نسوا شيئًا؛ هناك ضريبة دومًا للخلود!».

متمِّمًا جُملتي في سري: سبق ودفعها هو!

«لماذا تشغل بالك بهم؟ أنت الآن مجرد اسم في سجلاتهم».

«إياكِ أن تقولي هذا الكلام مرة ثانية! إياك أن تقوليه! حينما هاتفتك من تليفون الكنيسة، سمعت خرفشة على السماعة. هذا التليفون الذي تأتيك منه أصوات مُهيجة من أصدقائي تؤنس أمسياتك، مُراقب. كما أني في طريقي إلى هنا رأيت قومندانًا منهم، لكنه كان بملابسه العادية، وكان خارجًا من محل الأدوات الصحية الذي على ناصية شارعنا».

«نعم، هو رجل بيت في نهاية الأمر. حينما رأيته كان مواطنًا طبيعيًّا!».

«آخ أنتِ لا تفهمين. كم أنتِ غبية! لا تعرفين شيئًا عما فعلوه معي هناك. لن أعود لثكنتهم. لقد اضطروني مرة أن أمسك عضو أحدهم. أنا لستُ شاذًّا كما ردَّد زوجك! بالمناسبة، أخبريني بما أنكِ أُم؛ كيف استطاع البطريرك ليلتها بعد أن أودعني في محبسه، أن يعود لمنزله ويداعب أبناءَه ويحملهم ويراهم نيامًا؟! لا تملكين إجابة، أليس كذلك؟ لأن جميعكم متشابهون. كنت أعرف وأنا هناك أنكِ عميلة لهم. لذلك جلبوكِ بسهولة في حفلهم. وربما تنقلين لهم الآن كل تحركاتي. لقد رأيت القومندان وهو يقبض على كيسه ويرفع إصبعيه لي متوعدًا إياي. لقد وشى بي زوجك! أنا متأكد. ذلك الحفل كان مجرد فخ. سرّحوني كي يتأكدوا أني على اتصال بأعدائهم الذين لا أعرفهم. ومن ثم، يكون الصيد أكبر، والعملية لها أبعاد أشمل. أو ربما أخبرهم زوجك حينما اعتقلوه، أني أردت تهريب الكاندوم معه، وأننا نملك مخزنًا يعج بكل الواقيات التي سرقناها منهم. لا لا، هم لا يريدونني بعيني. أنا لست بهذه الخطورة للأسف الشديد. أنا بالنسبة لهم، مثلما كنت

بالنسبة لكِ وله ولروزالين، وحتى في عيني نفسي: ضئيل جدًّا هشٌّ، رغم شقاوتي!».

«أي كاندوم هذا الذي تتحدث عنه؟ ماذا تريد مني يا مخبول؟».

«أريد الخلاص لكِ؛ الموت يأتي في أي لحظة، وبعده لا توجد أي فرصة».

كانت مُتيَّمة بالبابا وبمواعظه التي صارت لها أطراف حادة من كثرة قولبتها، عَبَدَتْه لدرجة زجت بها أن ترمي بنصف جسدها من البلكونة يوم تنيَّح. فهرعتُ يومها أنا وأخي وأختي الصغيرة، وأمسكنا بها من وسطها، بينما أصحاب المحلات في الشارع يحملقون في نهدي القبطية الناشز، المتجليين مثل قمرين في النافذة، ويتحسرون على زوجها القابع في غرفته يدعك مصباحه. لذلك حينما سمعتْني أقتبس من أقوال صاحب القداسة والغبطة الآن، لم تملك سوى أن تنزل أمامي على ركبتيها، وتبكي. أما أنا فوضعت يدي على رأسها وقلت لها في سري؛ هذا الابن الذي خُيِّل لكِ أنه ضال، انتظرك كثيرًا وقت الغروب، عند البئر... أيتها السامرية.

من واجهة المدرسة، أطل على الشارع تمثال بحجم بشري للقديسة كاترين، وكُتب تحته بأرقام بارزة: تأسست المدرسة عام ١٨٤٨. تخيلوا أن هذا المعبد الثقافي العريق، مارست ماما تحت قبته أردأ أنواع المغازلات تجاه مديريها. ولو علم فرنسيس الأسيزي بهذا لما أسس حركته الفرنسيسكانية من الأساس. كانت القديسة كاترين مُمسِكة بعشبة خضراء، بينما

يدها الأخرى مستندة على عجلة ترتفع حتى خصرها، تبدو مثل ساقية، انتصبتْ منها أطراف مدببة كالأشواك. أعتقد أنه الهنبازين الذي عذبوها به. ظللت أرقب الشارع من خلف التمثال، حتى ظهر المُحقق يرتدي قبعة طولية مثل ساحر. لماذا أتى بمفرده؟! نزلت درج المدرسة وهرولت إليه: «أين قومندان الأمن والبطريرك، ودوناتيلو والصبيان؟ هل ستقوم بالعملية بمفردك، أم أنكم تشكّون في تقاريري؟».

«لا أخفيك سرًّا، في البدء ظننا مكالماتك فخًّا، لكننا أرسلنا عملاءَنا السريين إلى المدرسة ووصلتنا التقارير بأن امرأة مخبولة تعيش فعلًا هنا بمفردها، مثل فأرة، في مخزن من مخازن المدرسة».

«معقول! بعد أن رأيتم فتحتي الخلفية، لا زلتم لا تثقون فيّ؟!».

«نحن نحاول إحكام قبضتنا على هذا التنظيم النسوي منذ أشهر، لتأتي أنت هكذا بكل سهولة وترشدنا إليه؟!».

وسّعتُ عينيّ:

«شكّك في محله، لكن اسمح لي حضرتك أن أخبرك بالتكتيك البطريركي الذي اتّبعته: لقد تعرّفتُ على فتاة متعصبة منهن في حفل ثقافي، وظللت أهمس في أذنها بكلام تافه من النوعية التي يحبونها، ولم تفتح البلهاء عينيها إلا على فراشي. أدخلتُ الرأس فقط عدة مرات. بكتْ وطلبتْ أن أملأها. أمرتها أن تعترف على الطريقة المسيحية. والحق أنها كانت مؤمنة جدًّا!».

«هايل! أخبرني صحيح، هل قرأت عن حروب الجيل الخامس؟ وهل آمنت الآن بأن للبطريركية أعداء حقيقيين؟».

«نعم، لكن يجب أن نسرع الآن كي ننقض عليهن وهن مجتمعات مع الزعيمة أسفل هذه المدرسة اللعينة؛ سمعت أنهن سيخرجن غدًا في مظاهرات مليونية بملابس الشاطئ والفساتين. منذ زمن وهن يستخدمن مطابع هذه المدرسة في تحرير النشرات التي تُوزع خِفيةً داخل أكياس الفوط الصحية، وداخل كتب العلوم للمرحلة الإعدادية. مرحلة البلوغ والفوران. اسمح لي حضرتك؛ لقد كانوا أكثر ذكاء...».

قطعتْ كلامنا فجأة طقطقة صادرة عن مكبرات الصوت المعلقة على حوائط الفناء. تشويش. ثم استقام الأثير أخيرًا بصوت أنثوي يلقي الخطاب الذي كتبتُه لها وهي نائمة على حِجري في دفء قبو المدرسة. فأُمي، مُدرّسة العلوم بالمرحلة الابتدائية، التي تقضي الجزء الأكبر من يومها مع أطفال لا يتعدون التاسعة من أعمارهم، بين ضحك وإقناع وشرح وصراخ، لم تكن أبجديتها برموزها واستعاراتها، لتسمح لها أو تؤهلها لكتابة بيان تجييشي ملتهب يثير رجال البطريركية لدرجة أن يقتلوها.

ليلتها، بعد أن كتبتُه، قرأتُه عليها ثم طلبتُ منها أن تتدرب على إلقائه أمامي، ثم التقطتُّ لها صورة تنافس صورة البطريرك الأعظم. كان لا بد أن تكون صورة فاضحة حتى تستفزهم. فأمرتها أن تتعرى، لأن الخلاص في طائفتنا مقرون دومًا بالعُري:

كحقيقة أن الخيل تأكل الشعير، وأن نهر الفولغا يصب في بحر قزوين، كانت حقيقة جنسنا جلية أمامنا، من يوم كُنّا مجرد بيض في أحشاء أمهاتنا، داخل أرحام جداتنا! أما أنتم فلا نراكم سوى حيوانات ضوئية بذَنَب رفيع، تائهة متخبطة داخل مجرّات أجسامنا.

كان يا ما كان، خلق الله العالم، وأودع به حورية وغُولًا وصبيًّا مشتتًا.

ثم لويتم أنتم رقبة هذا العالم، حينما أقحمتموه في حروبكم المغولية التي ظننتموها لعبة طفولية في دفء خيمتكم الملونة، وحينما حوّرتم مسدساتكم البلاستيكية لصواريخ عابرة للقارات، ولبنكم لبترول، وعرباتكم القابلة للكسر لمدرعات تقصف بيوتًا، ومُكعّباتكم الملوّنة لشوالات رمل تحصنون بها خنادقكم. ولما انتهيتم، فكرتم أن تشركونا معكم في لعبتكم وفقًا لقواعدكم؛ فجعلتم منّا مومسات بالجسد والفكر في مجالسكم وبرلماناتكم.

الحق، إن هذا العالم البطريركي ما هو إلا غابة مزودة بأقمار صناعية!

تصمت برهة كما درّبتها، ثم تواصل:

واعلموا أننا نعرف البطريركية مهما تعددت أسماؤها، لأننا أمهاتكم وأخواتكم وبناتكم. وأن الشعب -أي شعب- لا يختار مؤسساته، مثلما لا يختار لون عيونه أو شعره. وأنه لا

يمتلك أيَّ قدرة حقيقية على تغييرها. لا ريب في أنه يستطيع تعديل اسمها عن طريق إشعال الثورات. وكلامي هذا لا يعني فقط أننا فضحناكم، بل إن البطريكية قابلة في يوم لا تعرفونه، وساعة لا تعلمونها، أن تتفتق عن كيان آخر جديد، سيخلصنا من قطرات بولكم على مراحيضنا ومن شعر ذقونكم في أحواضنا. كيان يتوحد مع مؤسستكم حتى يغلبها؛ إنها المطريركية!

دعونا ننتشلكم مرة واحدة، من أجل تخبطكم، مِن لُجَّة مفاهيمكم. حان الوقت أن تعرفوا معنى أن نكون نسويات، لا نسائيات. لا نكترث لحلاقة الإبط أو ارتداء الفساتين. نحن النسويات نحارب أي سلطة قامعة، وكل ظلم واقع على أي طائفة، سواء كان بسبب جنسها أو ديانتها أو إعاقتها الجسدية. النسوية هي المنأى الوحيد عن السلطة الأبوية التي خلخلتْ بيوتنا وآذتْ مفاهيمنا وحرمتْ كل رجل حق التعبير عن مشاعره. الأبوية هي التي ظلمت الأب لمّا استلبت منه دور الراعي، وحولته لجزار يضاجع ويحرس.

لسنا قططًا أو عصافير أو أبقارا! ولا تحتاج أن تتزود في طريقك إلينا بسوط! ورواياتنا واهتماماتنا ليست صغيرة! ولم نُخلق كي نكون آلات للجنس والاستيلاد! قضبانكم جزء من لحم أمنا حواء، فقدته كعقاب إلهي لها يوم سقطتْ، وإذا لم تنضموا لنا، سنستردها منكم ولو بدمائكم! حتى لو تطلَّب الأمر أن تصير لدينا قضبان دون رجال!

تسلق أسوار المدرسة صبيان عُراة تمامًا أجسادهم مفتولة العضلات. تكوينهم غير آدمي؛ لهم أوجه مسطحة، وأفواه مُقبّبة، وأنوف فطساء، وشعر منفوش متسخ، ولحى غزيرة كالتي تنبت للغنم. مشيتهم أيضًا لم تكن مستقيمة، إذ كانت جذوعهم منحنية كأنهم ليسوا معتادين الارتكاز على اثنتين. ثم ظهر خلفهم قومندان الأمن فاطمأننت. رفع ذراعه مُشيرًا لهم نحو بناية المدرسة. فاعتلوا الأشجار وقطفوا ثمارها ورموها على الأرض ورشقوا النوافذ بالطوب. ودلّوا أذيالهم لبعضهم البعض فتسلقوها. وتربعوا على الأسطح القرميدية وسكنوا منارات الأجراس. وراحوا يصفقون ويصيحون. ومضغ أحدهم بنهم العشبة الجبسية من يد القديسة كاترين. بينما اقتلع زميله العجلة التي كانت تستند عليها، أغلب الظن أنهم سيعذبون بها الزعيمة بعد اغتصابها.

أرشدتهم إلى مخزن الكتب الذي كانت تبث منه خطابها. فهرعوا وقفزوا ومشوا على الجدران، وهم لا يزالوا يرددون صيحاتهم الغوغائية. كانت وجوه أغلبهم مألوفة؛ إذ كانوا زملائي في البطريركية. اشتممت رائحة عرقهم العفنة، ورأيت أظافرهم السوداء النتنة، وسمعت أحدهم ضرط مثل دانة مدفع. وقفوا أمام الباب وكانوا على وعي، رغم ملامحهم غير البشرية، بأن شيئًا مميزًا ينتظر أسنانهم وأظافرهم في الداخل، فشعّت ملامحهم سرورًا، وطفقوا يصفقون بأيديهم المشعرة في اهتياج شديد، وارتعشت أبدانهم، وكوّروا شفاههم الغليظة مثل أبواق، وظهرت أسنانهم العريضة الصفراء، كل ذلك بينما لا يكفّون عن ترديدها بشكل متلاحق

مقيت أرسل كهرباء أسفل جلدي: هووووه هووووه هووووه هووووه هووووه هووووه. فتحتُ الباب وتركتهم يشتبكون معها. أوقعوا الأرفف ومزقوا الكتب. كتبي التي ستفتديني؛ مزقوا أغلفتها وأكلوا ورقها. أفرغوا حقيبة الزعيمة. لهوا بمشطها وتناوبوا على إصبع الروج فلوّنوا شفاههم. حملقوا في مناظرهم على سطح مرآة البودريرة وراحوا يخمشون هؤلاء الذين يطلّون عليهم من الخلف. من فرط هيجانهم لم ينتبهوا لرائحة الزيت الحادة التي عبقت المكان. أعتقد أن الوحيدين اللذين كانا بمقدورهما استشعارها؛ هما قومندان الأمن والمحقق. راجعت ذاكرتي وتأكدت أني رأيتهما يدخلان المخزن بالفعل، وبالأخص القومندان، لأنه هو منْ صفعني يومها في العنبر. أغلقتُ درفة الباب الحديدي الذي لا يوجد مخرج للمخزن غيره، ووضعتُ عليه القفل. صرخ أحدهم لمّا انتبه أني حبستهم، فقلّدوه. سمعت صوت الأرفف في الداخل تتساقط مثل زلزال فعلمتُ أن ماما فعلتها. راحوا يخبطون بأيديهم على الباب، ولحُسن حظي لم أفهم لغتهم ولم يثيروا شفقتي.

لم يتسنَّ لي سماع شيء من هلاكهم في البداية بسبب صراخهم الهستيري، بيد أنه سريعًا ما التحمتْ في أنفي رائحة جلودهم برائحة الدخان والورق. وشيئًا فشيئًا خَفَتَ صياحهم وعَلَتْ عليه المحرقة بضجيج نيرانها الملتهمة كل ما قابلها. اشتممتُ رائحة أمي المشوية مع فئرانها الكبيرة التي عاشرتها طوال هذه المدة. تلك الفئران العطوفة التي تحملت مسئولية إطعامها بعد أن اقتاتت لأيام على الورق.

لا يمكن لقلم، مهما كان سريعًا، أن يكتب حرف «أ» أو حرف «ر» أسرع من اندلاع اللهب. هكذا وصف دانتي لحظة احتراق ماما في جحيم كوميدياه الإلهية.

كانت ماما أسرع من القومندان والمحقق، إذ قبل أن يعثرا عليها داخل المخزن، أشعلتْ كتبنا التي غمسناها معا في چراكن الزيت المُحفِّز.

في ليلة زفافها بالكنيسة حينما غطوها بالرداء المُوَشّى بصلبان، وألبسوها التاج الذهبي، دهنوا رأسها بزيت أيضًا. لكن زيت الأتون هذه المرة، كان أكثر رحمة بها من زيوتهم المقدسة.

لا زالت نبرتها الساذجة ترن في أذني حينما سألتني: هل سأموت؟ استنكرتُ عليها سؤالًا كهذا، وقلت لها: قديسة مثلك، تزوجتْ من رجل مثل أبي، وأنجبتني، أمِن العدالة أن تمسَّها نار؟!

أهم المصادر والاقتباسات

*الإنجيل - القرآن الكريم

*قاموس المعاني

*الدولة والثورة، لينين، دار الثقافة الجديدة.

*سيكولوچية الجماهير، غوستاف لوبون، دار الساقي.

*ديوان نيتشه، فريدريك نيتشه، منشورات الجمل.

*خيارات صعبة، هيلاري كلينتون، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

*قتل الإسلام وتقديس الجناة، وضاح صائب، مؤسسة الانتشار العربي.

*محمد في عيون مستشرق، إميل درمنغم، الأهلية للنشر والتوزيع.

*أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، لوك فيري بالتعاون مع كلود كبلياي، دار التنوير.

*تراچيديات سوفقليس، ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

*حضارة العرب، غوستاف لوبون، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

*فتح أمريكا: مسألة الآخر، تزفيتان تودوروڤ، دار العالم الثالث.

*شرح ديوان الحلاج، د. كامل مصطفى الشيبي، منشورات الجمل.

*الكوميديا الإلهية، دانتي أليجييري، دار ورد.

*المرأة في عينيْ نيتشه، مقالة لفاطمة ناعوت، موقع ٢٤ .

*سياسة التلويح بالأعضاء، مقالة لهشام فهمي، موقع منشور.

*حروب الجيل الرابع: محاولة للفهم والتميز، مقالة لأشرف أبو الهول، موقع الأهرام.

*بين الصوابية السياسية والستالينية الجديدة، مقالة لمحمد عمر جنادي، موقع منشور.

*تاريخ النسوية الأسود، مقالة لندى نشأت، بوابة الشروق.

***

*وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره... الإنجيل، سفر صموئيل الثاني.

*رأيت ربي بعين قلبي... قصيدة للحلاج.

*في الليل على فراشي... الإنجيل، سفر نشيد الأنشاد.

*يا ترى ناسي... أغنية لفرقة أوتوستراد الأردنية.

*القصيدة الروائية حقيقية ولا تخص المؤلف.

مارك أمجد

روائي وصحفي مصري، ولد بالإسكندرية ١٩٩٤.

تخرج في كلية الإعلام جامعة القاهرة.

حصل على العديد من الجوائز منها:

- جائزة ساويرس الثقافية ٢٠١٧ عن مجموعته «نشيد الجنرال».

- جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة، دورة صبري موسى عن قصة «شي جابي» ٢٠١٤.

صدر له:

- نشيد الجنرال. قصص، عن دار الثقافة الجديدة، ٢٠١٦.

- الرقص على أرغن الرب. رواية، عن دار الثقافة الجديدة ٢٠١٧.

البطريركيّة

سلّمونا في البطريركية أول يوم حقيبة جلدية صغيرة بها سكّين حاد وواقٍ ذكري وشرابات صوفية رمادية وسراويل داخلية بيضاء خالية من أي نقوش أو رسومات، ثم تسلموا منّا في مشهد كامل العري سراويلنا الشخصية التي أتينا بها من منازلنا، الملوّثة برسوم لميكي ماوس وبات مان... كان السكّين لاستخدامه في تمارين القتال اليومية. والواقي كُتبت عليه منذ أول يوم أسماؤنا، وعُلّق بدبوس على ياقة سَتراتنا، ونبهوا علينا طوال اليوم أن عقوبة ضياعه السجن.

أما البطريركية نفسها فكانت عبارة عن هنجر حديدي عملاق، تحيط به حظائر مَسورّة بشباك معدنية، تقبع داخلها مانيكانات نسائية من خشب، لها نهود بحلمات في حجم البلح وفرج مُبطّن بالإسفنج. سنتدرب أمام تلك المانيكانات المستسلمة حينما تبدأ فترة تمريننا..

مارك أمجد

روائي وصحفي مصري، ولد بالإسكندرية 1994. حصل على العديد من الجوائز، منها: جائزة ساويرس الثقافية 2017 عن مجموعته «نشيد الجنرال». وجائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة، عن قصة «شي جابي» 2014.

صدر له: مجموعة قصصية "نشيد الجنرال". ورواية "الرقص على أرغن الرب"، عن دار الثقافة الجديدة.